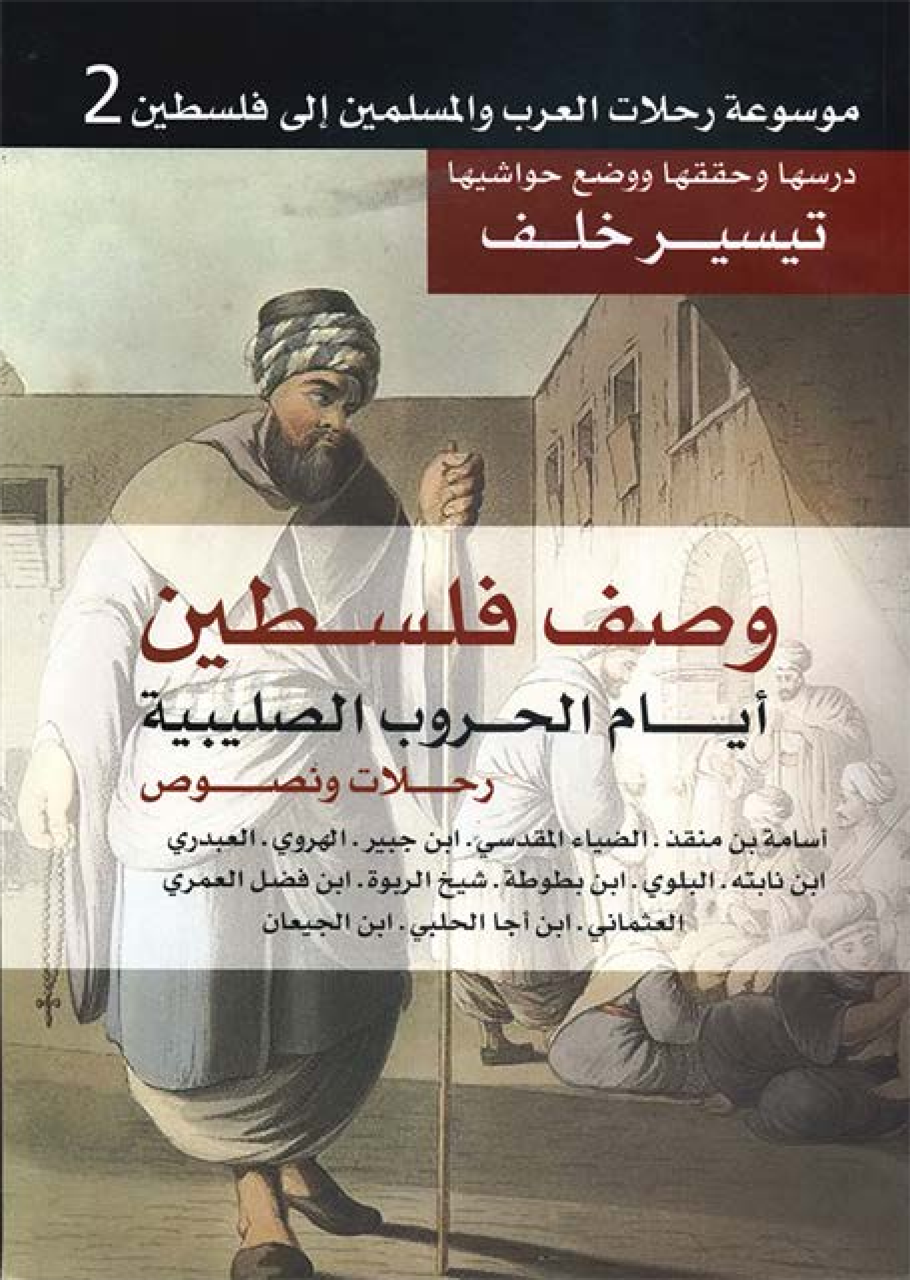


موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 2

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

وصف فلسطين

أيام الحروب الصليبية

رحلات ونصوص

أسامة بن منقذ . الضياء المقدسي . ابن جبير . الهروي . العبدري
ابن نابته . البلوي . ابن بطوطة . شيخ الربوة . ابن فضل العمري
العثماني . ابن أجا الحلبي . ابن الجيعان

وصف فلسطين
أيام الحروب الصليبية

وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية

درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org

E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com



بالتعاون مع

دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة – تلفاكس: 0097167423189

E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com

E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعة الأولى : 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com

http://www.neelwafurat.com



موسوعة

رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين

«الجزء الثاني»

وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية

رحلات ونصوص

أسامة بن منقذ، الضياء المقدسي،
ابن جبير، الهروي، العبدري، ابن نباتة، البلوي،
ابن بطوطة، شيخ الربوة، ابن فضل الله العمري، العثماني
ابن أجا الحلبي، ابن الجيعان

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بمروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تُقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين

وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها. وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌّ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كعدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تمهيد

أعلن البابا أوربان الثاني (Urban 2) خلال مجمع كليرمون (Clermont) عام 1095م، عن انطلاق الحروب الصليبية (لتحرير القبر المقدس) من أيدي (البرابرة الكفرة)، بعد أن أحكم ابنا أرتق بك ذلك القائد السلجوقي التركي، سقمان وإيلغازي السيطرة على بيت المقدس، ومارسا الاضطهاد على المسيحيين، حتى فر بطريرك القدس سمعان ومعه رجال الأكليروس إلى قبرص[1].

وكانت خميرة هذه الحروب قد هجعت داخل النفوس منذ أن صعد إلى الحكم في القسطنطينية نقفور فوكاس، الذي بدأ يطالب علناً بـ(استرجاع) بيت المقدس من أيدي المسلمين[2].

ثم سارت الأمور بعد ذلك بخطى حثيثة نحو التصادم الديني، بعد أن هدم الحاكم بأمر الله الفاطمي كنيسة القيامة عام 1007م مع الكثير من كنائس النصارى الأخرى، وطلب من المسيحيين أن يعلقوا الصلبان في أعناقهم، وأن لا يضعوا في أصابعهم اليمنى الخواتم، وأن لا يركبوا الخيل، على أن يركبوا البغال والحمير، تحت طائلة الإبعاد إلى بلاد الروم لمن لا ينفذ هذه لأوامر.

وكان من نتيجة ذلك، هجرة عدد كبير من المسيحيين العرب إلى بلاد الروم، واعتناق بعضهم الإسلام مرغمين، وتأجج النفوس بمشاعر البغضاء خصوصاً أن حرباً أخرى كانت تشن ضد المسلمين في الثغور الشمالية، حيث أرغم أهالي طرسوس والمصيصة وغيرها من المدن الشامية الشمالية على اعتناق الديانة المسيحية هرباً من الاضطهاد الرومي، أو الفرار إلى المدن الداخلية.

وعلى الرغم من أن الحاكم بأمر الله عاد عن قراراته، وأمر بإعادة بناء كنيسة القيامة على نفقة الدولة الإسلامية، وسمح لمن دخل من المسيحيين إلى الإسلام مكرهاً،

---

[1] - تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، بالعربية ج1، ص 315

[2] - الحروب الصليبية في الآثار السريانية، اسحق ارملة، ص 6

بالعودة إلى دينه، على الرغم من ذلك لم تندمل الجراح وظل الشك والريبة هو سيد الموقف بين الطرفين، خصوصاً أن السلاجقة الأتراك، كانوا يقوضون الوجود المسيحي في آسيا الصغرى، بالحروب الصغيرة والكبيرة، واستخلاص القرى والمدن شيئاً فشيئاً من أيدي ملوك الروم البيزنطيين.

وكانت ذروة هذا الشحن الديني قد بلغت منتهاها باستيلاء الأراتقة على بيت المقدس، وممارستهم شتى صنوف الإذلال للحجاج المسيحيين، وهو ما خلق الذريعة للبابا أوربان الثاني ولأمراء وملوك الفرنجة لكي يعلنوا حروبهم الصليبية المقدسة، التي كلفت العالم العربي في ذلك الزمن، أثماناً باهظة ما تزال تبعاتها تلقي بظلالها على عالمنا المعاصر، حتى بعد أكثر من تسعة قرون على اندلاعها.

هكذا خرج أربعة من مملوك الفرنجة من بلادهم سنة 1098م، وهي السنة 492 هـ، هم: بيموند، وغودفروا، وسنجيل، وطنكريد، صحبة الكثير من الأمراء والضباط والصناع، والآلاف المؤلفة من الجنود، مصطحبين معهم جيشاً من الأساقفة والأكليروس والرهبان.

وكانت فلسطين يومها قد عادت إلى سلطة الأفضل الفاطمي، بعد أن أخرج سقمان والأراتقة منها عام 1096م.

ولم يحل شهر تموز من عام 1099م؛ حتى وصل الفرنجة إلى القدس وفتحوها بعد حصار قصير في 15 منه، ووضعوا السيف في أهلها واستباحوا المدينة أسبوعاً كاملاً، حيث بطشوا بثلاثين ألفاً في أحياء المدينة[3]، وبسبعين ألفاً كانوا معتصمين داخل الحرم القدسي، حسب رواية ابن العبري لهذا الحدث الجلل. وأشار ابن العبري إلى أن الفرنج أخذوا من مسجد [قبة] الصخرة أربعين قنديلاً فضية وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة، بينها عشرون قنديلاً من الذهب المصري، وأخذوا منارة فضية وزنها أربعون رطلاً سورياً، يساوي كل رطل ستة أرطال بغدادية[4]. وهكذا أصبح غودفروا دي بويون الفرنسي أول حاكم فرنجي صليبي للقدس عام 1098م تحت اسم (حامي القبر المقدس)، ولكن بعد أقل من عامين خلفه شقيقه بغدوين الأول، فلبس التاج وحمل لقب الملك مدة سبع عشرة سنة أخرى. ولكن القادمين بدعوى رفع الاضطهاد عن المسيحيين في بيت المقدس، سرعان ما مارسوا اضطهادهم بحق المسيحيين المخالفين، فأخرجوا الروم من الكنائس الكبرى،

---

[3] - المصدر السابق، ص 27.

[4] - تاريخ الزمان، لابن العبري ص 124- 125.

وأبعدوا أساقفتهم، وأقاموا من شعبهم بطريركين أحدهما لأورشليم (القدس)، والثاني لأنطاكية. وقد نصب بطريرك القدس أساقفة لبيت لحم، وحبرون [الخليل] والسامرة [نابلس]، ويافا، وقيسارية، وصيدا، وبيروت. وكانوا قد نصبوا قبل الاستيلاء على القدس أسقفاً نورماندياً للرملة التي فر أهلها منها دون أي دفاع، ولما استولوا على صور فيما بعد رسموا لها أسقفاً تابعاً للكرسي المقدسي. وهكذا أصبحت جميع أراضي فلسطين- باستثناء عسقلان[5] - تحت حكم الصليبيين المباشر، والذين اتخذوا بيت المقدس عاصمة لهم، وبدؤوا يمارسون سلطتهم على أبناء فلسطين من العرب المسلمين، الذين تناقص عددهم بشكل كبير نتيجة هجرتهم هرباً من خدمة الأسياد الفرنجة، ودفع الضرائب الباهظة لهم.

وما إن تسلم نور الدين محمود بن زنكي الحكم في بلاد الشام، حتى بدأت الكفة ترجح لصالح العرب المسلمين، وبدأت مسيرة التراجع الصليبي بالتسارع.

وقد خاض نور الدين حرباً ديبلوماسية على جبهة حكام دمشق، معين الدين أنر، ومجير الدين أبق، آخر سلالة الأتابك ظهير الدين طغتكين، الذي قد كان بدأ بتقويض التوسع الفرنجي نحو محيط فلسطين، واستطاع أن يحصره، إلى حد بعيد، ضمن الأراضي التي استولوا عليها في الحملة الأولى، وأسسوا بموجبها مملكة بيت المقدس.

غير أن أتابكه أنر وحفيده أبق عقدوا المعاهدات مع فرنجة عكا، وأصبحوا وإياهم في مركب واحد لمواجهة نور الدين، الذي استطاع بفضل رويته ودأبه أن يستخلص دمشق من مجير الدين أبق بعد وفاة أتابكه الداهية معين الدين أنر، تحت شعارات الجهاد وتحرير بيت المقدس والبلاد الشامية المحتلة من أيدي الفرنجة[6].

وقد حقق نور الدين على هذا الصعيد انتصارات باهرة؛ مهدت لانتصارات صلاح الدين اللاحقة، وخصوصاً في معركة حطين، التي أذنت ببداية النهاية لأسطورة الصليبيين، والتي تواصلت بعد ذلك بضع عشرات من السنين بسبب تخاذل وخلافات خلفائه الأيوبيين، إلى أن صعدت طبقة عسكرية جديدة كان أبرز وجوهها الملك المظفر قطز، والملك الظاهر بيبرس، ألحقت الهزيمة بالمغول في عين جالوت، وواصلت قتال بقايا الفرنجة حتى أخرجتهم نهائياً من عكا، آخر معاقل الصليبيين في فلسطين، في 17 جمادى

---

[5] - سقطت عسقلان عام 548هـ 1153م، على يد بغدوين الثالث، وقد وثق أسامة بن منقذ قصة هذا السقوط وحيثياته والذي سنتناوله في الفصل الأول من كتابنا هذا.

[6] - للتوسع راجع ما كتبه الدكتور شاكر مصطفى في الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الجزء الثاني، من الصفحة 389 إلى 401، وفيها دراسة قيمة حول علاقات حكام دمشق مع الصليبيين ونور الدين

الأولى سنة 690م [18 أيار 1292م] في عهد الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون، الذي واصل خلال أسابيع تالية تصفية الوجود الصليبي برمته في منطقة بلاد الشام.

الأدب الجغرافي كمصدر غير تقليدي لفهم التاريخ

تلك كانت باختصار كبير، وقائع التاريخ الحولي للحروب الصليبية، التي دونت في المصنفات الكثيرة، العائدة لتلك المرحلة، غير أن ثمة مؤلفات غير هذه، رصدت جانباً من جوانب الصراع مع الصليبيين، لا يهتم فيها عادة واضعو كتب التاريخ الكلاسيكي، ألا وهي كتب الرحلات بالدرجة الأولى، والتي أخذت أحياناً صفة مصنفات جغرافية وبلدانية، اختصت بوصف الأمصار وأحوال السكان من مختلف الجوانب الحياتية والاقتصادية والمعيشية، وهذه الرحلات لم تأخذ شكلها النهائي بالعربية[7]، كما وصل إلينا، إلا مع الرحالة الأندلسيين والمغاربة، الذين كانوا يوثقون زياراتهم وحجهم إلى البقاع المقدسة، بنوع من الأدب الرفيع، استحق عناية واهتمام الباحثين عن مصادر غير تقليدية لكتابة تاريخ البلاد، وفهم الأبعاد المختلفة للصراع، واستخلاص العبر منه بغية بناء وعي تاريخي مختلف وقريب من حقيقة الأمور. وليس كما دونها مؤرخو البلاطات وموثقو الأوامر السلطانية.

وعلى الجانب الآخر، وفي الفترة نفسها تقريباً، ازدهر في المشرق العربي نوع آخر من الأدب الجغرافي، انبثق عن أدب الرحلات الكلاسيكية التي وضعها المؤسسون في كتب المسالك والممالك وأوصاف الأقاليم. والمقصود هنا، تلك الموسوعات الكوزموغرافية الكبيرة التي تتحدث عن كل شيء، وتصف البلدان، والشعوب، والأقاليم، والعادات، والأديان، والمعادن، والآثار والمزارات وعجائب المخلوقات وغير ذلك.

فهذان الصنفان من الأدب الجغرافي صنوان فرضتهما الظروف الموضوعية لكل من المشرق والمغرب كلاً على حدة، غير أن ذلك لم يمنع تأثر المشارقة بأدب الرحلات الذي استنه المغاربة، كما تأثر المغاربة، من جهتهم، بالأدب الجغرافي الذي وضعه المشارقة، في علاقة تأثر وتأثير متبادل ومستمر طوال الزمن.

لقد وفرت كتب الرحلات والمصنفات الجغرافية والبلدانية؛ معلومات غاية في الأهمية عن فلسطين أيام الحروب الصليبية، لم تلتفت لها كتب التاريخ الحولي، وتتعلق في غالبيتها بشكل العلاقات بين المحتلين الصليبيين وأهل البلاد العرب، وكذلك العلاقات

---

[7] - تعد رحلة ناصر خسرو الأولى التي تكتب بهذه الطريقة، اي صياغة التجربة الحياتية والفكرية والفلسفية في نص ادبي من خلال زيارة الأماكن المقدسة، في رحلة تبتغي التطهر من ادران الحياة

الاقتصادية والتجارية التي كانت تربط بين الدول المتحاربة، والمعاهدات التي كان يلتزم بها الجانبان، وأوضاع العلم والعلماء والنشاط الفكري والديني، إضافة إلى الأوصاف المعمارية والتشكيلات العمرانية التي كانت سائدة آنذاك، إضافة إلى المعلومات الطبوغرافية وطرق المواصلات والمقامات والأضرحة.

معطيات سكانية :

لقد زودتنا رحلات ومذكرات الأمير العربي أسامة بن منقذ التي لخصها في كتاب (الاعتبار)، بالكثير من المعطيات السكانية حول العرب الفلسطينيين تحت حكم الصليبيين، وخصوصاً في المدن، ومن خلال هذه المعلومات التي تضمنتها فصول كتابه، نستطيع أن نقول إن الكثير من الفلسطينيين كانوا مصممين على البقاء في أرضهم على الرغم من أنهم كانوا يتعرضون لمختلف صنوف الاضطهاد، وقد لمسنا من خلال قصة أعمى نابلس، التي سيرد تفصيلها في مكانها، أحد أشكال المقاومة المسلحة التي كانوا يخوضونها ضد الاحتلال.

كما تزودنا رواية الضياء المقدسي لرحلة آل قدامة من فلسطين إلى دمشق، بمعطيات سكانية كثيرة حول علاقة الإقطاع الفرنجي بالفلاح الفلسطيني، والتي كانت تقوم على الاستعباد، إلى درجة قريبة من الاسترقاق، وكان خيار بني قدامة وأتباعهم مغادرة هذا الواقع هرباً من العسف لدواع شرعية وأسباب علمية، توضحت فيما بعد ببناء حي الصالحية بدمشق، والذي كان منارة للعالم الإسلامي أجمع طوال قرون عديدة.

أما رحلة ابن جبير فتقدم وصفاً نادراً لأوضاع الفلاحين العرب في شمال فلسطين، وعلاقاتهم مع الإقطاع الفرنجي، حيث اضطر هذا الإقطاع في مرحلة معينة لتخفيف ضغوطه منعاً لهجرة الفلاحين وخراب الأراضي، التي كانت تدر عليه الأموال الطائلة.

ويتضح من المعطيات السكانية، التي قدمتها المصنفات السابقة، أن البنية السكانية في فلسطين ظلت محافظة على عروبتها على الرغم من كل شيء، وأن الفرنجة كانوا جنوداً ورجال دين وتجاراً يسكنون المدن المحصنة فقط، ولا وجود عملياً لهم في الأرياف.

معطيات اقتصادية :

لقد زودنا كتاب (الاعتبار) و(رحلة ابن جبير) بمعلومات قيمة عن التبادل التجاري، ونفوذ تجار دمشق لدى الصليبيين والحكام المحليين، وكيف كان الاسترقاق يُعد واحداً من

الأنشطة الاقتصادية التي كان يمارسها الصليبيون، حيث كانت أموال الافتداء هدفاً بحد ذاتها.

وقد تحول فرسان جبل الهيكل والإسبتارية في مرحلة معينة من مقاتلين (في سبيل الرب)، إلى جباة مكوس وضرائب، وحماة طرق للتجار وغير ذلك، وابتعدوا عن هدفهم الذي أسسوا منظماتهم في سبيل تحقيقه، واتجهوا لأعمال الصيرفة والوساطة وغيرها من الأنشطة المالية.

لقد كان الفرنجة الصليبيون حريصين أيما حرص على استمرار طرق التجارة مفتوحة، وعلى الموانئ أن تبقى قيد العمل، ومن أجل هذا كان المتبلدون منهم، أي الذين ولدوا ونشؤوا في بلادنا، أقل قسوة ووحشية من أولئك القادمين حديثاً من أوربا، ولديهم استعداد للمناورة السياسية، وأدركوا أهمية الفلاح العربي في حياتهم الاقتصادية، فقللوا من اضطهاده وحاولوا التشبث به قدر ما استطاعوا.

معطيات عمرانية:

قدمت لنا رحلات أسامة بن منقذ وابن جبير والهروي وغيرهم معطيات مهمة عن الأوضاع العمرانية لبعض مدن فلسطين تحت حكم الصليبيين، ومن خلال الأوصاف التي قدموها نلحظ أنهم، وإن كانوا قد حولوا المساجد إلى كنائس، إلا أنهم لم يغيروا من الشكل المعماري لتلك المساجد، وهذا ما نجده في مسجد عكا الذي حدثنا عنه ابن جبير، وكذلك في المسجد الأقصى وقبة الصخرة اللذين حدثنا عن تجربة الصلاة فيهما أسامة بن منقذ، ومسجد الخليل الذي حدثنا عنه الهروي.

ولعل اللافت للنظر تلك الأوصاف التي قدمها شيخ الربوة والعثماني لصفد بعد خروج الصليبيين منها، حيث حولها السلطان الظاهر بيبرس إلى قاعدة مملكة الجليل الفلسطيني، وبنى فيها برجاً يضارع منارة الإسكندرية، حسب تعبير العثماني، يبلغ ارتفاعه نحو 70 متراً، وقطره نحو اربعين متراً، على قمة جبل صفد، وكان يعد من عجائب البناء في ذلك العصر، غير أن الزلازل دمرته فيما بعد ولم يبق من أثره الآن سوى الأطلال.

ويبدو أن ميناء عكا الذي كان فريداً من نوعه من ناحية التحصين والحماية عن طريق السلسلة الحديدية المشهورة، بقي في الاستخدام طوال الحقبة الصليبية كما كان منذ بناه جد الرحالة المقدسي البشاري في عهد أحمد ابن طولون، حسب رواية ابن جبير.

وقد زودتنا الرحلات المختلفة التي أعقبت خروج الصليبيين من فلسطين بأوصاف شتى لمدن اندرست، بسبب الخشية من عودة الصليبيين إلى حصونها مثل عسقلان وطبريا وعكا وصور، والرملة ويافا، في حين ازدهرت مدن أخرى مثل صفد وغزة اللتين انتعشتا في عهد الظاهر بيبرس ومن أتى بعده.

الحياة العلمية :

لقد انعدمت الحياة العلمية في فلسطين أثناء الحروب الصليبية، ولعل قصة (بنو قدامة) خير شاهد على استحالة التفكير في ظل الإقطاع الفرنجي، وقد عبر الرحالة العبدري بأسى عن افتقاد فلسطين للعلماء في الفترة التي تلت الخروج الثاني للصليبيين من بيت المقدس، غير أن الرحلات التالية، وخصوصاً رحلة ابن نباتة والبلوي وابن بطوطة، وغيرهم، أوضحت أن الحركة العلمية بدأت بالعودة إلى فلسطين شيئاً فشيئاً، وعاد بيت المقدس مركزاً من مراكز رواية الحديث، والفقه، غير أن الحركة العلمية في العالم الإسلامي برمته كانت قد تراجعت في ذلك الزمن، وحل النقل محل العقل.

وقد وفد على بيت المقدس في الفترة التي أعقبت خروج الصليبيين الكثير الكثير من العلماء والمتصوفين والذين جاور بعضهم في القدس لفترة معينة، وبعضهم أقام بشكل نهائي، فقد كانت زيارة بيت المقدس متممة لفريضة الحج عند الكثيرين.

ما بعد الصليبيين :

تزودنا نصوص ابن شداد، وشيخ الربوة، وابن فضل الله العمري، والعثماني، بالكثير من المعلومات عن الانتعاشة الاقتصادية والعمرانية والعلمية النسبية، التي شهدتها فلسطين بعد خروج الصليبيين، وتحت حكم سلاطين المماليك البحرية، حيث ازدهرت الزراعة واستغلت الأراضي إلى أقصى حد ممكن، ونشطت الحركة التجارية، وخصوصاً تجارة زيت الزيتون، التي كانت تشتهر بها مدينة نابلس، وعمرت القرى الدائرة، وتحولت البلاد إلى ما يشبه خلية النحل. غير أن هذا الحال لم يستمر طويلاً إذ دخلت النخبة العسكرية المملوكية بدائرة الصراعات الداخلية، وهو ما مهد بعد عقود لسيطرة العثمانيين الذين حولوا بلاد الشام ومنها فلسطين إلى إقليم طرفي، فقد الاهتمام والعناية مع توالي السنين من قبل سلاطينهم المتطلعين إلى الغرب، وتُرك بيد بعض الولاة المتسلطين، والملتزمين الذين كان هدفهم الأول والأخير الحصول على الضرائب والمكوس،

وهو ما مهد فيما بعد لتدخل الغرب الصاعد صناعياً واستعمارياً في شؤون تركة (الرجل المريض)، وكانت فلسطين في قلب المشروع الاستعماري الغربي الذي عبر عن نفسه بظهور الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر.

لقد قمنا بجمع نصوص الرحالة والبلدانيين العرب والمسلمين، المتعلقة بفلسطين خلال فترة الحروب الصليبية وما بعدها في كتابنا هذا، أملاً في الوصول إلى وصف قريب من التكامل لفلسطين إبان تلك القرون الثلاثة العصيبة التي مرت عليها نتيجة وقوعها بيد الصليبيين، وتحولها إلى ساحة وغى وأرض جهاد، منع عنها التطور الطبيعي، الذي كانت تمهد له إرهاصات الحقبة الفاطمية.

وقد عدنا إلى هذه النصوص في مختلف مصادرها الممكنة، وقارنا المنشورَ منها بعضه ببعضٍ، وأشرنا إلى مصادرنا، وعلقنا على النصوص بما تستحق من تعليق، وأضفنا هوامش إضافية إلى الهوامش التي وضعها المحققون السابقون، وصوبنا ما رأيناه خطأً، وأثنينا على جهود الباحثين السابقين بما يستحقون من الثناء.

تيسير خلف

دمشق في 1 كانون الثاني 2009م

يوميات أسامة بن منقذ
في فلسطين أيام الصليبيين

فيضت الظروف السياسية في القرن السادس الهجري، وهو القرن الذي كان يشهد الفترة الذهبية للصليبيين الفرنجة في بلادنا، للأمير العربي أسامة بن منقذ أن يكون شاهداً على العصر بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فهو خبر القتال مع الصليبيين، وكاد أن يقتل في غير معركة. وكان الشخصية الدبلوماسية الأولى في عصره، فاوض الصليبيين، وأسس بحق مدرسة في هذا المجال، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك، كان صياداً حاذقاً، وأديباً وشاعراً وكاتباً وعالماً وحكيماً، ورحالة طاف أرجاء الشام ومصر بأجمعها، وترك لنا في كتابه (الاعتبار) خلاصة تجربته الانسانية التي احتل فيها موضوع الصراع مع الصليبيين الحيز الأكبر، وقدم لنا وصفاً لبعض مدن فلسطين، في أثناء حكم الصليبيين لها.

ولد أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي في شيزر في 27 جمادى الآخرة عام 488 هـ، الموافق 4 تموز عام 1095م[8]، كان أميراً من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر قرب حماة.. وقاد حملات عدة ضد الصليبيين في فلسطين وفاوضهم أكثر من مرة تحت حكم آخر الحكام من الأسرة الأتابكية في دمشق مجير الدين أبق، ووزيره معين الدين أنر. دعاه صلاح الدين فأجابه وقد تجاوز الثمانين فمات في دمشق عام 584 هـ الموافق عام 1188م، ودفن بسفح جبل قاسيون، لكن قبره درس ولا يعرف مكانه حتى اليوم.

كان أسامة مقرباً من الملوك والسلاطين، وله تصانيف في الأدب والتاريخ منها: «لباب الآداب» و«المنازل والديار» و«البديع» و «القلاع والحصون» و«أخبار النساء»

---

[8] - كتاب الاعتبار مقدمة فيليب حتي كتاب الاعتبار طبعة الرياض الأعلام للزركلي ج1ص 282، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب لأحمد إيبش ج1 ص285- 286

و«العصا» وديوان شعر. أما «كتاب الاعتبار» فيبقى واسطة العقد في مؤلفاته ولعله الأروع في كتب الرحالة العرب لما يتضمنه من تجربة ذاتية مليئة بأحداث الصراع الضاري بين المسلمين والفرنجة الصليبيين على امتداد عهود السلاجقة والأتابكة والدولتين النورية والصلاحية.

لكتاب «الاعتبار» نسخة فريدة مخطوطة في دير الاسكوريال بإسبانيا وقد حققها الدكتور فيليب حتي وصدرت عن جامعة برنستون في الولايات المتحدة عام 1930م. كما صدرت طبعة في الرياض عن دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام عام 1987م بتحقيق وتقديم قاسم السامرائي. وصدرت طبعة في بيروت عن دار الفكر الحديث عام 1988م، ولكنها كانت منسوخة عن نسخة الدكتور حتي، قام بمراجعتها وتدقيقها الدكتور حسن الزين.

فلسطين في كتاب الاعتبار :

يعد كتاب (الاعتبار) واحداً من النصوص الفريدة، التي تحدثت عن الحياة الاجتماعية للصليبيين الفرنجة في فلسطين وكذلك العرب الذين واصلوا حياتهم في مدنهم وقراهم في ظل الاحتلال.

ومن خلال قصصه وطرائفه وحكمه، التي بسطها أسامة بن منقذ بأسلوب شيق سهل ممتع، نستطيع أن نتلمس جوانب مهمة من تفاصيل تلك الحياة، وجوانب الصراع الحضاري التي كانت الخلفية البعيدة لصورة الصراع السياسي والعسكري بين العرب والمسلمين من جهة، وبين الصليبيين الفرنجة من جهة أخرى، وحتى بين المسلمين أنفسهم، والذين تحالف بعضهم مع الصليبيين ضد أبناء دينهم وجلدتهم.

وقد زار أسامة فلسطين تحت حكم الصليبيين أكثر من مرة ولأكثر من سبب. فمرة قائداً في معركة جرت في عسقلان، ومرة مفاوضاً في عكا عند الملك فولك لاسترداد قطعان غصبها الصليبيون على الرغم من وجود هدنة معهم. كما زار فلسطين لاستنقاذ أسرى أكثر من مرة، وزار القدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وهي تحت حكم الصليبيين، وقد أشار إلى أن المسجد تحول إلى كنيسة بيد فرسان جبل الهيكل الداوية.

كما رصد أسامة طبائع الفرنجة الذين استوطنوا فلسطين، وقدم وصفاً لسلوكهم الاجتماعي، وطِبِّهم وقضائهم، وأخلاقهم وقيمهم. وهي بالجملة أخلاق وقيم ظلت غريبة

طوال سنوات مكوثهم في بلادنا، حيث ذهبت هذه القيم مع ذهاب أصحابها، بل إن الكثير منهم تطبعوا بطباع أهل البلاد، وتديّروا.

ونلمح صورة المقاومة الشعبية التي كان الفلسطينيون يخوضونها ضد الصليبيين بأشكال مختلفة، منها أعمى نابلس وأمه اللذين كانا يقتلان الفرنجة بشكل سري، وقصة الشيخ عبد الرحمن الحلحولي اللاجئ في دمشق، والذي قرر قتال ملك الألمان والاستشهاد في سبيل الله، كما وصف لنا شجاعة الفلاح الفلسطيني الكهل في ريف نابلس، الذي قرر مبارزة من اتهمه بأنه هو الذي كان يرشد (حرامية) المسلمين لنهب الإقطاعي الإفرنجي.

وما يلفت النظر في هذا الكتاب، أن الوزير معين الدين أنر، المشهور بأنه هو الذي سلم بانياس للفرنجة الصليبيين، وبأنه عقد معهم اتفاقات (مذلّة) وتحالف معهم ضد نور الدين بن زنكي، هو نفسه الذي كان يفتدي أسارى المسلمين من الفرنجة، وهو الذي عطف على أعمى نابلس واستقبله في دمشق. كما أنه زوج ابنته عصمت الدولة لنور الدين بن زنكي، والتي تزوجها أيضاً صلاح الدين الأيوبي بعده. وهو ما يطرح تساؤلات حول الكثير من القضايا المتعلقة بمقاومة الصليبيين والحوار والتطبيع معهم.

أملة بمهمة حربية لدى نور الدين

وتقدم إليّ الملك العادل [سيف الدين أبو الحسن ابن السلار][9] رحمه الله، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين [محمود بن زنكي][10] رحمه الله، وقال: «تأخذ معك مالاً وتمضي إليه لينازل طبرية، ويشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزة»[11].

وكان الإفرنج خذلهم الله قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان.

قلت: «يا مولاي، فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه، أي شيء تأمرني؟».

قال: «إن نزل على طبرية، فأعطه المال الذي معك، وإن كان له مانع، فديون[12] من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الإفرنج، واكتب إليّ بوصولك لأمرك بما تعمل».

ودفع إليّ ستة آلاف دينار مصرية، وحمل جمل ثياب دبيقي[13] وسقلاطون[14] ومسنجب[15] ودمياطي[16] وعمائم. ورتب معي قوماً من العرب [البدو] أدلاء.

---

[9] - كان والياً على البحيرة والإسكندرية، وقاد تمرداً ضد تعيين الوزير ابن مصال كافلاً للدولة من قبل الخليفة الظافر بأمر الله، الذي خلف والده الحافظ لدين الله، ونجح في تمرده وخلع الظافر عليه الوزارة ولقبه الملك العادل

[10] - نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ابو القاسم، الملك العادل، ولد سنة 511 هجرية، قال ابن الأثير: طالعت السير، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، أحسن من سيرته، كان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم ادركها. قال الذهبي: قد ادركها على فراشه، وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد، توفي سنة تسع وستين وخمسمائة.

[11] - من سياق الأحداث جرت هذه الواقعة حوالي عام 544 هـ 1149م

[12] - اي جنّد بشكل نظامي، وهذه العبارة منحوتة من الديوان بمعنى ادخل في ديوان الجندية من قدرت عليه من الجند

[13] - دبيق بلدة قريبة من دمياط اشتهرت بنوع من القماش الفاخر يسمى الدبيقي

[14] - ذكرها الصاغاني في (العباب الزاخر) سقلاطون: من نواحي الرّوم تنسبُ إليها الثيابُ

[15] - فرو السنجاب

[16] - كانت دمياط مشهورة بحياكة القماش، وثمة نوع فاخر يدعى بالدمياطي

وسرت وقد أزاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل. فلما دنونا من الجفر[17] قال لي الأدلاء: «هذا مكان لا يكاد يخلو من الإفرنج».

فأمرت اثنين من الأدلاء ركبا مهرين وسارا قدامنا إلى الجفر، فما لبثا أن عادا، والمهاري تطير بهما، وقالا: «الفرنج على الجفر»! فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقاً من السفارة كانوا معي ورددتهم إلى الغرب.

وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت: «تقدمونا، وأنا في إثركم». فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم، فعاد إلي واحد منهم وقال: «ما على الجفر أحد، ولعلهم أبصروا عرياناً». وتنازع هو والأدلاء، فنفذت من رد الجمال وسرت.

فلما وصلت الجفر، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه، وتفرّق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت: «يا شيخ أنا في حسبك». قلت: «أنت آمنة ما لك»؟ قالت: «قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة». قلت لغلماني: «من كان أخذ شيئاً يرده». فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين. قالت: «هذا الثوب». وأحضر آخر قطعة سندروس. قالت: «هذه الخرزة». قلت: «فالحمار والكلب»؟ قالوا: «الحمار قد ربطوا يديه ورجليه، وهو مرمي في العشب، والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى مكان».

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمراً عظيماً: قد يبست جلودهم على عظامهم.

قلت: «أيش أنتم»؟ قالوا: «نحن من بني أبي». وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلا الميتة ويقولون: «نحن خير العرب، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى». وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم.

قلت: «ما جاء بكم إلى هاهنا»؟ قالوا: «لنا بحسمى[18] كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها».

---

[17] - ثمة منخفض يقع إلى الشرق من مدينة معان الاردنية بـ 30 كم باتجاه الصحراء يسمى منخفض الجفر، اما الجفار فقد جاء في (الكتاب العزيزي) للمهلبي أن أعيان مُدُن الجفار، العريش، ورفحُ، والورْادة والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان، وأهلها بادية متحضرون، ولجميعهم في ظواهر مُدُنهم أجنّة وأملاك وأخصاص فيها كثير منهم، ويزرعون في الرمل زرعاً ضعيفاً يؤدون فيه العشر، وكذلك يؤخذ من ثمارهم، ويقطع في وقت من السنة إلى بلدهم من بحر الروم طيرٌ من السلوَى يسمونه المرع [الكتاب العزيزي للمهلبي، ومعجم البلدان مادة الجفار]

[18] - حِسْمَى، بالكسر ثم السكون مقصور يجوز أن يكون أصله من الحسم وهو المنع وهو: أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم وفي شرقيهم شروري وبين وادي القرى والمدينة ست ليال وحسمى أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيها تنزلها جذام وقال ابن السكيت حسمى لجذام جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهيا فذلك كله حسمى [معجم البلدان، مادة حسمى]

قلت: «وكم لكم هنا»؟ قالوا: «من عيد رمضان لنا هاهنا، ما رأينا الزاد بأعيننا».

قلت: «فمن أين تعيشون»؟ قالوا: «من الرمة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الأرض) ونتقوت به».

قلت: «فكلابكم وحمركم؟» قالوا: «الكلاب نطعمهم من عيشنا، والحمر تأكل الحشيش».

قلت: «فلم دخلتم إلى دمشق؟». قالوا: «خفنا الوباء». ولا وباء أعظم مما كانوا فيه! وكان ذلك بعد عيد الأضحى.

فوقفت حتى جاءت الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا. وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد. وقلت: «لا تقيموا ها هنا يسبوكم [يسبيكم] الإفرنج».

فطنة دليل :

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، وسارت الجمال فوقفت على رفعة من الأرض، وقلت للغلمان: «تفرقوا في طلب الجمال، وعودوا إلي، فأنا ما أزول من مكاني».

فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم، فعادوا كلهم إلي وقالوا: «ما لقيناهم، ولا ندري كيف مضوا». فقلت: «نستعين بالله تعالى ونسير على النوء». فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب.

وفي الأدلاء رجل يقال له جزية فيه يقظة وفطنة، فلما استبطأنا علم أنا قد تهنا عنهم، فأخرج قداحة وجمل يقدح وهو على الجمل، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا، فرأيناه على البعد فقصدنا النار حتى لحقناهم، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا.

خرج المال يضيع :

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل رحمه الله قال لي: «لا تُعلم الأدلاء الذين معك بالمال». فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجنوب معي وسلمته إلى غلام، وجعلت ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار دنانير مغربية في خرج على حصان مجنوب معي وسلمته إلى غلام، فكنت إذ نزلت جعلت الأخراج في وسط بساط، ورددت طرفيه عليها، وبسطت فوقه بساطاً آخر، وأنام على الأخراج وأقوم وقت الرحيل

قبل أصحابي. يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما، فإذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابي تهممنا بالرحيل.

فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل [صحراء سيناء]، فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط، فزلّ البغل وخرج يركض وعليه الخرج، فركبت حصاني، وقد قدمه الركابي، وقلت لواحد من غلماني: «اركب اركب». وركضت خلف البغل فما لحقته وهو كأنه حمار وحش، وحصاني قد أعيي من الطريق ولحقني الغلام، فقلت: «اتبع البغل كذا» فمضى وقال: «والله يا مولاي ما رأيت البغل، ولقيت هذا الخرج قد شلته». فقلت: للخرج كنت أطلب، والبغل أهون مفقود».

ورجعت إلى المنزلة وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار.

مقابلة نور الدين :

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى[19] فوجدنا الملك العادل نور الدين رحمه الله على دمشق. وقد وصل إلى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه[20]، رحمه الله فسرت معه إلى العسكر، فوصلته ليلة الاثنين وأصبحت فتحدثت مع نور الدين بما جئت به. فقال لي: «يا فلان، أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما».

قلت له: «فتأذن لي أن أديون من محرومي الجند قوماً آخذهم وأرجع، وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك».

قال: «افعل». فديونت إلى الاثنين الآخر ثماني مائة وستين فارساً وأخذتهم وسرت في وسط بلاد الإفرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق.

الشك في مسجد الرقيم :

وسيّر معي نور الدين الأمير عين الدولة الياروقي[21] في ثلاثين فارساً فاجتزت في

---

[19] - عاصمة الولاية العربية اثناء العهد الروماني، تقع في الجزء الجنوبي من الجمهورية العربية السورية بمحافظة درعا وتبعد عن مدينة دمشق 140 كم وعن مدينة درعا 40 كم شرقا.

[20] - عم السلطان صلاح الأيوبي واشهر قواد الملك العادل نور الدين بن زنكي

[21] - احد اشهر قواد الأتابك عماد الدين زنكي

طريقي بالكهف والرقيم[22]، فنزلت فيه ودخلت فصليت في المسجد ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه.

فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معي يقال له برشك يريد الدخول في ذلك الشق الضيق.

قلت: «أي شيء تعمل في هذا؟ صلِّ برّاً».

قال: «لا إله إلا الله، أنا حرام إذا حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيق!».

قلت: «أي شيء تقول؟».

قال: «هذا الموضع ما يدخل فيه ولد زنا – ما يستطيع الدخول». فأوجب قوله إن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت وخرجت وأنا الله يعلم – ما أصدق ما قاله، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا.

ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود ديّن كثير الصلاة، أدق ما يكون من الرجال وأذبهم [أطولهم]. فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص بكل حرص على الدخول، فما قدر يدخل فبكى المسكين وتوجع وتحسر، وعاد بعد الغلبة عن الدخول.

موقعة مع الإفرنج في عسقلان :

فلما وصلنا عسقلان[23] سَحَراً، ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا [كذا] الإفرنج عند طلوع الشمس، فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت والي عسقلان، فقال: «ارفعوا ارفعوا أثقالكم». قلت: «تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها». قال: «نعم». قلت: «لا تخف هم يروننا في البرية ويعارضوننا إلى أن وصلنا إلى عسقلان ما خفناهم، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟».

ثم إن الإفرنج وقفوا على بعد ساعة، ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان، فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان، فدرت على سرب الرجّالة وقلت: «يا أصحابنا ارجعوا إلى سوركم، ودعونا وإياهم، فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقوننا، وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند

---

[22] - على بعد 7 كم شرق العاصمة الأردنية عمان يقع كهف الرقيم او ما يسمى بالعامية (الرجيب).

[23] - تقع عسقلان على بعد 20 كم شمال شرق غزة على طريق يافا، احتل الصليبيون المدينة عام 1153 م بعد ان حاصروها بسلسلة من الحصون التي عزلتها تدريجيا عن بقية المدن إلى أن استسلمت من دون معركة تذكر. وحوّلها الفاتحون إلى قلعة حصينة وأحاطوها بسور من الحجارة المصقولة تحميها الأبراج العالية والدعامات الرملية وما زالت اماكن الأبواب الثلاثة (باب يافا وباب القدس وباب غزة) ظاهرة بوضوح إلى يومنا هذا

سوركم». فامتنعوا من الرجوع فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج، وقد حطوا خيامهم ليضربوها فاحتطنا بهم وأعجلناهم عن طي خيامهم، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين.

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء. فرجع الإفرنج وحملوا على أولئك فقتلوا منهم نفراً فانهزمت الرجالة الذين رددتهم فما رجعوا ورموا تراسهم. ولقينا الإفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان.

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون، وقالوا: «كان ابن منقذ أخبر منا. قال لنا: «ارجعوا» فما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا».

موقعة أخرى في بيت جبريل:

وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان. وكان رحمه الله من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالها فوصلنا وقاتلناهم. ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة، فوقفت في أصحابي وقدحنا ناراً وطرحناها في البيادر وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع، ومضى العسكر يتقدمني. فاجتمع الإفرنج لعنهم الله من تلك الحصون، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للإفرنج لمغاداة عسقلان ومراوحتها وخرجوا على أصحابنا.

فجاءني فارس منهم يركض وقال: «قد جاء الإفرنج»! فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج وهم لعنهم الله، أكبر الناس احترازاً في الحرب فصعدوا على رابية وقفوا عليها. وصعدنا نحن على رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين.

وما زال الإفرنج وقوفاً على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ثم ساروا إلينا فاندفعنا بين أيديهم – والقتال بيننا – لا يجدون في طلبنا، ومن وقف فرسه قتلوه، ومن وقع أخذوه، ثم عادوا عنا.

وقدّر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم كما نصروا علينا، كنا أفنيناهم.

مهاجمة يُبنى :

فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها [على] مدينة يُبنى[24] وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى.

مقتل أخي أسامة :

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل رحمه الله يستدعيني، فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن عليه رحمه الله بعسقلان. فخرج عسكرها إلى قتال غزة فاستشهد رحمه الله، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم.

معارك وجولات

زيارة أسامة الثانية لدمشق 1154 ـ 1164م

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله، وكاتب الملك الصالح[25] في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر وكان محسناً إليهم. فردّ الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج، وكتب إليّ يقول: «ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (فأسوان ثغر من ثغور المسلمين) وأسيّر إليك أهلك وأولادك».

فقاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال: «يا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج وأسيّر من يُحضرهم». فأنفذ رحمه الله أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر.

أسرة أسامة بيد الإفرنج في عكا :

وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ووصى

---

[24] - كانت تسمى في الحقبة الرومانية يمنى، وقد اقيمت يبنا على تلة مرتفعة، تقع إلى الجنوب من مدينة يافا وتبعد عنها 24م، تحتوي يبنا على تل انقاض تحت القرية وأساسات وقطع معمارية ومدافن ومقام منسوب لأبي هريرة

[25] - هو إسماعيل بن محمود بن زنكي، ابن الملك العادل نور الدين

بهم، وأقلعوا من دمياط في بطسة من بطس[26] الإفرنج، فلما دنوا من عكا والملك، لا رحمه الله فيها، أنفذ قوماً في مركب صغير فكسروا البطسة بالفؤوس وأصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه.

فخرج إليه غلام لي سباحة والأمان معه. وقال له: «يا مولاي الملك، ما هذا أمانك؟» قال: «بلى، ولكن هذا رسم المسلمين: إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد».

قال: «فتسبينا؟»، قال: «لا»، وأنزلهم، لعنه الله، في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهن.

وقد كان في المركب حلي أودعه النساء، وكسوات، وجوهر، وسيوف، وسلاح، وذهب، وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال: «توصلوا بهذه إلى بلادكم»، وكانوا رجالاً ونساءً في خمسين نسمة.

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود[27] رعبان[28] وكيسون[29]. فهوّن عليّ سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال، والله سبحانه يعوّض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال وأجحفت بهلاك المال.

منزلة الفارس عند الإفرنج:

والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس[30] من الشعراء[31]، وبيننا وبينهم صلح[32]، وأنا إذ ذاك بدمشق، فقلت للملك فلك

---

[26] - بطسة تعريب لكلمة بوت (boat) التي تعني السفينة او القاربه

[27] - هو الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل

[28] - حصن مشهور في شمال حلب

[29] - الصحيح كيسوم، وهو حصن مشهور شمال حلب في منطقة كيليكية

[30] - ذكر ابو الفداء ان اسم صاحب بانياس الصليبي هو رينار بروس Rayner Brus، وهذه المحاكمة جرت في عكا،

بن فلك[33]: «هذا تعدّى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلفها».

فقال: «الملك لستة سبعة من الفرسان: «قوموا اعملوا له حكماً»، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم»، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إليّ وثقل عليّ وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار.

وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغيّره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم.

ولقد قال لي الملك: «يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً». قلت: «الله يفرّح الملك بماذا فرحت؟».

قال: «قالوا لي إنك فارس عظيم، وما كنت أعتقد أنك فارس». قلت: «يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي» وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم.

وفاء بدوي :

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور[34]، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة، قال حدثني ابن والي الطور: (وهي ولاية لمصر بعيدة، كان الحافظ لدين الله رحمه الله، إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولاه الطور وهو قريب من بلاد الإفرنج).

وكان حصن بانياس تابعاً لمملكة عكا الصليبية

[31] - هي ولاية معروفة في العصور الإسلامية تمتد على أراضي الجزء الشمالي من الجولان، والنسبة إليها شعراوي في بلاد الشام، وشعراني في مصر.

[32] - جاء في ذيل تاريخ دمشق (وفي آخر سنة 543 للهجرة [1149م]، وصلت الأخبار لنور الدين بإفساد الفرنجة في الجولان بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من في دمشق (معين الدين ومجير الدين) يعلمهم ما عزم عليه من الجهاد ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدم يعول عليه، وكان صاحب دمشق قد عاهد الإفرنج أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج على طلب نور الدين وامتنع عن تلبيته، بل وطلب معونة الفرنجة فلما عرف نور الدين ذلك رحل ونزل بمرج يبوس وبعض عسكره بيعفور (إلى الغرب من دمشق) فلما قرب من دمشق عرف متوليها خبره ولكنه لم يعلم مقصده وكان الإفرنج قد استجابوا لطلب صاحب دمشق، ووصلت أوائلهم إلى بانياس في الجولان وعرف نور الدين ذلك فقال: لا انحرف عن جهادهم، [ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 308]).

[33] - هو ملك مملكة عكا الصليبية

[34] - لعلها ولاية طور سيناء

قال: «وليها والدي وخرجت أنا معه إلى الولاية وكنت مغرى بالصيد فخرجت أتصيّد فوقع بي قوم من الإفرنج فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي وقطع عليّ صاحب بيت جبريل ألفي دينار، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد، فأنا في بعض الأيام في الجب وإذا قد رفع عنه الغطاء ودلي إليّ رجل بدوي.

فقلت: «من أين أخذوك»؟ قال: «من الطريق»، فأقام عندي يويمات [أياماً قليلة] وقطعوا عليه خمسين ديناراً، فقال لي يوماً من الأيام: تريد تعلم أن ما يخلصك من هذا الجب إلا أنا، فخلصني حتى أخلصك». فقلت في نفسي: «رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص»، فما جاويته.

ثم بعد أيام أعاد علي ذلك القول. فقلت في نفسي: «والله لأسعين في خلاصه لعلّ الله يخلصني بثوابه».

فصحت بالسجّان فقلت له: «قل للصاحب أشتهي أتحدّث معه». فعاد وأطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب.

فقلت له: «لي في حبسك سنة ما سأل أحد عني ولا يدري أنا حي أو ميت، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أسيّره إلى أبي حتى يفكني». قال: «افعل». فرجعت عرّفت البدوي وخرج وودّعني ومضى.

فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له أثراً ولا سمعت له خبراً فيئست منه، فما راعني ليلة من الليالي إلا وهو خرج عليّ من نقب في جانب الجب، وقال: «قم والله لي خمسة أشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت إليك». فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني إلى بيتي فما أدري مم أعجب من حسن وفائه، أو من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب».

وإذا قضى الله سبحانه وتعالى بالفرج فما أسهل أسبابه!!.

أسامة يفتدي الأسرى في عكا :

كنت أتردد إلى ملك الإفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك[35] رحمه الله ليد كانت للوالد رحمه الله على بغدوين[35] الملك والد الملكة امرأة الملك

---

[35] – من اشهر ملوك الأسرة الأتابكية التي حكمت دمشق قبل أن يجعلها نور الدين عاصمة مملكته

[35] – يسمى في المصادر الصليبية بلدوين الثاني 1118 . 1131 م اصبح ملك مملكة بيت المقدس الإفرنجية بعد وفاة عمه بلدوين الأول كان قبل ان يصبح ملكا امير الرها في شمال سوريا، و يتبع بلدوين الأول ثم عين ابن عمته جوسلين اميراً عليها. و الذي بدوره سقط اسيرا بيد التركمان عام 1122م، مما اضطر بلدوين الثاني الى تولي إمارة الرها

فلك بن فلك، فكان الإفرنج يسوقون أسراهم إليّ لأشتريهم، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه.

فخرج شيطان منهم يقال له كليام جيبا في موكب له يغزو، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مائة نفس رجالاً ونساءً.

فكان يجيء أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدرت على شرائه، وفيهم رجل شاب يُسلِّم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ.

فقلت له: «بكم تبيعني هذا؟».

قال: «وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة وأربعين ديناراً». فاشتريتهما واشتريت لي منهم نفراً، واشتريت للأمير معين الدين[36] رحمه الله منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً ووزنت ما كان معي وضمنت عليّ بالباقي.

وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله: «قد اشتريت لك أسارى اختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن وقد وصلت إلى بيتي إن أردتهم وزنت ثمنهم وإلا وزنته أنا».

قال: «لا بل أنا أزن والله ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم».

وكان رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا.

وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره لعنه الله، وقلت: «تبيعني منهم عشرة؟» قال: «وحق ديني ما أبيع إلا الجميع». قلت: «ما معي ثمن الجميع». فانصرفت وقدّر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير آخوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام.

بنفسه،إلا انه وقع ايضاً اسيراً بيد التركمان بعد ان ابيد جيشه في موضع «كركر» على نهر الفرات وظل بلدوين اسيراً إلى ان افرج عنه في نهاية عام 1124م مقابل فدية مقدارها مائة الف بيزانته و عاد إلى بيت المقدس في اوائل ابريل عام 1125م عندما احس بدنو اجله، استدعى ابنته وزوجها فولك، وامر النبلاء بقبولهما ملكين وتم تتويجهما في 14 ايلول من عام 1131م توفي في صيف عام 1131 م بعد ان حكم ثلاثة عشر عاماً.

[36] - معين الدين انر بن عبد الله، مدبر دولة مجير الدين ابق آخر حكام سلالة الأتابك ظهير الدين طغتكين، كان الحاكم الفعلي لدمشق، يوصف بأنه ثعلب السياسة في ذلك الزمن، ارتبط مع الصليبيين بمعاهدات كثيرة، واستطاع بحنكته إنقاذ دمشق من الهجوم الصليبي الرباعي الذي قاده اربعة ملوك من الفرنجة عام 1148م، توفي عام544هـ الموافق 1149م وقبره بدمشق لكنه ازيل 1974 بعد شق طريق قرب قلعة دمشق

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم، وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب. فقلت: «سلمها إليّ وخذ ثمنها». قال: «ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب». وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك عليّ لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

الشيخ الحلحولي :

ومن الناس من يقاتل كما كان يقاتل الصحابة، رضوان الله عليهم، يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة، ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي، لعنه الله، لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي[37] رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن: (ما هؤلاء الروم؟). قال: (بلى). قال: (فإلى متى نحن وقوف؟). قال: (سر على اسم الله تعالى). فتقدما قاتلا حتى رحمهما الله في مكان واحد.

بالدون يعقب روجر في إنطاكية :

وذلك أن أنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج يقال له روجار، فمضى يحج إلى بيت المقدس، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس وهو رجل شيخ، وروجار شاب، فقال لبغدوين: (اجعل بيني وبينك شرطاً، إن مت قبلك كانت إنطاكية لك، وإن مت قبلي كان بيت المقدس لي). فتعاقدا وتواثقا على ذلك.

وقدر الله تعالى أن نجم الدين إيلغازي بن أرتق رحمه الله[38]، لقي روجار[39] بدانيث[40] يوم الخميس الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [12آب 1119م] فقتله وقتل جميع عسكره، ولم يدخل أنطاكية منهم دون المشرين رجلاً، وسار بغدوين إلى إنطاكية فتسلمها، وضرب مع نجم الدين مصافاً بعد أربعين يوماً.

---

(37) - عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي نسبة إلى قرية حلحول في الخليل

(38) - صاحب ماردين ومؤسس دولة الأراتقة

(39) - او روجر وهو صاحب انطاكية الصليبي

(40) - وقعت معركة دانيث الثانية في سنة 513 هـ 1119م على تل دانيث الواقع غرب سرمين بحوالي 8 كم في محافظة إدلب السورية الآن بين المسلمين والملك «بلدوين» وانتهت بنتيجة غير حاسمة لصالح «إيلغازي» وطغتكين»

وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً، فشرب بعد كسر الفرنج وقتلهم دخل في الخمار[41] فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس إلى إنطاكية بعسكره.

إفرنجية تجرح مسلماً

وكان في أمراء مصر رجل يقال له ندى الصليحي، في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه، والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه.

فسألته عنهما فقال كنت انهض وأنا شاب من عسقلان وأنا راجل، فنهضت يوماً في طريق بيت المقدس أريد حجاج الإفرنج، فصادفنا قوماً منهم فلقيت رجلاً معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء.

فطعنني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته فقتلته، فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي، جرحتني هذا الجرح الأخر فوسما وجهي.

طبائع الإفرنج وأخلاقهم

سبحان الخالق البارئ، إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ولا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل.

وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم:

كان في عسكر الملك فلك بن فلك [ملك عكا] فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمي ويدعوني أخي وبيننا المودة والمعاشرة.

فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: (يا أخي إني سائر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي ابنك، وكان ابني معي وهو ابن أربع عشرة سنة، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل الرجل عاقلاً).

فطرق سمعي كلام ما يخرج من راس عاقل. فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت: (وحياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أن أرده إليها). قال: (أمك تعيش؟). قلت: (نعم). قال: (لا تخالفها).

---

[41] - اي دخل في غيبوبة لكثرة ما شرب من الخمر.

أسامة يزور بيت المقدس بعد أن تحول إلى كنيسة :

فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة.

فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية[42] وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه فدخلته يوماً فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج مسكني وردّ وجهي إلى الشرق وقال: «كذا صلّ».

فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد وهجم عليّ ذلك عينه وردّ وجهي إلى الشرق وقال: «كذا صلّ!».

فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلي وقالوا: «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق».

فقلت: «حسبي من الصلاة!».

فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة.

وفي قبة الصخرة :

ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال: «تريد تبصر الله صغير؟».

قال: «نعم».

فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها فقال: «هذا الله صغير» تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

ليس للإفرنج غيرة جنسية :

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه

---

[42] - فرسان الداوية او فرسان الهيكل منظمة عسكرية دينية انشاها في فلسطين عام 1119 للميلاد، خلال الحروب الصليبية، نفر من الفرسان الفرنسيين ابتغاء حماية الحجاج الوافدين إلى بيت المقدس ومنذ البدء نشأ صراع عنيف بين فرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا. وبعد سقوط عكا 1291 انسحب فرسان الهيكل من فلسطين إلى قبرص وفي عام 1312 عمد البابا كليمنت الخامس إلى حل هذه المنظمة نزولاً عند رغبة فيليب الرابع ملك فرنسا.

رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طوّلت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.

بائع الخمر في نابلس :

ومما شاهدت من ذلك أني إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز، داره عمارة المسلمين، لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول: «فلان التاجر قد فتح بتية[43] من الخمر، من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا». وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: «أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي»؟ قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «فكيف دخلت إلى فراشي»؟ قال: «وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه» قال: «والمرأة نائمة معك»؟ قال: «الفراش لها، كنت أقدر أمنعها من فراشها»؟ قال: «وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته.

عجائب طبهم في طبرية :

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليما دبور صاحب طبرية وأنا معه، فحدثنا في الطريق فقال: (كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قس من قسوسنا قلنا تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟).

قال: (نعم).

فمشا معنا ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي، فلما رآه قال: (أعطوني شمعاً).

فأحضرنا له قليل شمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. فقلنا له: (قد مات).

قال: (نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح).

دع ذا وعدّ القول في هرمِ.

---

(43) - وتسمى في اللهجة الفلسطينية الباطية، وهي وعاء خشبي يشبه القدر احجامه مختلفة، واستعمالاته كذلك، منها لمزج الخمر ومنها باطية العجين

سباق ومحاكمات :

في طبرية :

نرجع من حديث مجاريهم:

حضرت ﴿ طبرية ﴿ عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان اوقفوهما ﴿ رأس الميدان، وتركوا ﴿ رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة، وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحد منهم سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقمن على كل خطوة وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة منهن فأخذت ذلك الخنزير ﴿ سبقها.

وفي نابلس :

وشاهدت يوماً ﴿ نابلس وقد حضّروا اثنين للمبارزة، وكان سبب ذلك أن كان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس، فأتهموا بها رجلا من الفلاحين، وقالوا: (هو دل الحرامية على الضيعة) فهرب.

فنفذ الملك فقبض أولاده فعاد إليه وقال: (انصفني أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية).

فقال الملك لصاحب القرية المقطع [الإقطاعي]: (أحضر من يبارزه).

فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له تبارز. إشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته.

فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوي إلاّ انه قد انقطع، يمشي ويجلس ويطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي يطلب البراز شيخ، إلا أنه قوي النفس يزجر، وهو غير محتفل بالمبارزة.

فجاء البسكند[44] وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منها العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة.

والتقيا، وكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى حلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعامود الدم.

فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيي ذلك الرجل فضربه الحداد، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره،

---

(44) - تعريب للفيكونت (Viscount)، وهذا اللقب ﴿ تدرج النبلاء يأتي بعد لقب ايرل او كونت وقبل لقب بارون

فبرك عليه الحداد يداخل إصبعه في عينه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله.

وطرحوا في رقبته حبلاً وجروه شنقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف. وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله.

أعمى نابلس :

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى القدس، فنزلنا نابلس. فخرج إلى عنده رجل أعمى وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوّجة لرجل إفرنجي فقتلته.

وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك، وعملوا له حكم الإفرنج: جلسوا بتية عظيمة وملؤوها ماء، وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا في أكتافه حبلاً ورموه في البتية - فإن كان بريئاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وإن كان له ذنب ما يغوص في الماء.

فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص فلما قدر. فوجب عليه حكمهم لعنهم الله فكحلوه [أعموه].

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الأمير معين الدين رحمه الله ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانه: (تمضي به إلى برهان الدين البلخي -رحمه الله- تقول له: (تأمر من يقرئ القرآن وشيئاً من الفقه). فقال له ذلك الأعمى: (النصر والغلب لما كان هذا ظني!). قال: (ما ظننت بي!). قال: (تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً).

قال: (ما اعتقدت ان أعمى يصير من الفرسان).

أخبار الصيد :

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير، فرايته يوماً وقد خرجنا إلى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم، فتصيدنا كثيراً من اليحامير، وضربت الخيام حلقة ونزلنا، فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب فأخذ في وسط الخيام.

ورأيت ونحن عائدون رجلاً قد رأى سنجاباً في شجرة فأعلم به شهاب الدين فجاء

وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه، فتركه وسار شبه المغتاظ الذي لم يصبه. فرأيت رجلاً من الأتراك جاء رماه فوسط النشابة فيه، فاسترخت يداه وبقي متعلقاً والنشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقع، ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته، فسبحان خالق الخلق.

الصيد في عكا :

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى عكا، إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فلك، فرأينا رجلاً من الجنوية[45] قد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي، ومعه كلبة صغيرة، إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها.

وقال لنا ذلك الجنوي: «إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي». فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك.

فطلبه الأمير معين الدين رحمه الله من الملك. فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين فجاء معنا، فرأيته في الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم، ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

---

[45] - نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية

الضياء المقدسي

بنو قدامة .. من نير الفرنجة إلى أنوار العلم

من النصوص النادرة التي رصدت حياة الفلسطينيين تحت نير حكم الاحتلال الفرنجي الصليبي، نص للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي، الذي هاجرت أسرته من بلدة جماعيل، فلحقتها أسر وأفراد من عموم منطقة نابلس هرباً من حياة العبودية في ظل الحكم الصليبي، وطمعاً في تأسيس مجد علمي، لم تكن منطقة نابلس ولا البلاد المقدسية برمتها مهيأة له في ذلك الوقت، فكانت دواعي الهجرة، سياسية وعلمية، بدرجتين متساويتين.

وصاحب النص الذي اعتمدناه في هذا الفصل من الكتاب، هو الإمام ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد الجمّاعيلي المقدسي. محدث الشام. ولد سنة 569هـ، الموافق سنة 1173-1174م، بدير الحنابلة في سفح قاسيون بدمشق. ارتحل كثيراً طلباً للعلم وسمع، من علماء كثر، فسمع وجمع بدمشق ومصر والموصل وبغداد وطاف بلاد المشرق. وكان عظيم الشأن في الحفظ ومعرفة الرجال، والمرجع في وقته في علم صحيح الحديث وسقيمه، وفي أحوال الرجال.

كان متقناً حافظاً ثبتاً صدوقاً حجة. وكان على علمه تقياً زاهداً عابداً، وجاهد في سبيل الله، وزاد على ذلك نزاهته وعفته وحسن طريقته في طلب العلم.

وهو الذي أرّخ لهجرة المقادسة إلى دمشق، وترجم لكبار علمائهم. بنى مدرسة الحديث الضيائية بسفح جبل قاسيون، وقد وقف لها كتباً كثيرة مما جمعه وكتبه خلال رحلاته، وجعلها نواة لمكتبة المدرسة الضيائية. وجمع له الدكتور محمد مطيع الحافظ141مؤلفاً مابين كتاب وجزء مخطوط أو مفقود أو مطبوع.

من أشهر مؤلفاته على الإطلاق (المختارة) بل اقترنت باسمه، فلا تعرف إلا بالمختارة للضياء، وله (كتاب الأحكام)، (فضائل الأعمال) و(فضائل الشام)، و(فضائل

بيت المقدس)، و(عوالي الأسانيد)، (صفة الجنة)، و(النهي عن سب الأصحاب)، و(سيرة الحافظ عبد الغني المقدسي) وغيرها، وانتقى من الكتب والأجزاء والأحاديث والمشيخات الشيء الكثير، وروى عنه خلق كثير يصعب حصرهم. توفي يوم الاثنين 28 من جمادى الآخرة سنة 643هـ، الموافق ليوم الثلاثاء 21 تشرين الثاني 1245م. ودفن بسفح قاسيون.

مصادر ترجمته هذه: ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب الحنبلي، طبعة قديمة [ج1 ص 236] وطبعة العثيمين [ج3 ص514]. والمقصد الأرشد [ج2 ص450] السير[23-126]، و التنويه والتبيين في سيرة محدث الشام الحافظ ضياء الدين، لمحمد مطيع الحافظ.

ملحمة خالدة :

يروي الضياء المقدسي قصة عائلته في بلدة جماعيل أوجماعين، قرب نابلس حيث كان ثمة شيخ عالم زاهد ورع مولع بالإفادة والتعليم، حتى أنه جعل من بيته مدرسة، فكان جميع أولاده وأقربائه ونسائه قارئين حافظين. وكانت فلسطين آنذاك في أزمة كأزمتها اليوم يحكمها الصليبيون بالحديد والنار. ولكن هذا الشيخ كان يؤدي أمانة العلم، ويجمع الناس من القرى والدساكر. فيعظهم ويخطبهم يوم الجمعة، ويحاول أن يوقظ في نفوسهم روح المقاومة. وكان لأقواله صدى طيباً في النفوس بسبب ما يعانونه من اضطهاد الإقطاع الفرنجي الذي كان يتقاضاهم الجزية أضعافاً مضاعفة، ويؤذي الناس بالضرب والحبس ويقطع الأرجل. وكان هذا الشيخ العالم العامل يقول لهم: إنه إذا احتل غاصب بلداً وجب على كل رجل فيه وكل امرأة، أن يحمل السلاح، ويدافع ولا ينثني.

وبلغ الصليبيين أمره، ورغبوا في الإيقاع به فنصحوه وزجروه وهددوه فلم يمتنع، فحكم عليه حاكم نابلس الصليبي ابن بارزان بالقتل. فعزم على الهجرة.

وكان هذا الشيخ هو أحمد بن محمد بن قدامة. وكتب إلى ولده الأكبر أبي عمر يدعوه، وراح يجمع أهله ومن يلوذ به ويستعد للرحيل سراً، حتى إذا اجتمعوا خرجوا بليل، ووصلوا إلى دمشق بعد متاعب وأهوال، وكان ذلك عام 551هـ، 1156م، وكانت دمشق قد صارت منذ سنتين فقط لنور الدين محمود بن زنكي. ونزل الشيخ وأقرباءه في جامع أبي صالح الحنبلي بظاهر الباب الشرقي (ويسمى اليوم قبر الشيخ صالح) ولحقهم مئات من أقربائهم وذويهم من جماعين والقرى المحيطة بها (الجماعينيات) مثل ياسوف ومردا وغيرهما وانتسبوا جميعا إلى القدس لأنها الأكبر. وكان للمسجد أوقافاً تحت يد بيت

الحنبلي، فهددهم بالطرد من الجامع إن لم يكتبوا لهم أنه ليس لهم في الأوقاف حق ولا مطمع فكتبوا لهم، فعادوا يضايقونهم، وكان القاضي ابن أبي عصرون (صاحب المدرسة العصرونية والمنسوب إليه سوق العصرونية الشهير) محباً لهم، فكلم السلطان نور الدين، فنزع الوقف من بيت الحنبلي وولاهم عليه، وكان الجامع رطباً تحيط بهم مستنقعات الخندق الذي يحيط بدمشق، وكانوا مزدحمين فيه، فمات منهم نحو أربعين، وكان الشيخ متألما من أخذ الوقف فازداد لذلك ألماً. وقال: هل هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم؟ ما بقيت أسكن هاهنا.

وذهبوا يطلبون له مكاناً آخر، فوجدوا مكاناً على نهر يزيد في سفح الجبل، فبنى دارا على أنقاض دير مهجور سميت (دير الحنابلة)، أنشأها من عشر غرف صغار، ولا يزال الموضع إلى اليوم يسمى بحارة الدير. وكان ذلك أول ما أنشئ من حي الصالحية، التي سميت بذلك نسبة إلى مسجد أبي صالح هذا سابق الذكر حسبما يذكر الضياء المقدسي، ولعل هذا تواضع مفرط منه لأن الصالحية نسبت لأهله الصالحين أو الصلحاء، حسبما يشير الشيخ محمد أحمد دهمان محقق كتاب (تاريخ الصالحية).

ولم يكن مع القوم مال يستأجرون به البنائين، ولا خبرة لهم بالبناء فعمروه بأيديهم. وساعدهم نفر من الناس اعتقدوهم وأقبلوا عليهم وأقاموا فيه، على خوف من اللصوص، ووحشة من الوحدة، ثم بدأ الناس يتسابقون إلى زيارتهم، وكثرت عليهم الهدايا والألطاف، وكان السلطان نور الدين يزورهم ويتفقدهم، وجعل الناس يبنون إلى جوارهم، فكثرت الدور، وتتابع العمران حتى صارت الصالحية بعد ثلاثين عاماً مدينة عامرة وبعد قرن واحد بمقدار مدينة دمشق كلها يومئذ، فيها الأسواق الكثيرة، والأرزاق الوفيرة، وصارت بفضل بني قدامة هؤلاء مدينة جامعية حقاً.

فقد أنشأ أبو عمر من أول يوم المدرسة العمرية، وأنشأ الضياء وهو من أعظم علماء هذه الأسرة المدرسة الضيائية، وتتابع إنشاء المدارس واستطاعوا بهذه الهمة العجيبة، وهذا الكدّ في الدراسة، أن يحتلوا في الأوساط العلمية أعلى المنازل، فنشروا المذهب الحنبلي بعد أن كاد يعد مفقوداً في دمشق، وأنشؤوا له المدارس الكثيرة، فكثر أتباعه والمنتسبون اليه، حتى افتتحت محكمة شرعية حنبلية، كان قاضيها برتبة قاضي القضاة، وأول من وليها فيهم ابن أبي عمر، ولقب بشيخ الإسلام، وتسلسل قضاء الحنابلة فيهم، ثم قوي حتى أقيمت حلقة في الأموي أول من درس بها أبو الحسن بن أبي عمر، ثم أقدموا على خطوة أوسع، على إقامة محراب للحنابلة.

ونشأت حركة فكرية فريدة عضّدها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، ثم الملوك الأيوبيون وخواتينهم (زوجاتهم وبناتهم) فبنوا عدة مدارس ومساجد جعلت تلك الأرض القاحلة مزدهرة بالعمران، ناضرة بالقصور والأشجار والأزهار.

ولم يكن غريباً، مع الحماسة الدينية التي أعقبت استعادة القدس من الصليبيين، والأخطار الداهمة التي هددت بعد ذلك قلب العالم العربي الإسلامي أن يصبح المركز الذي أقامه بنو قدامة للعلوم الدينية والدنيوية في سفوح دمشق، مبعث إشعاع روحي واسع يجتذب الكثير من الأساتذة والطلاب على السواء. وإذا كان آل قدامة قد أعطوا هذا المركز الكثير من جهودهم الفكرية، فإن ما لقوه من التشجيع الكبير والاحترام والتكريم دفعهم بالمقابل إلى المزيد من العمل والإنتاج والاندفاع.

ولم يكن بنو قدامة في هذا الجهد كله وحدهم، فإن نجاحهم كان قد أغرى منذ الأيام الأولى مجموعة من الأسر القريبة لهم في جماعين وما حولها بالهجرة إليهم على توالي السنين والدخول في نشاطاتهم العلمية نفسها. وقد ظلت هذه الهجرة قائمة في العصر الأيوبي والعصر المملوكي الأول وهكذا انتقل بالتدريج مجتمع قروي كامل من تلك البقاع الفلسطينية إلى سفح قاسيون، وتحول من العمل الزراعي إلى النشاط العلمي.

وكان لعلماء هذه الأسرة (بنو قدامة) مؤلفات في المذهب الحنبلي هي أمهات كتب المذهب. ولبثوا أكثر من قرن ونصف وهم المرجع في علوم الحديث، وبرعوا فيها حتى أن الضياء كان يعد محدث عصره وله كتاب اسمه المختارة، من جوامع كتب الحديث، وتتابع ظهور العلماء الكبار من هذه الأسرة، واستمرت هذه النهضة على قوتها وشدتها أكثر من ثلاثمائة سنة.

لعل الأثر الخالد الذي تركه هؤلاء المقادسة هو المدرسة العمرية التي كانت بحق نموذجاً للمدرسة الجامعة. فلقد كانت تسمى المدرسة الشيخة أي الجامعة، وكان فيها قسم للمكفوفين: مدرسة عميان، وقسم للأطفال: روضة أطفال.

وكانت الدروس والتلاوات تستمر فيها الليل والنهار، حتى إن الأمير منجك بعث من يراقبها، فلم يرها فترت من درس أو ذكر أو تلاوة ولا ساعة من الأربع والعشرين ساعة. وكان فيها عدة خزائن فيها نفائس الكتب، وكل هذا الجيش من الطلاب يأكل وينام في المدرسة فكان يوزع كل يوم ألف رغيف ويطبخ للجميع، وتقدم لهم الفواكه والحلوى، ومعهم جيش من الموظفين لهم رواتب وسجلات، وللطلاب سجلات وتفقد، وكان لشيخها رتبة عالية، تعدل برتبة مدير الجامعة في هذه الأيام.

تنسب هذه المدرسة للشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، وضع أساس هذه المدرسة في عهد نور الدين الزنكي. وأصبحت مؤلفة من ثلاث طبقات وثلاثمائة وستين غرفة مع مرافقها، وهذا ما جعلها أكبر مدرسة في بلاد الشام ومصر كما يقول المؤرخ الدمشقي ابن طولون صاحب (القلائد الجوهرية). بل (أعظم مدرسة في بلاد الإسلام) كما يقول المؤرخ ابن عبد الهادي المقدسي.

أما (المدرسة الضيائية الكبرى)، فقد بناها ضياء الدين المقدسي سنة620هـ، 1223م، من أموال كان جمعها في جولاته المختلفة، وجعلها للمحدثين، والفقراء، والغرباء، وخصص قسماً منها للصبيان، ووقف عليها كتباً كثيرة جداً كلفته ما يملك، وصارت لهذه المكتبة شهرة عالية بين مكتبات دمشق، حتى أصبحت أكبر مكتبة فيها. ويروى أن القاضي علاء الدين الحنبلي احتاج إلى كتاب (الخلاف) في الفقه للقاضي أبي يعلى البغدادي، فقيل له لا يوجد إلاّ في (الضيائية)، فأرسل يطلبه، فجمع له في قفتين، ولكن مجد هذه المدرسة لم يدم طويلاً بسبب الكوارث التي حلت عليها من جنود المغول، وأهل البلد على السواء. فبعد خروج تيمور لنك سطا عليها العلماء والنظّار وأخذوا أحاسن كتبها. ويقول ابن طولون إنه سعى هو والشيخ موسى الكناني في إعادة ألفي كتاب لهذه المدرسة. وذكر الشيخ دهمان أن ماتبقى من كتبها ضُمّ إلى (العمرية).

وبعد..

فقد حفظ لنا ابن طولون الصالحي، مؤرخ الصالحية في القرن العاشر الهجري، نص الحافظ ضياء الدين المقدسي من الضياع؛ عبر الاعتماد عليه في كتابه (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية)، ويبدو أنه وصله عن طريق تلاميذ الشيخ بالتواتر، لأن النص مكتوب بصيغة إجابة على تساؤلات، من المرجح أن تلاميذه طرحوها عليه لمعرفة تاريخ عائلته وتاريخ هذا الحي العظيم، الذي أصبح اسمه الصالحية.

وتمثل قصة بنو قدامة ورفاقهم من أبناء منطقة نابلس وغيرها ملحمة فلسطينية خالدة، حول المقاومة والصمود والكفاح في سبيل البقاء والبناء، وترك الأثر الطيب في هذه الحياة، فسيرة هجرتهم من بلداتهم، وقصة تشردهم هرباً بدينهم وأخلاقهم، تشبه إلى حد كبير سيرة الكثير من الفلسطينيين في الزمن المعاصر، بعد نكبة عام 1948م.

رواية الحافظ ضياء الدين المقدسي
حول هجرة بني قدامة من فلسطين وبنائهم صالحية دمشق

في سبب تسمية صالحية دمشق :

قال الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي: الشيخ أبو عمر مولده سنة ثمان وعشرين وخمسمائة [للهجرة، الموافق عام 1133- 1134م] بجماعيل[46]. وهاجر به والده وبأخيه الشيخ موفق الدين وأهليهم إلى دمشق سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة للهجرة، الموافق عام 1156م] لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسية، فنزلوا بمسجد أبي صالح ظاهر باب شرقي فأقاموا به مدة نحو سنتين ثم انتقلوا إلى الجبل – قال الشيخ أبو عمر – فقال الناس: الصالحية الصالحية ينسبوننا إلى مسجد أبي صالح لا أنا صالحون.

وقال أبو الفرج ابن الحنبلي: وكان والدي هو الذي أنزلهم في مسجد أبي صالح فاستوخم المسجد عليهم، فمات منهم في شهر واحد قريب من أربعين نفساً، فأشار عليهم والدي بالانتقال إلى الجبل حيث هم الآن وكان رأياً مباركاً وبنوا فيه المنازل وقيل لها الصالحية بهم. قال: وقال أبو شامة الذهبي: بهم سميت الصالحية لصلاحهم.

وكان الشيخ أبو عمر يوري ذلك عنهم ويقول: إنما هي نسبة إلى مسجد أبي صالح لأننا نزلنا فيه أولاً لا أنا من الصالحين.

---

[46] – قرية تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة نابلس في الضفة الغربية وتبعد عنها 16 كيلومترا. يحدها من الغرب قرى قيرة و زيتا جماعين، ومن الشمال قرى عوريف و مادما و عصيرة القبلية، ومن الشرق عيناوس، ومن الجنوب مردا. تبلغ مساحة اراضي القرية حالياً نحو 31000 دونماً ومساحة البناء فيها 3912 دونم ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان باسم جمّاعيل «هي قرية من جبل نابلس من ارض فلسطين» ويؤيد ما ذهب إليه الحموي في التسمية ان ليس في الكتب القديمة جميعها تقريبا وخاصة تلك التي عاصرت آل قدامة حال هجرتهم منها، او ارخت لهم، من ذكرها باسم (جَمّاعين)، كما ان الإمام الحافظ ضياء الدين، وهو من «جَمّاعيل» والذي ارخ لهجرة أهله منها إلى دمشق ذكرها باسم «جَمّاعيل» أما مصطفى مراد الدباغ فيقول في كتابه بلادنا فلسطين ذكرتها المصادر العربية باسم «جَمّاعيل» وهو خطأ، وصحيحها كما يلفظ اهلها «جَمّاعين» لكثرة ما ظهر فيها وفي جوارها من «جَمّاعين» للعلم تسمى اليوم «جَمّاعين» وتتبع إداريا لمحافظة نابلس

ذكريات الهجرة :

قال الحافظ ضياء الدين المقدسي: سمعت خالي الإمام الزاهد أبا عمر محمد بن أحمد بن قدامة نور الله ضريحه يقول: ما أذكر جدي عمري إلا وهو يذكر الهجرة وما كان يجبره أن يهاجر أو ما هذا معناه.

معاملة الصليبيين للفلسطينيين :

قال الحافظ ضياء الدين: وسمعت غير واحد من أصحابنا يقول إن المسلمين صاروا تحت أيدي الفرنج بأرض بيت المقدس ونواحيها يعملون لهم الأرض، وكانوا يؤذونهم ويحبسونهم ويأخذون منهم شيئاً كالجزية.

وكان أكثر الفرنج أهون من ابن بارزان[47] لعنه الله، وكانت تحت يده جماعيل قرية أصحابنا ومردا[48] وياسوف[49] وغير ذلك، وكان إذا أخذ الكفار من كل رجل ممن تحت يده ديناراً، أخذ هو، لعنه الله، من كل واحد منهم أربعة دنانير.

وكان يقطع أرجلهم، ولم يكن في الكفار أعتى منه ولا أكثر تجبراً أخزاه الله.

قال وكان جدي الشيخ أحمد ابن محمد رحمه الله، قد سافر واشتغل بالعلم ورجع إلى جماعيل، وأقام بها وانتفع الناس به بإقرائهم القرآن والعلم.

وكان يخطب أيام الجمعات وتجتمع الناس إليه من القرايا، ويقرأ لهم الأحاديث، وكان مع ذلك لا يرضى بمقامه تحت أيدي الكفار كذا بلغني. وكان أخوته وأولاد عمه قد تعلموا منه ومن غيره.

سبب هجرة بني قدامة :

قال الحافظ ضياء الدين: وسمعت الشيخ الكبير أبا نجم سعد بن خليل بن حيدرة الحارثي بقرية دجانية[50] قال: كنت أعرف الشيخ أحمد من جماعيل، وكنت

---

[47] - يسمية ابو شامة والعماد الأصفهاني باليان بن بارزان، وهو الذي فاوض صلاح الدين على تسليم بيت المقدس وكان حاكم نابلس الكبير.

[48] - تقع قرية مردة على الشارع الرئيسي الذي يربط نابلس، حوارة، جماعين، مردة، كفل حارس، بديا ومسحة، وتبعد عن مدينة سلفيت 7 كم وتقع الى الشمال منها ويحدها من الشمال بلدة جماعين وتبعد 2كم عنها، ومن الشرق قرية ياسوف واسكاكا وتبعد 4 كم عنها، ومن الغرب قرية وبلدة كفل حارس وتبعد 3كم عنها، ومن الجنوب مدينة سلفيت وتبعد 7 كم عنها.

[49] - تقع جنوب مدينة نابلس على بعد 16 كمٌ وترتفع 600 مترعن سطح البحر. وتقوم على موقع قرية يشوب في العهد الروماني وصفها ياقوت الحموي بكثرة الرمان، وينسب إليها عدد من العلماء باسم الياسوفي .

[50] - ثمة قرية في قضاء نابلس اليوم تسمى بيت دجن، ولكن هنالك قرية أخرى تسمى الآن الجانية بإدغام الدال

أمضي إلى عنده كثيراً وكان يخطب يوم الجمعة ويخرج إليه الناس من القرايا يحضرون الجمعة.

قال: فقيل لابن بارزان لعنه الله، إن هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل ويجتمعون عنده. قال: فنتحدث في قتله.

قال فأعلم الشيخ رجل من عماله يقال له ابن تسير.

قال فعزم الشيخ على المضي إلى دمشق فراح إليها. وكان ابن تسير كاتب بادوين ووزيره وكان يعتقد في مشايخ المسلمين ويحسن إليهم. حدثني بذلك محمد بن أبي عطاف. وقال غيره: وكان الشيخ أحمد أول من هاجر من تحت أيدي الفرنج لخوفه على نفسه وعجزه عن إظهار دينه.

هجرة أحمد بن قدامة :

قال الحافظ ضياء الدين: ثم إن الشيخ أحمد عزم على الخروج إلى دمشق، فسافر إليها وصحبه الفقيه محمد بن أبي بكر ابن أخيه، وعبد الواحد بن علي بن سرور وكان قد تزوج أخته، ووالدي عبد الواحد بن أحمد ابن أخته.

فلما وصلوا إلى دمشق كتب معهم كتاباً إلى ولده أبي عمر محمد، وكتب فيه يأمرهم بالسفر إلى دمشق، وأنه ما بقي يرجع إلى تحت أيدي الكفار أبداً، ويقول فيه: ما أقول إلا كما قال إبراهيم عليه السلام: (فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم)، فرجعوا إلى جماعيل واختفوا من أهل القرية لئلا يعلموا بسفرهم، فاتفق أن أهل القرية علموا فأرادوا منعهم[51].

فلما لم يقدروا على منعهم أعلموا بهم الكفار حتى يمنعوهم، فمضى عسكر نابلس فقعدوا لهم على الشريعة[52] حتى يأخذوهم فأعماهم الله عنهم وكفاهم شرهم.

قال سمعت معنى هذا من الإمام خالي أبي عمر ألا قوله: كما قال إبرهيم وذكر الآية، فإني أشك هل سمعته منه أو لا. وقد سمعته من شيخنا الإمام إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي جزاه الله خيراً.

والجيم، وهي من قرى محافظة رام الله في الضفة الغربية، وكلمة دجانيا المأخوذة من دجان السريانية والتي تعني الحنطة، ومنها أخذ اسم (داجون) معبود الفلسطينيين القدماء.

(51) - يرى محقق كتاب تاريخ الصالحية الشيخ أحمد دهمان ان اهالي جماعيل ارادوا منع آل قدامة من الهجرة لأن عدد أهل القرية ينقص وسيبقون مكلفين بالإنتاج كما لو كان عددهم أكثر.

(52) - نهر الأردن

ويه قال الحافظ ضياء الدين: وسألت خالي الإمام أبا عمر عن هجرتهم إلى دمشق في أي سنة كانت؟ فقال: كانت في سنة (إحدى وخمسين) يعني وخمسمائة.

ويه قال الحافظ ضياء الدين: وسمعت والدتي أم أحمد رقية بنت الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة، أحسن الله جزاءها، قالت: سافر والدي إلى دمشق في رجب وجاء والدك والذين معه، يعني الذين سافروا مع الشيخ إلى دمشق في شوال، ولم نقم بعد وصولهم إلا ليلة واحدة وخرجنا في شوال، ووصلنا إلى دمشق فيه وأقمنا في الطريق نحو ثمانية أيام.

قال: وسمعتها تقول لما جاؤوا من دمشق ما كانوا يريدون أن يعلموا أحداً.

قالت: فقال والدك: جئت فقعدت على شجرة إلى الليل، ثم جئت فدخلت في القبور وصحت بالشيخ أبي عمر حتى أعلمته.

قال فخرج بي أخي أبو عمر من الغد ومضى إلى دير عوريف[53] وفيها امرأة أبيه أم عبيد الله، فأمرهم أن يمضوا إلى الساويا[54] ومضى إلى غيرها من القرايا، ثم عاد إلى القرية تلك الليلة فكان للمسجد أرض يقول كم تحتاج هذه إلى بصل، يوري على أهل القرية بذلك[55].

المهاجرون في طريقهم إلى دمشق:

ويه إليه قال: سمعت خالي الإمام أبا عمر يقول وهذا معنى ما سمعته منه: أنهم لما عزموا، يعني على الهجرة، جمعوا أهاليهم من القرايا.

قال: وأخذنا معنا أدلاء، وكنا نمشي بالليل ونقيم بالنهار. حتى جئنا إلى قرية تشرف على الغور تسمى جبعيت[56]، فوجدنا بها قوماً من العرب [البدو] معهم جمال فرغ، يريدون أن يقطعوا الشريعة يشترون غلة.

ففرحنا بهم وقلنا نكتري معهم لهؤلاء الصغار الذين معنا[57]. فذبح لنا الريس الذي

---

[53] - اسمها الآن عوريف بدون دير، تقع على بعد 12 كيلومترا جنوبي غربي نابلس تحيط بالقرية القرى التالية: عينبوس، بورين، عصيرة القبلية، حوارة يحيط بالقرية جبل سلمان (820 مترا فوق سطح البحر) شمالا و جبل يعقوب جنوبا. تقليديا تشتهر عوريف و ما حولها بأجود انواع زيت الزيتون، اللوزيات، الصبار، والفواكه و البقول

[54] - الساوية قرية تتبع محافظة نابلس، حيث تبعد حوالي 18 كم جنوب مدينة نابلس

[55] - اي يحاول او يخفي موضوع الهجرة بادعاء السؤال عن كمية البصل التي تحتاجها قطعة ارض المسجد لزراعتها.

[56] - لا يوجد قرية بهذا الاسم اليوم، ولكن توجد خربة اثرية بهذا الاسم (خربة جبعيت) ضمن اراضي قرية المغير التي تقع على مسافة 27 كم إلى الشمال الشرقي من رام الله وهي تشرف على الغور.

[57] - اي نستاجر جمالاً لنقل الأطفال

في تلك القرية وحلف علينا يعني لنقيم حتى نتغدا، فمضى العرب فحزنا عليهم كثيراً، وكنا نفزع عند الشريعة من أجل الفرنج.

فمكثنا في القرية حتى تغدينا ثم خرجنا فتقدم ناس، يعني منا، إلى عند الشريعة ينظرون فرأوا أثر خيل الكفار، فإذا قد أخذوا الجمال التي أردنا أن نمضي صحبتها، ومضوا فلم نجد أحداً، ثم خرجنا نحو الشط وكان معنا من يعرف تلك المواضع، فتهنا ولم يبق أحد يعرف الطريق، فبينما نحن في موضع، قال: وكان في ذلك الخيرة أيضاً، قد كان في الطريق ناس من الحرامية، فلما أصبحنا مضينا حتى وصلنا إلى قرايا المسلمين، فقالوا لنا: من أي طريق جئتم؟ فقلنا: من الموضع الفلاني. فقالوا: أوما لقيكم أحد من الحرامية؟ فقلنا: لا ولكنا ضعنا. فقالوا لنا بضياعكم سلمتم.

قال: وسمعت والدتي تقول: أقمنا بجبعيت ليلتين، وذلك أن والدك قالوا له: أنت جئت من دمشق ووالدتك لم ترك فامض إليها، فإن كانت تجيء معك نجيء بها.

قال: فمضى إليها إلى مردا فقال لها. فقالت: أنا أريد أن أقعد حتى أزوج ابني إبراهيم. فقلت أفليس كان عمي إبراهيم معكم؟ فقالت: بلى وصل معنا إلى دمشق ثم رجع، يعني حتى تزوج، وجاء بعد ذلك.

أسماء المهاجرين والمهاجرات:

قال الحافظ ضياء الدين: سألت والدتي عن عدد الذين هاجروا وتسميتهم فكان معنى ما ذكرت: أبو عمر محمد، والموفق عبد الله، وعبيد الله، ورقية، وفاطمة ورابعة، وآمنة ماتت صغيرة هؤلاء أولاد الشيخ أحمد، وأمهم سعيدة بنت أحمد بن أبي الفتح من مردا، وسعيدة بنت أحمد بن عبد الله بن عمر بن شبيب أم عبد الله من دير عوريف امرأة الشيخ أيضاً، وعمر، وخديجة، وزبيدة ماتت وهي صغيرة أولاد أبي عمر محمد بن الشيخ أحمد، وأبو عبد الغني عبد الواحد بن علي بن سرور وزوجته أم عبد الغني سعيدة بنت محمد ابن قدامة أخت الشيخ أحمد، وعبد الغني وإبراهيم وعبد الله المقري، وعبيد الله، وتقية وزينة، ورحمة ماتت صغيرة أولاد عبد الواحد بن علي، وأم محمد عائشة بنت محمد بن قدامة، وأولادها محمد وعمر وإسماعيل ويحيى، وجويرية، وفاطمة وعالية ومريم أولاد أبي بكر ابن عبد الله بن سعد، وإبراهيم، وعبد الواحد، وفاطمة أم عمر أولاد أحمد بن عبد الرحمن – وهو عمي – وأبي وعمتي، إلا أن عمي إبراهيم رجع بعد وصولهم إلى البلاد ثم رجع بعد مدة، وما كان هذه المدة أبي معهم إلا ليعاونهم، وأبو سعيد إبراهيم من

قرية قيرة[58] ويوسف بن أم رزق الله من مردا كان مبتلى. فهؤلاء الذين هاجروا وعددهم خمس وثلاثون نفساً من ذكر وأنثى كبيرٍ وصغيرٍ.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت خالي الإمام أبا عمر محمداً يقول: كنا أربعين نفساً.

قال وأظن خالي رحمه الله أراد بالأولاد الذين كانوا معهم، فإن والدتي لم تسم إلا من وصل معهم إلى دمشق.

قال: وقد قال خالي: كان معنا جماعة من الأولاد ولعلهم رجعوا من بعض الطريق لما أمنوا والله أعلم.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت خالي الإمام أبا عمر قال: ثم جاء بعدهم صخر بن خلف بن عياش من السواد[59] ومعه ابنه عبد الله وابنتاه فاطمة وعامرية، ثم رجع الشيخ إلى السواد، ثم جاء بعد مدة إلى الجبل وابتنى له دارا، وولده عبد الرحمن وعبد الرحيم.

ثم جاء بعده يحيى بن شافع بن جمعة من أهل نابلس وأولاده أبو بكر وعمر وعلي وأم شيبان آمنة.

ثم جاء بعد هؤلاء عبد الرحمن النجار من قرية جيت[60] وثلاثة بنين له: عبد المحسن وأخواه. ثم جاء عبد الله بن راس من جماعيل ومعه امرأته وابنان وبنت ورجع ابناه.

ثم جاء خلف بن راجح وامرأته مؤمنة بنت عبد الواحد بن سرور، ومعها محمد الشهاب وراجح وابناه بعد انتقالهم إلى الدير[61] بنحو من سنتين أو أكثر.

وجاء أبو عبد الملك عثمان بن عبد الله من أهل قيرة ومعه أخوه عمرو وسعيد وأولاده بعدما سكنوا الدير بنحو خمس سنين.

قال: وسمعت والدي يقول: جاء أبو فارس وهو أحمد بن عبد الله بن عمرو ابن أبي [و] المرض والموت يعني بمسجد أبي صالح. فقال أنا آخذ هؤلاء الصبيان حتى يكونوا

---

(58) - تقع قرية قيرة في محافظة نابلس وتبعد عن مدينة سلفيت حوالي 8 كم، وتحيط بها قرى مردة من الشرق وجماعين وزيتا من الشمال، وقرية كفل حارس وديراستيا من الغرب، ومن الجنوب مدينة سلفيت

(59) - اي سواد الأردن التي يرد ذكرها في فتوح الشام للبلاذري، وهي منطقة الأغوار.

(60) - من قرى محافظة قلقيلية في الضفة الغربية تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة نابلس على السفوح الغربية من جبل النار.

(61) - اي دير الحنابلة الذي اصبح الآن مسجد الحنابلة في الصالحية

بداريا[62]، فأخذ أخي الموفق وأخي عبيد الله وأبا عبد الله عمر، فأقاموا عنده في تلك البلاد يعني عنده، ثم جاؤوا بعدما انتقلنا إلى الدير.

قال: وسمعتها تقول: ثم رجع عمك إبراهيم وأبو سعيد، يعني إبراهيم، إلى عندنا بعد أن سكنا الدير في السنة الثالثة، وكانا مضيا فتزوجا، ثم جاء إبراهيم وتزوج بأم عبد الرحمن وابنه عبد الرحمن وأبو سعيد بأم سعيد واسمها كريمة بنت عثمان بن عثمان بن عبدالله.

وجاء بعد سكنى الدير عبد الله بن أحمد بن أبي الفتح من مردا، خال والدتي ومات عندنا ولم يتزوج. وجاء حصن بن صالح من ساريسا[63] في سنة أربع وستين [وخمسمائة للهجرة، الموافق سنة 1168- 1169م] ومعه امرأته أم شرف، وجاء بعده بقليل جفال بن فضة، وجاءت بعد ذلك عمتي أم عثمان رضا وابنها عثمان وابنتها فاطمة وابنتها رملة وابنها علي ومضى إلى حران، وعثمان جاء قبله ورجع إلى البلاد[64] فأقام حتى جاء بأمه وأخيه، ومجيئهم كان في محرم سنة تسع وستين وخمسمائة [للهجرة الموافق آب 1173م].

وجاء أبو الفتح محمد بن محمد من أهل مردا ومعه امرأته أم يحيى.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: حدثني محمد بن أبي الفتح عن والدته أم يحيى، أنهم جاءوا مع أبي عبد الواحد وأم عثمان وجاء أبو عبد الواحد أبو الواحد سلامة بن نصر بن مقدام من جماعيل، وأولاده عبد الرحمن وإبراهيم ومحمد ومكية وزوجته مباركة وجاء أحمد بن سالم بعد أم عثمان بستة أشهر، ومعه أختاه سعيدة ومريم وامرأته سمية بنت إسماعيل بن أحمد، ومعه ولدان له ماتا صغيرين.

وجاءت أم فارس شريفة ومعها ابنها عبد الله بن أحمد بن عبد الله من دير عوريف، وجاء جراح بن أبي النابلسي وأمه وأخوته أبو الفضل ومسعود ونصير وجاء شجاع بن مفرج مع خاله حسن، وكانا قد سكنا جبل عاملة[65] مدة.

وسألت شجاعاً فقال: أنا ولدت بجبل عاملة وقد كان جماعة من أصحابنا يأتون فيبقون مدة ثم يرجعون، منهم عبد الملك بن يوسف الفقيه، وأخوه عبد الهادي ويونس بن

---

[62] - من اكبر البلدات في غوطة دمشق الغربية

[63] - من قرى القدس المدمرة، كانت تحتل نجداً مرتفعاً يمتد في اتجاه شمالي – جنوبي ثم ينحدر بشدة عند طرفه الشمالي مشرفا على طريق القدس- يافا العام وكانت القرية تشرف ايضا على بقاع واسعة من الجهات كلها، ولا سيما من جانبها الغربي حيث كان من الممكن رؤية الرملة واللد بالعين المجردة دمرت ساريس في عام 1948، وتغطي الأنقاض الحجرية الموقع اليوم، وتشاهد القضبان الحديدية النائتة من السقوف المنهارة

[64] - ما يزال الفلسطينيون يسمون فلسطين (البلاد) حتى اليوم

[65] - هو الجبل الذي يقع في جنوب لبنان على الحدود مع فلسطين، وسمي بذلك لأن سكانه كانوا من بني عاملة

إسماعيل ابن عم أبي وغيرهم، فأما عبد الملك فإنه جاء غير مرة كما قالت والدتي، وكذلك عبد الهادي كان يتردد ثم جاء بأولاده قبل الفتوح، ويونس جاء إلى عندنا زائراً وتوفي عندنا، وأذكر أنا مجيئه، وعبد الدائم بن نعمة كان يروح ويجيء، وكذلك محمد ابن أبي عطاف، وجاءت طريفة بنت إبراهيم معها ابن أختها سالم.

وجاء أحمد بن أبي عطاف ومعه أولاده معالي وجميل وسعيد ومحمد، وجاء أخوه محمود أبو منصور ومعه ابناه منصور وأحمد.

وجاء أحمد بن يونس بن حسن ومعه امرأته وبناته، وجاء محمد بن سعد من مردا ومعه أولاده عبد الملك وسعد وعبد الحميد وبناته وأخواه إبراهيم ومحمود.

وجاء عبد الولي من الفندق[66]. وجاء عمر بن أبي بكر ابن شكر ومعه أخوته وأمه. وجاء الحاج سعد بن سلطان أبو طرخان، وجاء أبو عبد السلام من مردا ومعه عبد السلام وعبد الملك، وجاء أبو الفضل أخو عبد الولي وأولاده أبو الطاهر وإبراهيم وأبو الفرج. وجاء أبو أحمد محمد بن أبي عطاف وسكن، وكان قد جاء متقدماً وعاد، وجاء أبو عابد مري بن ماضي بن نامي وأولاده عابد ورزق الله وعبد الحميد وولد له أولاد، وجاء نصر الله بن مفلح بن محمد ومحمد ابن مفلح.

• من مات من بني قدامة :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: ذكر مقامهم بمسجد أبي صالح وكم أقاموا به وما جرى لهم فيه ومن مات منهم فيه: سمعت والدتي تقول: أقمنا بمسجد أبي صالح نحو ثلاث سنين وأكثر ومات منا فيه ثمانية وعشرون نفساً دفنا منهم في مقابر مسجد أبي صالح ستة وباقيهم بالجبل بالمقبرة المعروفة دير الحوراني، ولم يمت هؤلاء النفر الذين ذكرنا من الذين هاجروا أولاً بل منهم وممن كان عندهم من أقاربهم ومعارفهم، فبعضهم يأتي مهاجراً لطلب العلم.

من دفن في مسجد أبي صالح :

فأما الستة الذين دفنوا بمسجد أبي صالح فأولهم زبيدة بنت الشيخ أبي عمر محمد، وبعدها رحمة بنت عبد الواحد بن علي، ثم يحيى ابن عثمان من ياسوف، كان [قد] جاء بعدهم بقليل لعله جاء يقرأ.

---

[66] - قرية صغيرة من اعمال نابلس

قالت والدتي: ولم يكن في ياسوف حنبليٌ غيره، وكان يوم الجمعة يأتي ليحضر الجمعة عندنا بجماعيل.

وماتت آمنة بنت الشيخ أحمد وإسماعيل وعالية ولدا أبي بكر ابن عبد الله.

قال وما أظن أحداً من هؤلاء مات إلا وهو صغير سوى يحيى بن عثمان وعالية، فإنها كانت قد بلغت، فهؤلاء الستة الذين دفنوا بالمسجد في السنة الأولى.

من دفن في الجبل :

ومات في السنة الثانية ثمانية. وممن مات فيه وحمل إلى الجبل أولهم أبو بكر بن الشيخ أبي عمر مات صغيراً، ثم ماتت عائشة بنت محمد بن قدامة امرأة أبي بكر بن عبد الله، وكانت قالت أينما دفن ابن أخي ابنه فنحن ندفن عنده، فماتت بعد أبي بكر في السنة الثانية. وبنت صغيرة أيضاً للشيخ أبي عمر في الثانية.

وماتت جويرية بنت أبي بكر، وكان قد تزوجها إبراهيم بن سعد أبو سعيد، وماتت لها بنت صغيرة اسمها حسنة في السنة الثانية، وماتت جويرية في السنة الثالثة بعد جدي في نفاسها جاءت بابن وماتا جميعاً.

وماتت أختها فاطمة بنت أبي بكر، وكانت زوجة عبد الوهاب بن عبد الواحد من دير اصطيا[67]، وماتت بنت لها صغيرة قبلها، وموت فاطمة في السنة الثالثة، وماتت أم عبد الكريم مكية بنت الشيخ أحمد في رجب من السنة الثالثة، وماتت جدتي أم عبد الرحمن مباركة بنت محمد بن قدامة، وكان بين موتها وبين موت أم عبد الدائم سبعة أيام في رجب أيضاً.

وجاء أبو عبد الدائم في تلك الأيام فلقيه عبد المحسن فقال له ماتت امرأتك وماتت أم عبد الرحمن فبكى وقال حزني على أم عبد الرحمن أكثر من حزني على امرأتي ومات قبله ابن عبد الغني عبد الواحد بن علي بن سرور في شوال من السنة الثالثة.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت شيخنا الإمام أبا إسماعيل إبراهيم بن عبد الواحد يقول: مات أبي قبل جدي، ومات يحيى بن أبي بكر وحزن عليه أخوه محمد بن أبي بكر حزناً كثيراً، وقال لا أدفنه.

فقال له الشيخ أحمد: إن كنت لا تدفنه فخذه وامض به إلى أين أردت، وإنا لا نتركك عندنا تقعد به، فسكت، وكان له من العمر نحو ست سنين توفي في السنة الثالثة في

---

[67] - تسمى الآن ديراستيا تقع شمال مدينة سلفيت وجنوب غرب نابلس

شوال، ومات لأم عبد الدائم ابن وبنت صفيران، ومات عبد الكريم وآمنة ولدا عمر في السنة الثانية. وولد لعبد الرحمن ابنٌ آخر بعد موته بستة أشهر، وسمي بعبد الكريم وعاش ستة أشهر بالدير.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت والدتي تقول: ومات في شوال علي بن عبد الله من قيرة في السنة الثانية، وماتت فيه جدتي أم أمي سعيدة امرأة الشيخ في السنة الثالثة في شوال، وماتت امرأة عبد الله بن رايش من جماعيل واسمها زعيمة في السنة الثالثة بعد جدتي سعيدة. ومات بالمسجد أيضاً بعد جدتي أم عبد الرحمن في السنة الثالثة عبد المحسن بن أبي عبد الرحمن الله عم أحمد بن سالم، صعدوا به مريضاً وأقاموا به بجنينته التي فوق نهر يزيد بالدير الشرقي فمات فيها. ومات فيها جدي أحمد عبد الرحمن في شعبان، ومات في الجنينة عبيد الله بن عبد الواحد وكان عمره نحو تسع سنين، ومات في اليوم الذي ماتت فيه جدتي فاطمة بنت نعمة بنت أربع سنين.

قالت والدتي وأقمنا بالمسجد إلى جمادى الآخرة وصعدنا فيه إلى الدير في السنة الرابعة.

مخاصمة بني الحنبلي لبني قدامة:

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت خالي الإمام الرباني موفق الدين أبا محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بارك الله في عمره يقول: لما جئنا إلى مسجد أبي صالح وأقمنا فيه وكان في يد بيت الجنبلي، وكان والدي يؤم فيه الناس، وكنا نقرأ فيه السبع، وكان قد ترك، يعني قراءة السبع، وصار الناس يأتون إلى والدي يزورونه، فخاف بنو الحنبلي منا أن نأخذ الوقف من أيديهم، فجاؤوا إلينا وقالوا: ما نخليكم في المسجد حتى تكتبوا خطوطكم أنكم من تحت أيدينا، وأنكم نزلتم علينا.

ففعلنا، وكان رجل يسمى بأبي القاسم الصوري، وكان يجيء إلى عندنا ويصفنا للناس ويحصل لنا أشياء، منها أنا لما قدمنا ومعنا صغار واحتجنا إلى كسوة الشتاء حصل لنا جبابا وثياباً.

قال فجاء بنو الحنبلي إليه وضربوه في المسجد وخاصموا الشيخ وسمعوه ما يكره، ثم مضوا يستعدون إلى السلطان علينا.

قال: فاتفق أن السلطان [نور الدين محمود بن زنكي] كان في الميدان، وكان معه الأعز، وكان صديقنا، وابن أبي عصرون، يعني القاضي، وكان في قلبه عليهم، فلما

استعدوا علينا قال له الأعز وابن أبي عصرون في حقنا: إن هؤلاء قد جاؤوا مهاجرين، ووصفا الشيخ، وهم يحفظون القرآن.

فقال نور الدين رحمه الله، يعني محمود بن زنكي الشهيد، نكتب لهؤلاء المهاجرين به كتاباً ويسلم إليهم الوقف والمسجد، فكتبوا كتاباً وعلم عليه السلطان، وجاء به القاضي ابن أبي عصرون والأعز إلى عندنا، إلى المسجد، فأخذنا الوقف والمسجد وجعلنا على الوقف محمد بن عمتي.

وكان أهل باب شرقي يخرجون إلى ظاهر الباب ويشربون الخمر[68] ونحن نريد أن ننكر عليهم، فصار أهل الباب الشرقي لا يحبونا، ومرضنا فيه وصاروا يموتون، فضاق صدر الشيخ منه، وادخل أخي أبا عمر وأباك إلى السواد[69] يبصران موضعاً، فلم يجدا. وقعد والدك يصلي في قرية[70] ورجع أخي، وكان الفرنج قد أغاروا على حوران، فدخل اللجاة[71] خوفاً منهم ثم ابتنينا الدير[72] وسكناه.

خوف بني قدامة من وصمهم بالأشعرية :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: قال خالي الإمام أبو محمد فيما حدثني قال: لما جاء ابن أبي عصرون إلى عندنا مضيت أنا وأخي والحافظ عبد الغني وحفظنا عليه مسألة من الخلاف لأجل مشيه إلينا، فجعل بنو الحنبلي يشنعون علينا ويقولون: قد صاروا أشاعرة[73] يقرؤون عليهم، أو ما هذا معناه، فانقطعنا عنه، فلقي أخي فقال له: انقطعتم فقال له: قالوا إنك أشعري، فقال: ما أنا أشعري لو كنت تقرأ علي سنة كنت تصير إماماً، وكان يجيء منك شيء أو كما قال: وإنما قال ذلك لما رأى من ذكائه.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال سمعت بعض أصحابنا وقد أنسيته وأظنه خالي أبا عمر، أو والدي، أو والدتي، أنهم لما تسلموا الوقف وصار بأيديهم، ضاق صدر الشيخ من ذلك وقال: أنا هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم، ما بقيت أريد أسكن ههنا أو ما هذا معناه.

---

(68) - سكان هذا الجانب من مدينة دمشق مسيحيون.

(69) - أي إلى الغور.

(70) - هكذا، وربما كان المقصود القريّة، وهي من أعمال جبل حوران

(71) - هضبة بركانية وسط حوران

(72) - دير الحنابلة في سفح قاسيون، وأصبح اليوم ملحقاً بمسجد الحنابلة

(73) - الأشاعرة فرقة إسلامية عقيدية تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري.

خروج بني قدامة إلى جبل قاسيون :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: ذكر خروجهم إلى الجبل وبناءهم الدير وسمعت الشيخ أبا محمد وأبا عبد الخالق عبد الواحد بن مستفاد يقول: كان الشيخ أحمد يأتي إلى الجبل من مسجد أبي صالح إذا مات لهم ميت يدفنونه، فكنت إذا جاؤوا بميت جئت أعاونهم على قبره.

فقال لي يوماً: عبد الواحد إني قد ضاق صدري من هذا المسجد الذي أنا فيه، واشتهيت أن أنتقل إلى غيره. فقلت: إن لي موضعاً تجيء وتبصره فإن أعجبك وأردت أن تبني فيه فافعل.

فأريته موضع الدير، وموضع المسجد العتيق، فجاء إلى موضع المسجد العتيق فنزل إلى النهر فتوضأ، وجعل حجراً موضع القبلة وصلى فيه وقال: ما هذا إلا موضع مبارك أو كما قال ثم شرع في بناء الدير.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال سمعت خالي الإمام أبا عمر يقول: بنينا الدير في سنتين أول سنة بنينا ثلاثة أبيات، والسنة الثانية أتممناه، يعني تمام عشرة أبيات وانتقلنا إليه.

إنشاؤهم البناء في الجبل :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت الإمام أبا إسماعيل إبراهيم بن عبد الواحد أحسن الله جزاءه، قال: كنت أخبز الخبز في البلد، يعني وهم في مسجد أبي صالح، وأخاف من صبيان دمشق أن يضربوني، ثم أحمل الخبز إلى الجبل يعني وقت عمل الدير.

قال وسمعت والدي يقول: كان العماد يحمل الخبز من مسجد أبي صالح على رأسه إلى الجبل لأجل العمال، وكان يقول: كانوا يريدون ساسوسة، يعني بذلك امرأة تخبز لهم وتطحن.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت فيما أظن والدتي حدثتني، إن عمتي أم عمر امرأة خالي جاءت إلى دير الحوراني، يعني بالجبل، وكانت تخبز لهم وتطبخ لما صعب عليهم نقل الخبز من مسجد أبي صالح.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت والدتي تقول: لما بني في الدير ثلاثة أبيات انتقلنا إليه فكان أخي أبو عمر في بيت، والفقيه محمد في بيت، وباقينا في بيت، وكنا نقول يكفينا بيت واحد فإن الناس يموتون ونحن نموت، يعني من كثرة ما كان من الموت.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت خالتي أم أحمد رابعة بنت الشيخ أحمد تقول: أول ما بني بيت أبي وبيت أخي أبي عمر وبيت الفقيه محمد، ثم بني بعد ذلك بيت أخي الموفق.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت خالي الريّاني قال: كنا وقت بناء الدير معنا نفقة نكتري على البناء، ولا قوة ولا معرفة لنا بالبناء، وكان عبد الرحمن – يعني ابن عمر المعروف بالمقابري رحمه الله – يبني لنا ويعاوننا وجماعة من أهله أو ما هذا معناه.

كثرة إهداء الناس لبني قدامة :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين: سمعت والدتي تقول انتقلنا إلى الجبل وكأن الناس لم يكونوا يعرفون والدي إلا بعد خروجه إلى الجبل، فكان الناس يأتونه ويزورونه ويهدون إليه، وكان السلطان نور الدين يأتي إلى زيارته، وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبطيخ والفحم من كثرة ما يهدى إلينا، أو ما هذا معناه.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين: سمعت خالي الإمام الرباني شيخ الإسلام أبا محمد عبد الله بن أحمد يقول: لما سكنا الدير كان في الجبل الشيخ مسمار وحمدان وسيدهم، يعني في الدير الغربي وأبو العباس الكهفي، وكانت أرض الجبل في أيديهم يزرعونها، وكان أبو العباس له أرض يقول هي للكهف[74].

قال الحافظ ضياء الدين: وهي الأرض التي تحت الكهف. قال: وقال خالي: وكان أبو العباس يخاف منا ويقول هؤلاء يكثرون ويتملكون هذه المواضع، أو كما قال، وكان الشيخ مسمار صاحبنا وصديقنا.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت والدتي تقول كان مسمار يهدي إلى والدي فاكهة ما رجعت رأيت مثلها من حسنها، أو كما قالت.

خوفهم في الجبل من الحرامية :

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت والدة الإمام أبي عبد الله محمد بن طرخان يحكي عن أمه، أن أباه سمعته يقول هو الذي رغّب أصحابنا في سكنى الجبل والبناء به.

قال الحافظ: وسمعت والدي فيما أظن قال: كنا نحرس الدير الذي لنا بالليل من

---

[74] - المقصود كهف قاسيون الذي يزعم انه هو مكان اهل الكهف المشهورين.

الخوف من الحرامية. قال الحافظ: وقد كنت أنا أعرف خوف الناس في الجبل، وأكثر خوفهم كان من أهل وادي التيم[75] فإنهم كانوا يأخذون الناس ويبيعونهم في بلاد الفرنج.

قال الحافظ: وسمعت أن صلاح الدين رحمه الله أراد أن يكبسهم ويؤدبهم، فامتنعوا منه أو ما هذا معناه، قال: وكانت لهم شوكة ومنعة.

وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال: سمعت والدتي تقول: لما سكنا الدير كنت أحمل الهم كثيراً من الخوف، حيث لم يكن للدير باب حجر كدير الحوراني، يعني أنهم كانوا يخافون أو ما هذا معناه.

وقال شيخنا الجمال ابن المبرد: سمعت شيخنا التقي بن قندس وغيره يذكرون أنهم إنما عملوا للدير باباً خوفاً على أولادهم من الذئاب والسباع، ولكن هذا أصح. ثم بنى الشيخ أبو عمر المدرسة[76]، ثم بنى الناس في الدير دوراً أخر وحفر الشيخ أحمد المصنع الذي يعرف اليوم ببير الشيخ ثم كثر البناء بها واتسع.

---

[75] - وادي تيم الله بن ثعلبة في جنوب لبنان الغربي الآن، وكان سكانه عبر التاريخ من فرق الباطنية المختلفة، ومن المسيحيين من مختلف الطوائف

[76] - اي المدرسة العمرية في قاسيون

ابن جبير
يصف شمال فلسطين أيام الصليبيين

من الرحالة الأفذاذ الذين زاروا الشام وشمال فلسطين في أثناء حكم الصليبيين في القرن السادس الهجري، والثاني عشر الميلادي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي الشهير باسم ابن جبير.

وقد قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق، ودون أخبار الرحلة الأولى، التي استغرقت أكثر من ثلاث سنوات، في نص أشبه بالمذكرات اليومية، التي نالت شهرة عالمية لم تدانها شهرة أي رحلة أخرى من الرحلات التي تعتمد هذا الأسلوب، وكان ذلك بعد عودته إلى الأندلس عام 581 للهجرة، ولها عنوانان: (كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) و(تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار).

مولده :

ولد ابن جبير في بلنسية بالأندلس بين عامي 539 و540 هـ 1145م، وقد شغف أول ما شغف بعلوم الدين فسمعها من أبيه في شاطبة، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي يعيش.

ونجد أن الرحلة جاءت حافلة بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها في أثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورؤيته لغرائب المشاهد واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية والتي كانت سائدة في تلك الفترات.

وقد استرعت اهتمام المستشرقين لما لها من قيمة نفيسة، فترجموا أول شيء القسم المختص بصقلية إلى الفرنسية وطبع في عام 1846، ثم طبعت الرحلة كلها للمرة الأولى في لندن عام 1852 بإضافة مقدمة له وضعها المستشرق رايت ثم أعيد طبعها ثمة أيضاً عام 1907 مع ترجمة لمؤلفها.

وفي عام 1936 صدرت في القاهرة الطبعة العربية الأولى للرحلة بتحقيق الدكتور

محمد مصطفى زيادة، وهي الطبعة التي أخذت عنها جميع الطبعات العربية اللاحقة. وقد اعتمدناها في دراستنا هذه.

الرحلة :

انطلق ابن جبير في رحلته يوم الاثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة 578 هجرية إلى الحجاز مع صديق له اسمه أحمد بن حسان، وكان من أهل الطب والعلم والأدب، فعبرا البحر إلى سبتة حيث ركبا سفينة جنوية أقلتهما إلى الإسكندرية، وقد انتقد ابن جبير في هذه المرحلة من الرحلة عمل جباة المكوس [رجال جمارك ذلك العصر] وتصرفاتهم الدنيئة مع المسافرين، ثم انتقل إلى القاهرة وجنوب مصر واليمن إلى أن وصل إلى الحجاز حيث أدى مناسك الحج ووصف وصفاً مسهباً مكة المكرمة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، وزار المدينة المنورة. وقد بلغ هذا الجزء من الرحلة ما يعادل ثلثها تحريراً.

ثم سافر نحو العراق وقصد الجزيرة قبل أن يصل إلى الشام التي وصلها سنة 580 هجرية، ودخل دمشق في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، فسمع الحديث عن محدثها الخشوعي وابن أبي عصرون والقاسم بن عساكر وغيرهم ثم توجه إلى عكا، فنقل لنا وصفاً نادراً ولافتاً للأوضاع في شمال فلسطين تحت حكم الصليبيين. وقد ختم رحلته في يوم الخميس في الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة 581 هجرية.

وبعد عدة أعوام قام ابن جبير برحلته الثانية إلى الشرق، بعد أن سمع بتحرير صلاح الدين لبيت المقدس، سنة 583 هجرية، ولكن للأسف الشديد لم تصلنا هذه الرحلة التي يفترض أن يكون قد زار خلالها بيت المقدس بعد تحريره.

أما رحلته الثالثة إلى الشرق، والتي لم يدونها أيضاً، فقد تمت سنة 610 هجرية، حيث أمضى بقية حياته متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلاً بالتدريس إلى أن وافته المنية في الإسكندرية سنة 614 هجرية.

فلسطين في الرحلة :

بدت منطقة عكا والأراضي المحيطة بها في هذه الرحلة مستسلمة لقدرها تحت حكم الصليبين، وتظهر قوة الاقتصاد في مقابل القوة العسكرية، عبر تاجرين دمشقيين كان لهما أكبر الأثر في حياة هذه المملكة الصليبية، وهما نصر بن قوام، وأبو الدر ياقوت مولى العطافي.

أما الموظفون الفرنجة، الذين رآهم ابن جبير عند نقطة التمكيس في عكا، فقد كانوا يتحدثون العربية ويكتبون بها. ويبدو أنهم كانوا في طريقهم للاندماج في حضارة المنطقة على الرغم من الحروب المشتعلة.

وقد أثار دهشة ابن جبير أن الفلاحين الفلسطينيين في منطقة عكا كانوا مرتاحين إلى حد كبير في حياتهم، وأن علاقتهم مع الفرنجة كانت شبه طبيعية، ولعل السبب في ذلك استشعارهم لقوتهم الاقتصادية، إذ، كما يبدو، كان الفرنجة يعتمدون عليهم في مأكلهم ومشربهم.

ولعل الملاحظة المهمة التي لفتت نظر ابن جبير هي وجود متطوعين مغاربة للقتال ضد الفرنجة الصليبيين، وأن فرقة منهم كانت مع جيش صلاح الدين، وأن أولية افتكاك الأسرى كانت لهم منذ عهد نور الدين واستمراراً خلال عهد صلاح الدين.

وعموماً يبدو الفرنجة الصليبيون في عكا طبقة عسكرية حاكمة ضمن بوتقة من العرب الفلسطينيين. وسواء طالت الأيام عليها أم قصرت كانت ستزول، إن لم يكن بفعل القوة العسكرية، فبفعل القوة الحضارية.

رحلة ابن جبير

التوجه إلى عكا

شهر جمادى الآخرة [580هـ] عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد، التاسع من شهر شتنبر[77] العجمي، ونحن بدمشق، حرسها الله، على قدم الرحلة إلى عكة، فتحها الله، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى، وفي مراكبهم المعدّة لسفر الخريف، المعروف عندهم بالصليبية[78]، عرّفنا الله في ذلك معهود خيرته، وتكفلنا بكلاءته وعصمته، بعزته وقدرته. إنه سبحانه الحنان المنان، وليُّ الطَّول والإحسان، لارب غيره.

وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر [سبتمبر، أيلول] المذكور، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة.

من أعجب الأحاديث

ومن أعجب مايحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين.

شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً، وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك، المتقدم الذكر في هذا التاريخ، قصد إليه الإفرنج في جميعهم، وقد تألبوا من كل أوب، وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين، فصمد إليهم، وأقلع عن الحصن بجملته، وسبقهم إلى موضع الماء، فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سد

---

[77] - هو شهر سبتمبر وما زال يستخدم بهذه الصيغة في المغرب العربي

[78] - تسمى هذه الريح بالصليبية في الشام، لتصليب أشرعة السفن موافقة للريح وحتى الآن يسمى فصل الخريف في فلسطين فصل الصليب لأن الأشجار تتصلب فيه وتفقد خضرتها.

عليهم بنيات الطرق القاصدة بلادهم، ولم يبق لهم الأ طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه.

فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة وانتهز الفرصة، وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابلوس [نابلس] وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها، وأخذ إليها حصوناً وضياعاً. وامتلأت أيدي المسلمين سبياً لايحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة السامري، وانبسط فيهم القتل الذريع، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها، إلى ما اكتفت من الأمتعة الذخائر والأسباب والأثاث، إلى النعم والكراع، إلى غير ذلك.

وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته، وسلم لهم ذلك، فاحتازت كل يد ماحوت، وامتلأت غنى ويساراً، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج، وآبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والإياب، وخلصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً، وكانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد.

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه، وكان مبلغ السبي آلافاً لم نتحقق إحصاءها. ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا، وأعلمنا أنه يُجمُ عسكره قليلاً ويعود إلى الحصن المذكور. فالله يعينه، ويفتح عليه، بعزته وقدرته.

وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة! فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدارية، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف. ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف ببيت جَن[79] هي بين جبال.

ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك فقيل لنا: هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع، من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله؛ لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها.

---

[79] - قرية جنوب غرب دمشق على مسافة 50 كم تقريباً وهي محطة على طريق دمشق بانياس القديم

ذكر مدينة بانياس، حماها الله

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين، وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة، وله مصب تحت أرحاء [طواحين مائية]. وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله[80].

ولها محرث واسع في بطحاء متصلة[81] يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين[82]، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ. وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، ولهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهم فيها[83].

فرحلنا عنها عشيّ يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية[84] بمقربة من حصن الإفرنج المذكور، فكان مبيتنا بها. ثم رحلنا منها يوم الأحد سحراً واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين[85] بواد ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى، تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالاسطبل[86]، لو ولجته المساكر لغابت

---

[80] - عن فتح بانياس كتب ابن القلانسي، (أتت الأخبار بافتتاح مدينة بانياس بالسيف بعد نقب أحد الأبراج وإطلاق النار فيه وسقوطه، ثم دخول جيش المسلمين إلى المدينة وقتل من فيها من الإفرنج، وانهزام من سلم منهم إلى القلعة وانحصارهم بها. ووصلت معونات من الصليبيين لإنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه الإفرنج المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك ولم تفلح وبدأ الفرنجة يرسلون لنور الدين الرسائل لتسليم القلعة وما حوته لينجوا سالمين فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه ووصل ملك الفرنجة في جمع من الفرسان من ناحية الجبل على حين غفلة، فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها، وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر. [ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، الصفحات 337-342]

[81] - المقصود سهل الحولة

[82] - تقع هونين في الطرف الجنوبي الشرقي من جبل عامل في جنوب لبنان على ارتفاع 660م عن سطح البحر تتبع لقضاء صفد وفيها بقايا قلعة صليبية كان اسمها كاستل نوف

[83] - الفلاحون والرعاة الخاضعون لحكم الإفرنج هم من العرب المسلمين أيضاً.

[84] - من المرجح أن المقصود بهذه التسمية قرية ميس الجبل الواقعة في جنوب لبنان وقرب حصن هونين، واسم هذه القرية مأخوذ من شجر الميس الذي يكثر في هذه الناحية، وربما الحقت الجبل بالاسم لتمييزه عن مواقع أخرى سميت بهذا الاسم في عموم المنطقة منها أكثر من موقع في شمال غرب الجولان يحد ميس الجبل جنوبا بلدة بليدا وشمالا بلدة حولا وغربا بلدة شقرا وشرقا هونين

[85] - اسمها بين القلاع الصليبية تورون، يذكر المؤرخ وليم الصّوري الذي عاصر الحروب الصليبية أن قلعة تبنين من بناء (هوغ دي سان أومير) الحاكم الصليبي لمدينة طبريا في فلسطين عام 1107م

[86] - ما يزال هذا الوادي معروف بهذا الاسم حتى الآن وهو قرب قرية دوبي وقلعة شقرا في جنوب لبنان[السيد محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص 138]

فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المهبط إليه، والمطلع عنه عقبتان كؤودان.

فعجبنا من أمر ذلك المكان، فأجزناه ومشينا عنه يسيراً، وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، وهي أم الملك الخنزير صاحب عكة دمرها الله.

فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن، ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً.

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها: أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم[87].

وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسألهم ولا نرزأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم، ويخفف عنته عنهم.

ورحلنا من تبنين، دمرها الله، سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله على ضياع متصلة، وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولايعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم.

وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل: رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك

---

(87) - أي مروره على بلاد الفرنجة مرة بعد مرة

له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله. فإلى الله المشتكى من هذه الحال، وحسبنا تعزية وتسلية ماجاء في الكتاب العزيز: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[88].

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين.

فأضاف جميع أهل القافلة حفيلة[89]، وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله، وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم، فعمهم بتكرمته، وكنا فيمن حضر هذه الدعوة، وبتنا تلك الليلة.

وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، وهو الثامن عشر لشتنبر [سبتمبر، أيلول]، مدينة عكة دمرها الله، وحملنا إلى الديوان، وهو خان معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة: فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى.

وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له، يعرف بالصاحب: لقب وقع عليه لمكانه من الخطة، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل مايجبى عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم[90].

فأنزل التجار رحالهم به، ونزلوا في أعلاه، وطلب رحل من لاسلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولاحمل. فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة.

ذكر مدينة عكة، دمرها الله وأعادها:

هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها

---

(88) - سورة الأعراف، الآية 155.

(89) - حفيلة: جميعهم من غير تمييز.

(90) - هذا هو نظام الالتزام الذي يعني ان يتعهد الملتزم بمبلغ معين للسلطة، ويقوم هو بجمع المال على طريقته، ويشبه في زمننا ما يسمى بالتعهد.

مواطئ الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجساً وعذرة.

انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقس. وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة، بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة، وعند محرابه قبر صالح النبي[91] صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس.

وفي شرقي البلدة العين المعروفة بعين البقر، وهي التي أخرج الله منها البقر لآدم، صلى الله عليه وسلم. والمهبط لهذه العين على أدراج وطية، وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه: يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصارى معظّم محفوظ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين.

فكان مقامنا بها يومين. ثم توجهنا إلى صور يوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكور، والموفي عشرين لشتنبر المذكور، على البر، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب[92]، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة، وعلى قرية مسورة تعرف باسكندرونة[93]، وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه بجاية[94] طمعاً في الركوب فيه، فحللناها عشي يوم الخميس المذكور، لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلاً، فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين.

ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لاتلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم. هي أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع،

[91] - لم يبق الآن من مسجد النبي صالح المذكور سوى مقبرة في عكا تحمل هذا الاسم

[92] - الصحيح الزيبه وهي قرية تقع شمال عكا، واسمها القديم اكزيب

[93] - هذا الاسم غير معروف اليوم وربما تغير اسم القرية المذكورة الآن

[94] - بجاية مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط

فخلائقهم أسجح، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى وأكفر.

وأما حصانتها ومنعتها فأعجب مايحدث به، وذلك أنها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها الا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب.

وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص، فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حراس أمناء لا يدخل الداخل، ولايخرج الخارج إلاّ على أعينهم.

فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع، ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسو خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

فكان مقامنا بها أحد عشر يوماً: دخلناها يوم الخميس، وخرجنا منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى المذكورة، وهو آخر يوم من شتنبر، وذلك أن المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه.

عرس إفرنجي في صور :

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها: زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب، والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها.

وهي في أبهى زي، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم. وهي رافلة في حليها وحللها: تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة، أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات: يتهادين في أنفس الملابس، ويرفلن في أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم.

والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين، يتطلعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة. فأدانا الاتفاق رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه.

مسلمو عكة :

ثم عدنا إلى عكة في البحر، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة، وأول يوم من شهر أكتوبر [تشرين الأول]، واكترينا في مركب كبير نروم الإقلاع إلى مسينة من بلاد جزيرة صقيلة. والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل، بعزته وقدرته.

وكانت راحتنا، مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخر، فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين، أنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة.

وبعد استيلاء المسغبة [أي: المجاعة] عليهم؛ ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وأنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها.

وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة، ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم، وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام. فكان ذلك، وتفرقوا في بلاد المسلمين.

ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه الرجوع والسكنى بينهم، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها، والله غالب على أمره، سبحانه جلت قدرته، ونفذت في البرية مشيئته.

وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازاً، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين، لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم: منها الذلة والمسكنة الذمية، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره وأعلى خطره، ولاسيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة، والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات، إلى غير ذلك مما لاينحصر ذكره ولاتعداده.

فالحذر الحذر من دخول بلادهم. والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة، من

هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم، ولم تتداركها إلاّ بعد موافقة الندم، فهو سبحانه ولي ذلك، لا رب غيره.

أسرى المسلمين :

ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهم خلاخيل الحديد، فتتفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً.

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين، بهذه الجهات الشامية وسواها، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين[95] من النساء، وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل.

وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضة أصابته، تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وأخرج عوضاً عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم. فانظر لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي.

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار، وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي، وتجارتهم كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل: ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين. والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

---

(95) - خاتون كلمة تركية مغولية، تعني المرأة النبيلة ذات السلطان ويقابلها بالتركية الحديثة(قادين)، والخواتين جمع عربي للكلمة التركية ويعني السيدات، وتطلق هذه التسمية عادة على زوجات الحكام وعلية القوم

مغربي متنصر :

ومن سوء الاتفاقات، المستعاذ بالله من شرها، أنه صحبنا في طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربي من بونة[96] عمل بجاية، كان أسيراً فتخلص على يدي أبي الدر المذكور، وبقي في جملة صبيانه، فوصل في قافلته إلى عكة، وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير من أخلاقهم، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه، إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور.

فانصرفنا إلى عكة، وأعلمنا بخبره، وهو بها قد بطس ورجس، وقد عقد الزنار، واستعجل النار، وحقت عليه كلمة العذاب، وتأهب لسوء الحساب، وسحيق المآب، ونسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ولايعدل بنا عن الملة الحنيفية، وأن يتوفانا مسلمين، بفضله ورحمته.

وهذا الخنزير صاحب عكة، المسمى عندهم بالملك، محجوب لايظهر: وقد ابتلاه الله بالجذام، فعجل له سوء الانتقام، وقد شغلته بلواه في صباه، عن نعيم دنياه، فهو فيها يشقى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس[97]، وهو صاحب المجبى، وإليه ترتفع الأموال.

والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن، في الإفرنجية اللعينة، القومس اللعين، صاحب طرابلس، وطبرية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الإفرنج، وهو المؤهل للملك والمرشح له، وهو موصف بالدهاء والمكر. وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد، ثم تخلص بمال عظيم بذله في نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق.

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها، ويُقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها، وبحيرة طبرية مشهورة، وهي ماء عذب، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة، وطولها نحو ستة فراسخ. والأقوال فيها تختلف، وهذا القول أقربها إلى الصحة، لأنا لم نعاينها، وعرضها أيضاً مختلف سعة وضيقاً.

وفيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء، صلوات الله عليهم: كشعيب، وسليمان، ويهوذا، وروبيل، وابنة شعيب زوج الكليم موسى، وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وجبل الطور[98] منها قريب.

---

[96] - مدينة في شرق الجزائر قرب عنابة

[97] - القومص وهي كلمة لاتينية تعني الأمير او مرافق الملك

[98] - المقصود جبل طابور الذي يشرف على مرج ابن عامر في الجليل الفلسطيني الأدنى

وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام. وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام، وهو بين المغرب والقبلة من عكة إلى جهة الإسكندرية، والله يعيده إلى أيدي المسلمين، ويطهره من أيدي المشركين، بعزته وقدرته.

عكة وصور :

وهاتان المدينتان، عكة وصور، لابساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما، ولهما عمالة متسعة. والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع، ومنها تجبى الثمرات إليهما. وهما من غُرّ البلاد.

ولعكة في الشرق منها، مع آخر البلد، واد يسيل ماء. ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظراً ولاميدان للخيل يشبهه، وإليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية، وبه يجتمع العسكر، دمره الله!!.

ولصور عند بابها البري عين معينة ينحدر إليها على أدراج، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها، والله تعالى يعيد إليها و أخواتها كلمة الإسلام بمنه وكرمه!.

في المركب الشراعي :

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة، والسادس لأكتوبر، صعدنا المركب، وهو سفينة من السفن الكبار، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج. وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين[99]، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان، أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة، ومأمول التسهيل والصنع الجميل، بمنه وكرمه، لامعبود سواه. ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق، بمشيئة الله عز وجل.

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه :

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة التاسع لشهر اكتوبر، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة، منتظرون كمال وسقه، والإقلاع باسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته. وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوماً لعدم استقامة الريح.

---

(99) - تعريب للكلمة اللاتينية (Peregrini) والتي تعني الحاج، وفي الإيطالية (Pilligrini)

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلاّ في فصلي الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلاّ فيهما، والتجار لا ينزلون عكة بالبضائع إلاّ في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل [نيسان]، وفيه تتحرك ريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه [أيار]، وأكثر وأقل بحسب مايقضي الله تعالى به.

والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر [تشرين الأول]، وفيه تتحرك الريح الشرقية، ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وإنما هي عندهم خلسة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل.

ما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، والريح الغربية أكثرها دواماً. فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق، فسبحان المبدع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه.

وكنا طول هذه المدة التي أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت في البر ونتفقد المركب في الأحيان. فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور، والثامن عشر لأكتوبر [تشرين الأول]، أقلع المركب، وكنا على عادتنا في البر بائتين، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر، فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب في إعداد الماء والزاد، وأن لا يفارق الإنسان رحله، فأصبحنا والمركب لاعين له ولا أثر.

فاكترينا للحين زورقاً كبيراً له أربعة مجاذيف وأقلعنا نتبعه، وكانت مخاطرة عصم الله منها، فأدركنا المركب مع العشي، فحمدنا الله عز وجل على ما من به، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل، وآخره والحمد لله يوم فرجنا، ولله الحمد والشكر على كل حال.

واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام، ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب، فأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجنوي، وكان بصيراً بصنعته، حاذقاً في شغل الرياسة البحرية، يراوغها تارة يميناً وتارة شمالاً طمعاً أن لايرجع على عقبه، والبحر في أثناء ذلك رهو ساكن.

فلما كان نصف الليل، أو قريباً منه، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور، والسابع والعشرين لأكتوبر، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصاري المعروف بالأردمون[100] والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع، وعصم الله من وقوعها في المركب، لأنها كانت تشبه الصواري عظماً وضخامة.

---

[100] - كلمة لاتينية تعني خشبة الصاري المعروفة عند العرب بالدقل

فتبادر البحريون اليها، وحط شراع الصاري الكبير، وعطل المركب من جريه، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاري المرتبط بالمركب، فقصدوا نصف الخَشبة الواقعة في البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها، وحصلنا في أمر لا يعلمه الا الله تعالى، وشرعوا في رفع الشراع الكبير، وأقاموا في الأردمون شراعاً يعرف بالدلون.

وبتنا بليلة شهباء، إلى أن وضح الصباح، وقد منّ الله عز وجل بالسلامة، وشرع البحريون في إصلاح فَرِيَّة أخرى من خشبة كانت معدة عندهم، والريح الغربية على أول لجاجها، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وخفيِّ لطفه، ومعهود فضله، سبحانه هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته، لا إله سواه.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيماً فاتراً عليلاً، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها، فكانت نفساً خافتاً، ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم، فبقينا لاعبين على صفحة ماء، تخاله العين سبيكة لجين، كأنا نجول بين سماءين. وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الغليني.

وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أول يوم من نونبر [نوفمبر تشرين الثاني] العجمي، كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لايخلوا أحد منهم، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو انثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة.

وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة، ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن، واتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع والعشرين منه، فتحركت ريح شمالية، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس، والحمد لله.

شهر شعبان المكرم، عرفنا الله خيره وبركته

غم هلاله علينا، فأكملنا عدة أيام رجب، فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نونبر[101]، وقد تم لنا على ظهر البحر، ومن يوم إقلاعنا من عكة اثنان وعشرون يوماً حتى عدمنا الأنس، واستشمرنا القنط واليأس، وصنع الله عز وجل مأمول، ولطفه الحفي بنا كفيل بمنه وكرمه.

---

(101) - هو الشهر الحادي عشر من التقويم الميلادي في المغرب العربي، ويسمى نوفمبر في بعض الدول العربية وتشرين الثاني في المشرق العربي

وقل الزاد بأيدي الناس، لكنهم من هذا المركب، بمنه الله، في مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد، من خبز، وماء، ومن جميع الفواكه والأدم، كالرمان، والسفرجل، والبطيخ السندي، والكمثرى، والشاه بلوط، والجوز، والحمص، والباقلاء [الفول] نيأ ومطبوخاً، والبصل، والثوم، والتين، والجبن، والحوت [السمك]، وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع. وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر، والله يأتي بالفرج القريب.

ومات فيه رجلان من المسلمين، رحمهما الله، فقذفا في البحر، ومن البلفريين اثنان أيضاً، ومات منهم بعد ذلك خلق كثير، وسقط منهم واحد في البحر حياً، فاحتمله الموج أسرع من خطفة البارق، وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلفريين رئيس المركب، لأنها سنة عندهم في كل من يموت في البحر، ولا سبيل لوارث الميت ميراثه. فطال عجباً من ذلك.

وفي سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ، والثالث عشر من نونبر، ظهرت لنا جبال في البحر، وقد اشتدت الريح الغربية، وتوالى إعصارها، وكانت تتقلب بالقبول والدبور. فألجأتنا تلك الجبال، فأرسينا عنده. وسألنا عن الموضع، فأعلمنا أنه من جزائر الرمانية[102]. وهذه الجزائر تنيف على ثلاثمائة وخمسين جزيرة، وهي عمل صاحب القسطنطينية، والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين، لأنهم لا صلح بينهم فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور، وصدر يوم الأربعاء بعده. ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار في الخبز واللحم بعد أمان أخذوه.

(102) - قال الإدريسي في نزهة المشتاق: إن الذي تضمن هذا في الجزء الرابع من الإقليم الرابع قطعة من البحر الشامي فيه أعداد جزائر من جزائر الرمانية وجزيرة بلبونس العظمى وهي جزيرة يحيط بها البحر ألف ميل وليس لها منفذ إلى البر إلا فم ضيق مقداره ستة أميال وقد كان أحد القياصرة من الروم بنى عليه سوراً طوله هذه المسافة وهي ستة أميال وفي هذه الجزيرة ثلاث عشرة مدينة قواعد مشهورة مذكورة ومن القلاع الحصينة عدد كثير وقرى وعمارات

إشارات الهروي إلى زيارات فلسطين

زار الرحالة الشهير أبو الحسن الهروي، المتوفى سنة 611 هـ، 1214 م، فلسطين في أثناء احتلالها من الصليبيين الفرنجة، وكتب أخبار زياراته إلى المقامات والأضرحة والمشاهد، بعد تلك الرحلة بسنوات عديدة، وقد كانت رحلته أشبه بدليل سياحي إلى معرفة أماكن الزيارة الدينية، وهو أراده كذلك محاولاً من خلاله تصحيح الأخطاء الشائعة حول المقامات، ووضع الأمور في سياقها الصحيح.

ولد علي بن أبي بكر بن علي الهروي بالموصل وأصله من هراة وإليها نسبته.

طاف البلاد واستهل تجواله من مدينة حلب وكاد يطبق الأرض بالتجوال، فلم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً، مما يمكن قصده إلا قصده ورآه. وكان لا يصل إلى موضع إلا كتب بخطه على حائطه. لم يكن تجواله لطلب العلم أسوة بعدد من الرحالين والجغرافيين، بل لزيارة أضرحة الأولياء والمقامات الكثيرة التي سمع عنها. وتبدو أسفاره أنموذجا لتلك الرياضة الروحية التي سيطرت مع مرور الزمن على أعداد كبيرة ومجتمعات كثيرة. وقد اتخذ في تجواله سمة الصوفي المتسول واستطاع أن يحصل على ما يقيم به أوده في الطريق، فكان يستغل معرفته بالسِّحر وجميع ضروب الخوارق، ويممارسة السيمياء.

تقدم عند الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، صاحب حلب وأقام عنده، وكان كثير الرعاية له، وبنى له مدرسة بظاهر حلب وهو مدفون فيها.

من تصانيفه: (كتاب الإشارات في معرفة الزيارات) وهو موضوع دراستنا هذه، و (الخطب الهروية) و (التذكرة الهروية في الخيل الحربية) وغيرها.

في كتاب (الإشارات) الذي عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل – طومين وصدر في دمشق 1953 ميلادية عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية، يذكر الهروي أنه زار بيت المقدس بين عامي 569- 570 هـ، وكان تحت سلطان الصليبيين، ودون الكتابات التي كانت في مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، والتي زالت فيما بعد، وزار بعد ذلك مصر

والجزيرة العربية والعراق وإيران والهند، كما زار أراضي الدولة البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية في عهد الإمبراطور مانويل الأول، وجرت بينه وبين الإمبراطور محادثة كما يزعم.

ويبدو أن الكثير مما دونه الهروي في رحلته الطويلة قد ضاع، كما يقول هو في مقدمة الكتاب، فهناك جزء أخذه (الانكتار) وهو لقب الملك الانكليزي ريتشار قلب الأسد، وهناك قسم غرق في البحر

وقال أيضاً إنه زار أماكن ودخل بلاداً من سنين كثيرة، ونسي أكثر ما رآه، وشذّ عنه أكثر ما عاينه.

وقد ذكر ابن خلكان أن الهروي لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآها، وأنه كان يكتب أول اسمه ينقشه في كل مكان زاره، وقد أبصر ابن خلكان بأم عينيه بعض ذلك بعد نصف قرن[103].

يعد نص الهروي عن فلسطين عموماً، وبيت المقدس خصوصاً، وثيقة تضاف إلى الوثائق النادرة حول أوضاع فلسطين وبيت المقدس تحت حكم الصليبيين، حيث يؤكد أنهم حولوا معظم المساجد التي تحت أيديهم إلى كنائس، ولكنه يشير في الوقت نفسه إلى أنهم لم يغيروا شيئاً في عمارة هذه الأماكن، من حيث مواضع المنابر والمحاريب والكتابات التي تؤرخ لبناء أو ترميم هذه الصروح.

وهذا يعني أن التغيرات الجوهرية التي طرأت على الحرم القدسي، وغيره قد حدثت في فترات لاحقة.

---

[103] - مقدمة كتاب الإشارات للهروي بالفرنسية لسوورديل وفيات الأعيان لابن خلكان ج1 ص 437. تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي، ج1 ص320 دمشق الشام في نصوص الجغرافيين والبلدانيين العرب لأحمد إيبش وقتيبة الشهابي

الإشارات إلى معرفة الزيارات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير إلى رحمة ربّه، المستغفر من خطيئته وذنبه، عليّ بن أبي بكر الهرويّ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين:

الحمد لله حقّ حمده، وصلاته على خير خلقه محمد النبي الأمي وآله وصحبه وشرّف وكرّم. أما بعد فإنه سألني بعض الأخوان الصالحين، والخلان الناصحين، أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شهدته من العجائب والأبنية والعمارات، وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات، في الربع المسكون والقطر المعمور.

ووقع الامتناع إلى أن حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز، شرفه الله وعظمه، وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام، وقبة الإسلام، ومقر الإمام (عم)، وذكر الشيخ الرسول زيارات زارها بالشام وأرض بعلبك، وذكر بعض الحاضرين قبور بعض الأنبياء (عم) وقد اختُلف في صحة ذلك.

فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب وكان الواجب أن نبتدئ بذكر مدينة السلام [بغداد]، حرسها الله (تع)، إذ بها إمام المسلمين، وخليفة الموحدين، وأمير المؤمنين، وابن (عم) سيد المرسلين، الإمام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، بن الإمام المستضيء بأمر الله، بن الإمام المستنجد بالله، بن الإمام المستظهر بالله، بن الإمام المقتدي بالله، بن الإمام محمد الذخيرة، بن الإمام القائم بالله، بن الإمام القادر بالله، بن الإمام المقتدر بالله، بن الإمام المعتضد بالله، بن الإمام الموفق بالله، بن الإمام المتوكل على الله، بن الإمام المعتصم بالله، بن الإمام الرشيد بالله، بن الإمام المهدي، بن الإمام المنصور، بن الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، صلوات الله عليهم، الذي رفع المظالم، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وأقام حدود الله، وأحيا سنة رسول الله، وعمّر الشريعة وأظهر الصنيعة، وفق الله لطاعته، وبلغه نهاية آماله من دنياه وآخرته، بمحمد وآله وعترته.

إلا أننا أخرنا ذكر زيارات مدينة السلام [بغداد] لنجعلها مفتاحاً إلى ذكر زيارات الحرمين الشريفين المعظمين مكة والمدينة، حرسهما الله (تع).

وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز، وأنا أستعيذ بالله من شر حاسد ونكد معاند، يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول، صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى ذكر بعض الآثار فيقول: «قرأنا في التأريخ الفلاني ضد ذلك»، و«ذكر فلان غير ذلك».

وأنا فما أشك في قوله ولا أطعن في حديثه، إلا أنني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة، والله أعلم بصحته.

وقد ذكر بعض أصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول (عم) ومن الصحابة والتابعين (رضهم)، قُتلوا أو ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر في أكثر هذه الأماكن ما ذكروه، ولا شك أن قبورهم اندرست، وآثارهم طُمست وذهبت آثارها، وبقيت أخبارها، والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته.

وقد ذكروا أيضاً بلاداً أخر، وأماكن وطرقات، لا تُعرف الآن لتقادم العهد وتغيّر الزمان. وإن جرى فيما أذكر شيء بطريق السهو والغلط، ولا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه، والواقف عليه الصفح عن ذلك، وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق، فإن كتبي أخذها الإنكتار[104] ملك الفرنج، ورغب في وصولي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر.

وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة، ونسيت أكثر ما رأيته، وشذّ عني أكثر ما عانيته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد، ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد، إلا رجل جال الأرض بقدمه، وأثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه.

وهاأنذا أبتدئ بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها، والبلاد التي تليها، ثم أذكر الشام بأسرها، والساحل بأسره، وبلاد الفرنج وفلسطين، والأرض المقدسة، وجميع زيارات البيت المقدّس، ومدينة الخليل (عم)، وديار مصر بأسرها، والصعيدين والبلاد البحرية، والمغرب وجزائر البحر، وبلاد الروم، وجزيرة ابن عمر، وديار بكر، والعراق بأسرها، وأطراف الهند، والحرمين الشريفين مكة والمدينة، حرسهما الله تعالى، واليمن، وبلاد العجم، مع أنه لم يدخل بلاد العجم والمغرب نبي، بل بهما من الصالحين والأبدال والأولياء والعلماء، ما لو جُمع لكان كثيراً.

---

(104) - هو الملك ريتشارد قلب الأسد، وعرفنا ذلك من سياق الأحداث التي يرويها المؤرخون العرب، ويبدو ان هذا اللقب منحوت من انكلترا او الانكلتار.

وهـذا الكتـاب مقتـصـر علـى ذكـر الزيـارات، وأمـا ذكـر الأبنيـة والآثـار والعجائـب والأصنام فلها كتاب مفرد غير هذا، ولا بد أن نذكر ها هنا طرفاً مما يليق بهذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(..)

ذكر زيارات بلد حوران[105]

قرن الحارة:

قرية بها مولد إدريس (عم).

دير أيوب:

قرية بها كان أيوب (عم)، وبها ابتلاه الله تعالى، وبها قبره، وبها العين التي ركضها برجله والصخرة التي كان عليها.

نوى:

قرية بها قبر سام بن نوح (عم).

المحجة:

قرية بها شهداء من الصحابة رضي الله عنهم، وبها حجر ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحيح أنه (عم) ما تمدى بصرى. وذكروا أن بجامعها سبعين نبياً والله أعلم.

بُسر[106]:

قرية بها قبر اليسع (عم) وقد زرناه فيما تقدم.

نجران[107]:

قرية بها أصحاب الأخدود.

بُصرى:

بلدة فيها مسجد النبي صلى الله عليه وسلم صلى بذلك الموضع. وشرقيها قرية

---

(105) - حسب تقسيم الهروي للبلدان يقع جزء من فلسطين في بلد حوران، ولذلك ذكرناه هنا.

(106) - تسمى الآن بصرى الحرير، وكانت تسمى في الحقبة الغسانية بسرائيل

(107) - في جبل حوران قرية تدعى نجران وهي تقع اليوم في محافظة السويداء السورية

تعرف بديبين بها قدم رسول الله (ص) في صخرة سوداء، كما ذكروا لي والله أعلم. وقبلي بصرى دير يقال له دير الباعقي كان به بحيرا الراهب وبه اجتمع برسول الله (ص).

صلخد:

بلدة بها مشهد ذكروا أن موسى وهارون عليهم السلام كانا به لما خرجا من التيه وبه قدم هارون (عم) والله أعلم.

وتر:

قرية بها مسجد ذكروا أن الزُبير بن العوام بناه.

إمتان:

قرية بها مسجد ذكروا أن موسى بن عمران (عم) سكن في ذلك الموضع، وبه موضع عصاه في الصخرة والله أعلم.

جبل بني هلال[108]:

تحته قرى مذكورة في التوراة يقال لها البثينة، منها قرية تعرف بالمالكية، بها قدح خشب، ذكروا أنه كان لرسول الله (ص) والله أعلم.

الحميمة[109]:

قرية بها قبر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أبي الإمام المنصور رضي الله عنهم.

غُور نابلس:

به قرية يقال لها عمتا[110] بها قبر أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وقد زرناه بطبرية.

ريحا[111]:

قرية بها قبر ذكروا أنه لموسى بن عمران (عم)، وورد أن ريحا مدينة الجبارين المذكورة في القرآن.

---

(108) - هو جبل حوران

(109) - تقع الحميمة قرب بلدة القويرة شمالي شرقي العقبة جنوبي المملكة الأردنية الهاشمية حالياً، وهي عاصمة الدعوة العباسية، على حدود الشراة الجنوبية الغربية

(110) - وصفها الإدريسي في نزهة المشتاق بأنها مدينة الغور.

(111) - أريحا هي مدينة فلسطينية تاريخية قديمة، بل تعد المدينة الأقدم في العالم، تقع على الضفة الغربية لنهر الأردن وعند شمال البحر الميت

السواد[112]:

بلد به قرية يقال لها المهيد، ذكروا أن إبراهيم (عم) وُلد بها، وقد ذكرنا مولده فيما تقدم.

البلقا:

بلد به الكهف والرقيم[113]، وعنده مدينة يقال لها عمان بها آثار قديمة ذكروا أنها مدينة دقيانوس، وقيل هي مدينة الجبارين أيضاً والله أعلم. وقد زرنا الكهف والرقيم في بلاد الروم عند مدينة يقال لها أبسس[114]، خرابة بها آثار عجيبة قريبة من أبلستين، وقيل هي مدينة دقيانوس. وبالمغرب موضع يقال له جنان الورد في بر الأندلس به الكهف والرقيم، وبه قوم موتى لا يبلون، كما ذكر أهل الموضع، وذكروا أن طليطلة هي مدينة دقيانوس، والصحيح الذي بالروم، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

بلد مؤاب

به قرية يقال لها شيحان، بها قبر ينزل عليه النور ويراه الناس، وهو على جبل ويزعمون أنه قبر موسى بن عمران (عم) والله أعلم.

صرفة:

قرية بها قبر يزعمون أنه قبر يوشع بن نون (عم)، وقد زرناه فيما تقدم وهذا هو الصحيح.

الطور ومؤتة:

قرى بها قبر جعفر الطيّار بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبر زيد بن حارثة رضي الله عنه، وعبد الله بن رواحة، والحارث بن نعمان، وحنيف بن رياب، وزيد بن الخطاب، وعبد الله بن سهل، وسعد بن عامر بن النعمان القيسي، وابي دُجانة سماك، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم قُتلوا هناك منهم من لا يُعرف قبره والله أعلم.

---

(112) - الجزء الشمالي من الغور ويسمى في بعض المصادر العربية القديمة سواد طبرية

(113) - يقع هذا المزار في قرية الرجيب الأردنية

(114) - هذا تأييد للرواية السريانية التي تقول إن موقع معجزة أهل الكهف في مدينة افسس التي تقع في تركيا الحالية

مدينة طبرية وأعمالها

من شرقي بحيرتها قبر سليمان بن داود (عم)، والصحيح أن سليمان دُفن إلى جانب أبيه داود في بيت لحم، وهما في المغارة التي بها مولد عيسى (عم).

ومن شرقي بحيرة طبرية قبر لُقمان الحكيم وابنه، وقبره أيضاً باليمن بجبل يقال له لاعة عدن، وسيأتي ذكره.

وبطبرية قبر أبي عبيدة بن الجراح وزوجته، وقد زرناه فيما تقدم، والله أعلم بالصحيح، وقيل قبره بالأردن، وقيل قبره في بيسان، ومات في طاعون عمواس[115] والله أعلم.

وفي طبرية قبر أبي هريرة رضي الله عنه، وقيل دُفن بالبقيع وقيل بالعقيق والله أعلم.

وفي طبرية عين من الماء تُنسب إلى عيسى بن مريم (عم)، وكنيسة الشجرة، ولهذا الموضع حكاية عجيبة جرت لعيسى بن مريم (عم) مع الصبّاغ، ذُكرت في الإنجيل، وهي أول معجزة ظهرت منه.

وبظاهر طبرية مشهد به قبر سكينة ابنة الحسين عليها السلام، وقد زرناها فيما تقدم، وبه قبر يقال إنه قبر عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

دير فاخور:

موضع تعمد المسيح من يوحنا المعمداني على الأردن كما ذكروا. وبه قبر كعب بن مرة البهزي، ومعاذ بن جبل، وسيأتي ذكره في رحلة اليمن وديار بكر أيضاً.

اريد [أرْبَل]:

ومن أعمال طبرية قرية يقال لها اريد[116] بها قبر أم موسى بن عمران (عم) عن يمين الطريق، وبها أربعة من أولاد يعقوب وهم دان وإيساخار وزبولون وكاد عليهم السلام.

وفي الطريق إلى بانياس قصر يعقوب وبيت الأحزان وجبّ يوسف (عم)، فأما جبّ يوسف (عم) فالصحيح أنه في طريق القدس عند بلد يقال له سنجيل، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

---

[115] - طاعون عمواس، وباء وقع في الشام في أيام عمر بن الخطاب سنة، 18 هجرية بعد فتح بيت المقدس، و إنما سُمّيَ بـ (طاعون عمواس) نسبة إلى بلدة عمواس في فلسطين بين الرملة و بيت المقدس، و ذلك لأن الطاعون نجم بها اولاً ثم انتشر في بلاد الشام فنُسب إليها.

[116] - الصحيح اربل واربيل، وهي مندثرة اليوم، ويرجح ان موضعها قرب قرية وادي الحمام قرب طبرية

حطين:

ويقال حُطيم قرية بها قبر شعيب وقبر زوجته على الجبل، وقيل قبر شعيب بمكة والله أعلم. وبهذه القرية كانت وقعة حطين المشهورة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة حيث أسرت ملوك الفرنج وفُتح القدس والساحل والعواصم.

الشجرة:

قرية بها قبر صدّيق بن صالح (عم) وقبر دَحية الكلبي في مغارة، وقد تقدم ذكره، ويقال إن هذه المغارة فيها ثمانون شهيداً والله أعلم.

كفر كنة:

قرية بها مقام يونس وقبر ابنه والله أعلم.

رُومة:

قرية من أعمال طبرية، بها قبر يهودا بن يعقوب (عم)، وسيأتي ذكره في رحلة مصر والله أعلم.

حمام طبرية:

التي يقال إنها من عجائب الدنيا، وإنما التي من عجائب الدنيا -ليست هذه التي على باب طبرية على جانب بحيرتها، فإن مثل هذه كثير رأينا في الدنيا- فهو موضع من أعمال طبرية شرقي قرية يقال لها الحسينية في واد[117]، وهو عمارة قديمة قيل عمرها سليمان بن داود (عم)، وهو هيكل يخرج الماء من صدره، وقد كان يخرج من اثني عشر موضعاً وكل عين مخصوصة بمرض من الأمراض، إذا اغتسل منها صاحب ذلك المرض يبرأ بإذن الله تعالى. والماء أشد حرارة يكون وأصفى ما يكون وأعذب وأطيب راحية، وهذا الموضع يقصده أصحاب الأمراض والعاهات والزمنى والرياح فيغتسلون فيه وعيونه تصبّ في موضع كبير حسن يسبح الناس فيه ومنقعته ظاهرة، وما رأينا ما يشاكله إلا الثيرما الذي في حد تخوم القسطنطانية، وسيأتي ذكره في رحلة الروم إن شاء الله تعالى.

مدينة بيسان:

قيل بها جامع يُنسب إلى عمر بن الخطاب، وبها عين الفلوس فهل هي من جملة العيون الأربع.

---

(117) - المقصود الحمة، المعروفة أيضاً في المصادر العربية القديمة باسم حمة جدر.

عدنا إلى ذكر زيارات نواحي طبرية

كفر مندة[118]:

وأيضاً من طريق طبرية إلى مدينة عكة قرية يقال لها كفر مندة، قيل إنها مدين والله أعلم، وقد زرنا مدين شرقي طور سينا، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. وبكفرمندة قبر صفراء زوجة موسى، وبها الجبّ الذي قلع الصخرة من عليه وسقى لهما والصخرة باقية هناك إلى الآن. وبها اثنان من أولاد يعقوب، وقيل هما أشهر ونفتالي والله أعلم.

وعند هذه الأماكن جبل يقال له الطور قيل إن موسى (عم) من هذا الجبل رأى النار، وعليه كان الخطاب، ومن هذه الموضع أرسله الله تعالى إلى فرعون، والله أعلم.

كابُول[119]:

قرية بها اثنان من أولاد يعقوب وهما روبين وشمعون، وسيأتي ذكر شمعون ويهودا في موضع آخر إن شاء الله تعالى. وجميع هذه القرى قريبة بعضها من بعض.

الناصرة:

مدينة بها دار مريم ابنة عمران، ومنها كانت ولهذا يقال نصارى. وجبل ساعير قريب منها، والإشارة في التوراة في حق موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام قوله تعالى: «جاء الله من سينا» يريد مناجاته لموسى على طور سينا، وقوله «وأشرق من ساعير» إشارة إلى ظهور عيسى (عم) من الناصرة، وقوله «واستعلن من جبال فاران» إشارة إلى نبوّة محمّد (عم) إذ عندهم في التوراة جبال فاران وهي جبال الحجاز، والنبي صلى الله عليه وسلم ظهر منها. هذا لفظ التوراة في الجزء العاشر في السفر الخامس.

لد[120]:

بلد به كان المسيح (عم) وبه بيت مريم وللفرنج فيه اعتقاد عظيم.

مدينة عكا:

كان حقها أن تذكر مع زيارات الساحل، وإنما ذكرناها لقربها من هذا الموضع.

بها عين البقر، ذكروا أن البقر خرجت عنها لآدم فحرث عليها. وعلى هذه العين

---

(118) - تبعد حوالي 16 كم شمال غربي مدينة الناصرة

(119) - قرية تقع شرقي عكا وتتبع لها.

(120) - هي مدينة اللد الفلسطينية

مشهد يُنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن الفرنج عملته كنيسة وقعد بها قيم برسم عمارتها وخدمتها، فلما أصبح قال: رأيت شخصاً يقول لي: «أنا علي بن أبي طالب، قل لهم يعيدوا هذا الموضع مسجداً وإلا من أقام به يهلك». فلم يقبلوا كلامه وأقاموا غيره فلمّا أصبح وجدوه ميتاً فتركتها الفرنج مسجداً إلى الآن والله أعلم.

ويقال إن قبر صالح (عم) في قبلة الجامع، والصحيح أن قبر صالح ما ذكرناه أولاً، والله أعلم وقيل قبر صالح بمكة. ويقولون بها قبر عك الذي نسبت إليه ويزعمون أن عك نبي.

ويمرج عكة خلق كثير استشهدوا في الوقائع والحروب المشهورة عليها من سنة خمس وثمانين إلى سنة سبع وثمانين لم تبطل الحروب والرباط ليلاً ونهاراً في هذه المدة.

بيروت:

بها قبر الأوزاعي رحمه الله.

مدينة جبلة:

بها قبر إبراهيم بن أدهم على البحر[121].

عدنا إلى طريق نابلس

به قرية يقال لها اللجون:

بها مقام إبراهيم الخليل (عم).

لاوي:

قرية بها قبر لاوي بن يعقوب (عم).

ظهر الحمار[122]:

قرية بها بنيامين أخو يوسف الصدّيق (عم).

---

[121] - هو مقام لإبراهيم بن ادهم البلخي ويزار حتى الآن، ولكن المرجح ان ضريحه في بلدة بانياس الجولانية، نظراً لأن اتباعه واتباع رفيقه سفيان الثوري قد اتخذوا بانياس مستقراً لهم منذ القرن الثاني الهجري، وهناك ضريح فيه قبر مكتوب عليه إنه ضريح إبراهيم بن ادهم ويزار ايضاً.

[122] - ظهر حمار: قرية بين نابلس وبيسان [معجم البلدان مادة ظهر الحمار]

سبسطين[123]:

وهي فلسطين بها بدن يحيى بن زكريا (عم) وقبر أمه، وقبر اليسع وقد زرنا قبر اليسع في موضع آخر والله أعلم. وبها قبر شداد بن أوس، وبها آثار قديمة.

مدينة نابلس:

ظاهرها مسجد ذكروا أن آدم (عم) سجد في ذلك الموضع. وبها الجبل الذي يعتقد اليهود أن الذبيح كان عليه، وعندهم أن الذبيح إسحاق، وهذا الجبل الذي لليهود فيه اعتقاد عظيم واسمه كريزم [جرزيم] وهو مذكور في التوراة والسامرة تصلي إليه، وبها عين تحت كهف يعتقدون فيها ويزورونها، والسامرة بهذه المدينة كثيرة.

بلاطة:

قرية من أعمال نابلس يزعمون أن النمرود رمى إبراهيم (عم) في النار بهذه القرية، وبها عين الخضر، وبها حقل يوسف الصديق، وقبر يوسف بهذا الموضع عند الشجرة وهو الأصح. وأما النمرود فالصحيح أنه كان بالعراق والموضع الذي رُمي فيه إبراهيم هناك، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

عورتا:

قرية في طريق القدس من نابلس بها مغارة فيها قبر يوشع بن نون، ومفضل بن عم هارون، ويقال بها سبعون نبياً والله أعلم.

سيلون[124]:

قرية بها مسجد السكينة، وبها حجر المائدة أيضاً والصحيح أن المائدة نزلت بكنيسة صهيون وسيأتي ذكرها. وبلغني أن يعقوب (عم) كان ساكناً في سيلون، وأن يوسف منها خرج مع إخوته والجب الذي رُمي فيه بين سنجيل ونابلس، والجب عن يمين الطريق، وهذا أصح ما رُوي، والله أعلم وسنجيل بلد عنده جب يوسف (عم).

زيارات القدس الشريف وما حوله

به قبة الصخرة، وهو موضع عُرج بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبه الصخرة التي عُرج به من عليها وقدمه فيها. وهذه الصخرة رأيتها في زمان الفرنج شمالي هذه

---

(123) - هي سبسطية قرب نابلس وكانت مدينة عظيمة في الفترة الرومانية والبيزنطية

(124) - سيلون قرية جنوبي قريوت من قضاء نابلس

القبة، ودائرها درابزين من الحديد كالبيت، وهي الآن من الجانب القبلي وتحتها دكّة وهي عليها مبنية، والصخرة شبر واف وعلوها مقدار ذراعين، ودائرها يزيد على أربعة أذرع.

وتحت قبة الصخرة مغارة الأرواح، ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها ويُنزل إلى هذه المغارة في أربع عشرة درجة، ويقال إن قبر زكريا (عم) بهذه المغارة والله أعلم.

وقرأت كتابة في سقف هذه القبة ما هذا صورتها: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض﴾.. الآية»، والكتابة بالفص المذهّب. وهذه القبة لها أربعة أبواب ودخلتها في زمان الفرنج سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان قبالة الباب الذي إلى مغارة الأرواح صورة سليمان بن داود (عم) عند التأزير الحديد، وغربيه باب من الرصاص عليه صورة المسيح ذهباً، وهو مرصع بالجوهر.

الباب الشرقي إلى جانب قبة السلسلة وعليه عقد عليه مكتوب اسم القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وسورة الإخلاص وتحميد وتمجيد.

وعلى سائر الأبواب كذلك لم تغيّره الفرنج. وإلى جانب هذه القبة من الشرق قبة السلسلة التي كان يحكم بها سليمان بن داود (عم). وشمالي هذه القبة دار القسوس بها من العمد وعجائب الصنعة ما أذكره عند ذكر الأبنية والآثار إن شاء الله تعالى.

المسجد الأقصى، به محراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم تغيره الفرنج. وقرأت في سقف قبة الأقصى ما هذه صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي باركنا حَوْلَهُ﴾[125] نصر من الله لعبد الله ووليه، أبي الحسن علي الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، أمر بعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم علي بن أحمد أيده الله ونصره، وكمل جميع ذلك إلى سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين وأربع مائة [تشرين الأول سنة1035م]، صنعة عبد الله بن الحسن المصري المزوّق».

وجميع الكتابة والأوراق بالفص المذهب، وجميع ما على الأبواب من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء لم تغيره الفرنج.

وقرأت على صخرة مكتوباً ما هذه صورته: «طول المسجد الأقصى سبعمائة ذراع

---

(125) - سورة الإسراء، الآية رقم 1.

بذراع الملك، وعرضه أربعمائة وخمس وخمسون ذراعاً بذراع الملك». وهذه الصخرة باقية مبنية في حائط شمال الأقصى.

ورواق قبة الصخرة مبني على ست عشرة أسطوانة من الرخام، وعلى ثمانية أركان. والقبة التي داخله مبنية على أربعة أركان، واثني عشر عاموداً، ودائرها ستة عشر شباكاً. والقبة دائرها مائة وستون ذراعاً. ودائر البنية العظمى التي تحوي الجميع ثلاثمائة وأربع وثمانون ذراعاً.

ودائر الجميع مع قبة السلسلة مع ما يلائمه من العمارة أربعمائة واثنتان وثمانون ذراعاً. وعلو الدرابزين الحديد الذي يحوي هذه الصخرة قامتان. وأبواب قبة الصخرة أربعة من الحديد، باب منها إلى باب الرحمة، وباب منها إلى باب جبرئيل، وباب إلى القبلة، وباب إلى قبة السلسلة.

ودائر قبة السلسلة ستون خطوة. ومغارة الأرواح ارتفاعها قامة وبسطة، وسعتها إحدى عشرة خطوة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى القبلة ثلاث عشرة خطوة، ودرجها أربع عشرة درجة، وفي سقفها روزنة من ناحية الشرق سعتها ذراع ونصف، ودائر المغارة خمسون ذراعاً. سعة الرواق خمس عشرة خطوة، طوله من القبلي إلى الشمالي أربع وتسعون خطوة. علو قبة الأقصى ستون ذراعاً، دائرها ستة وتسعون ذراعاً، دائر أسفلها مربعاً مائة وستون ذراعاً، طول الأقصى من القبلة إلى الشمال مائة وثمانٍ وأربعون ذراعاً.

وتحت الأقصى إصطبل كان لدواب سليمان بن داود كما ذكروا، به حجارة هائلة ومعالف الدواب إلى الآن. وهناك مغارة يقال بها مهد عيسى ابن مريم (عم). وشمالي الأقصى بركة بني إسرائيل يقال إن بخت نصر ملأها من رؤوسهم.

وبالقدس كنيسة اليعاقبة[126] بها بئر يقال إن المسيح اغتسل منها، وآمنت السامرية على يده عندها، ويزورونها ويعتقدون بها. وبالقدس برج داود (عم) ومحرابه المذكور في القرآن العزيز.

وبظاهر القدس من الزيارات عين سلوان، ماؤها مثل ماء زمزم وهي تخرج من تحت قبة الصخرة وتظهر بالوادي قبلي البلد. وكنيسة السليق يقال إن المسيح (عم) منها رُفع إلى السماء. وكنيسة صهيون يقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها.

---

[126] - أي لاتباع كنيسة القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح [المونوفيسيين] وهم السريان والأقباط واسم اليعاقبة نسبة للقديس يعقوب البرادعي

وادي جهنم، به قبر مريم أم عيسى عليها السلام يُنزل إليه في ست وثلاثين درجة، وبه من العمد المانع والرخام تحت القبة ستة عشر عاموداً من الرخام، وثمانية حمر وثمانية خضر، وله أربعة أبواب على كل باب ستة عمد من الرخام المانع.

وبه كنيسة، وهي الآن مشهد لإبراهيم الخليل (عم)، وبها من الآثار والعمد شيء كثير وصنعة عجيبة.

وبالجبل مقام رابعة العدوية وقبرها، والصحيح أن قبر رابعة العدوية في البصرة، وسيأتي ذكرها في رحلة العراق، وإنما هذه رابعة التي بالجبل هي زوجة أحمد بن أبي الحواري[127]. وبه مواضع مباركة وقبور كثيرة من الصالحين والتابعين رضي الله عنهم، إلا أنها لا تُعرف لاستيلاء الفرنج على البلاد[128]. وخلف السور من الشرق قبر شداد بن أوس الخزرجي، وذي الأصابع التميمي، وقيل قبر شداد بفلسطين والله أعلم.

وأما زيارات الملة المسيحية، فأعظمها كنيسة قمامة [القيامة] وعمارتها من العجائب المذكورة، ولا بد عند ذكر الآثار نذكر صفة هيكلها وجميع ما فيها.

ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة، وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع، والصحيح أن الموضع كان اسمه قمامة لأنه كان مزيلة للبلد، وكان ظاهر البلد تُقطع به أيدي المفسدين وتُصلب به اللصوص، هذا ذُكر في الإنجيل والله أعلم. ولهم فيها الصخرة التي يزعمون أنها انشقت وقام آدم من تحتها لأنها كانت تحت الصلبوت، بزعمهم، ولهم فيها بستان يوسف الصدّيق (عم) يزورونه. وأما نزول النور فإنني أقمت بالقدس زماناً على عهد الفرنج إلى أن عرفت كيفية عمله.

الطريق من القدس إلى مدينة الخليل (عم)

قبر راحيل أم يوسف الصدّيق (عم) عن يمين الطريق.

بيت لحم:

بلدة بها مولد عيسى (عم) ويقال إن داود وسليمان عليهم السلام قبورهما فيه. وبهذه الكنيسة آثار وعمارة عجيبة من الرخام والفص المذهب والعمد، وتأريخ عمارتها

---

[127] - احد العلماء الزهاد المشهورين والعباد المذكورين والأبرار المشكورين، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتخرج بأبي سليمان الداراني، روى الحديث عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وروى عنه ابو داود وابن ماجة وأبو حاتم الرازي وأبو زرعة الدمشقي وأبو زرعة الرازي توفي سنة 246هـ

[128] - هذا النص يؤكد أن الهروي كتب هذه الفقرة عن القدس قبل تحريرها في عهد صلاح الدين

يزيد على ألف ومائتي سنة، منقور في الخشب لم يتغير إلى زماننا هذا. وبه موضع النخلة المذكورة في القرآن العزيز ﴿هُزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ﴾[129].. الآية. وبه محراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تغيره الفرنج إلى الآن.

حلحول:

قرية بها قبر يونس (عم) وقد زرناه في موضع آخر وسيأتي ذكره.

رامة:

قرية بها مقام إبراهيم الخليل (عم).

كفر بريك:

قرية بها قبر لوط (عم)، وقبر إبراهيم بن أدهم[130]، والصحيح أن إبراهيم بجبلة على ساحل البحر.

ياقين، قرية بها مقام لوط (عم)، وبها كان يسكن بعد رحيله من زُغر. وسُمّيت ياقين لأنه لما سار بأهله ورأى العذاب قد نزل بقومه سجد في هذا الموضع وقال: «أيقنت أن وعد الله حق». والموضع الذي خسف هو اليوم البحيرة المنتنة، وقيل إن الحجر الذي ضربه موسى (عم) (فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً) بزغر والله أعلم.

مدينة الخليل (عم)

بها مغارة فيها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة عليهم السلام، وقيل إن قبر آدم ونوح وسام في هذه المغارة، والمغارة تحت هذه المغارة التي تزار الآن.

وسمعت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الحافظ بثغر الإسكندرية سنة سبعين وخمسمائة جزءاً يرفعه إلى فلان الأدمي شذ عني اسمه، فإن كتبي أخذتها الفرنج نوبة الواقعة بخويلفة لما قصدهم الانكتار ملك الفرنج، ثم أنفذ إلي رسوله ووعدني بإعادة ما أخذه ويضاعفه، وطلب الاجتماع بي فلم أمض إليه وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وأما الجزء فإنه يذكر فيه أن الأدمي قصد زيارة الخليل (عم) وصادق القيم بالموضع، وكان القيم رجلاً رومياً وتقرّب إليه بهدية وطلب النزول إلى المغارة، فوعده عند

---

[129] - سورة مريم، الآية 25

[130] - لعله مقام لهذا الزاهد المشهور.

انقطاع الزوار في زمان الثلج، فلما انقطع الناس أتى به بلاطة فقلعها وأخذ ما يستضي به، ونزلا في درج مقدار سبعين درجة وانتهيا إلى مغارة واسعة كبيرة والهواء يخترق فيها، وبها دكة عليها إبراهيم الخليل (عم) ملقى وعليه ثوب أخضر وشيبته يلعب الهواء بها، وإلى جانبه إسحاق ويعقوب (عم) ثم أتى به إلى حائط في المغارة، فقال له: «إن سارة خلف هذا الحائط». فهمّ الرجل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا بصوت يقول: «إياك والحريم». فعاد من حيث نزلا والله أعلم.

وقرأت في التوراة أن ضيعة الخليل هذه المغارة ابتاعها إبراهيم (عم) من عفرون بن صوحار الحثي بأربعمائة درهم من فضة ودفن سارة فيها. هذا لفظ التوراة في السفر الأول في الجزء الخامس، والله أعلم. وبالخليل قبر يوسف الصدّيق (عم) خارج المغارة والصحيح الذي ذكرناه أولاً.

يقول مؤلف هذا الكتاب عليّ بن أبي بكر الهروي، غفر الله له ولجميع المسلمين: دخلت القدس سنة تسع وستين وخمسمائة، واجتمعت فيه وفي مدينة الخليل (عم) بمشايخ حدثوني أنه لما كان في زمان الملك بردويل، انخسف الموضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام قد بليت أكفانهم، وهم مستندون إلى حائط وعلى رؤوسهم مناديل، ورؤوسهم مكشوفة فجدد الملك أكفانهم ثم سدّ الموضع، وذلك سنة ثلاث عشرة وخمسمائة هجرية.

وحدثني الفارس بيرن كان مقيماً في بيت لحم معروفاً عند الفرنج لرجلته وكبر سنه، أنه دخل مع أبيه إلى هذه المغارة ورأى إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ورؤوسهم مكشوفة فقلتُ: «كم كان عمرك». فقال: «ثلاث عشرة سنة». وقال لي: «إن الفارس جفري ابن جرج كان ممن تقدم الملك إليه ليجدد أكفانهم ويعمر ما انخسف من المغارة وهو في الحياة». فسألت عنه فقيل: «مات منذ أيام».

يقول مؤلف هذا الكتاب: «إن صحّ ذلك رأيت من رأى إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عم) يقظة لا مناماً».

ذكر الطريق من القدس إلى عسقلان

بيت جبرين:

قيل هو البلد الذي ذكره الله عز وجل في سورة المائدة في قصة موسى (عم) ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[131]. وقيل مدينة الجبارين التي أنزل فيها ذلك مدينة ريحا وقيل مدينة عمان وهو الأصح.

وبهذه المدينة آثار قديمة، وفي طريقها إلى عسقلان وداي النمل وقيل به خاطبت النملة لسليمان بن داود (عم).

ثغر عسقلان:

موضع شريف وثغر قليل مثله في البلاد في حسنه وحصانته، وقد ورد فيه والرباط به أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبه بئر إبراهيم الخليل (عم) قيل حفرها بيده والله أعلم. وبه مشهد الحسين رضي الله عنه كان به رأسه فلما أخذتها الفرنج نقلته المسلمون إلى مدينة القاهرة وذلك سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

يقول مؤلف هذا الكتاب علي بن أبي بكر الروي: دخلت ثغر عسقلان سنة سبعين وخمسمائة وبت في مشهد إبراهيم (عم) ورأيت في ذلك الموضع رسول الله في المنام وهو بين جماعة. فسلمت عليه وقبلت يده وقلت: «يا رسول الله ما أحسن هذا الثغر لو أنه للإسلام». فقال: «سيصير للإسلام ويبقى عبرة للأنام».

فاستيقظت وكتبت صورة ما رأيته على حائط المشهد من جانبه القبلي وأرخته، وفتح القدس وعسقلان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهذا الخط قد شاهده خلق من التجار والأجناد، وتأريخه سنة سبعين وخمسمائة والله أعلم.

وبجبانة عسقلان خلق من الأولياء والتابعين لا تعرف قبورهم، وكذلك بغزة وعكا وصور وصيدا وجميع بلاد الساحل.

غزة:

ثغر شريف بها وُلد الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو محمد بن إدريس وبها قبر هاشم بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه عمر. وبها أسر عمر بن الخطاب رضي الله عنه[132]، وهي مدينة قديمة مذكورة في التوراة، والداروم أيضاً والله أعلم.

---

[131] - سورة المائدة الآية رقم21- 22

[132] - هذا الكلام بحاجة إلى توثيق وتخريج

مدينة قيسارية الساحل:

موضع شريف ورد فيه وفي عسقلان والرباط بها أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

يُبنا:

بلد بين يافا وعسقلان بها قبر أبي هريرة رضي الله عنه وزرناه فيما تقدم والله أعلم.

مدينة الرملة:

بها قبر عبادة بن الصامت.

عمواس:

بها خلق كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ماتوا بالطاعون في هذا الموضع. من جملتهم عبد الرحمن بن معاذ بن جبل وأولاده، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وجماعة لا تُعرف قبورهم. وكذلك باليرموك خلق كثير قُتلوا هناك من الصحابة رضي الله عنهم، مثل الطفيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل لا تعرف قبورهم وكذلك بأجندين أيضاً.

عز الدين ابن شداد

سجل مفصل عن فلسطين إلى أيام الظاهر بيبرس

يزودنا عز الدين ابن شداد، أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي[133]، بمعطيات طبوغرافية وتاريخية عن جندي فلسطين والأردن، اللذين يشكلان فلسطين الحالية، ناقصاً منها بعض المدن الحدودية، وذلك في القرن السابع الهجري، غاية في الغنى في مصنفه الضخم (الأعلاق الخطيرة).

ولد ابن شداد في حلب عام 613 هـ 1216-1217م، وشغل منذ شبابه مناصب إدارية لدى الأيوبيين، وكان خبيراً في شؤون الميزانية والمالية، الأمر الذي يظهر بجلاء في كتاباته.

عاش ابن شداد في أزمنة خطيرة، وشارك في أحداث عصره فأسهم في قتال المغول، وهاجر إلى مصر وعاش في كنف السلطانين الظاهر بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون وتوفي في القاهرة عام 684 هـ 1285م.

ترجع شهرة عز الدين ابن شداد إلى مصنفه الضخم «الأعلاق الخطيرة» الذي يضم معلومات طبوغرافية، جغرافية، تاريخية، مرتبة بطريقة تلفت النظر.

يتناول الجزء الأول من كتاب (الأعلاق الخطيرة) منطقة حلب وما يتبع لها في قسمه الأول، ويتناول القسم الثاني قنسرين والثغور وحمص، والقسم الثالث يتعلق بأمراء حلب وهو مفقود.

ويتعلق الجزء الثاني بدمشق وما يتبع لها، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام كسابقه: الأول مخصص لجند دمشق، والقسم الثاني لجندي الأردن وفلسطين، والقسم الثالث مخصص لأمراء دمشق وهو مفقود.

أما الجزء الثالث فمخصص للجزيرة ومقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام.

---

[133] - مقدمة الأعلاق الخطيرة لسامي الدهان، وهو ليس كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي الذي يدعى بهاء الدين ابن شداد.

صدرت لـ(الأعلاق الخطيرة) طبعات ناقصة في الغرب والشرق، ولكن الطبعة العلمية الأولى صدرت عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية، بعناية المستشرق دومينيك سورديل، إذ حقق الجزء الأول عام 1953م، بينما حقق الجزء الثاني الدكتور سامي الدهان وصدر عن المعهد الفرنسي عام 1962م، وهو الذي أخذنا عنه النصوص المتعلقة بفلسطين. أما القسم الثالث المتعلق بالجزيرة فقد حققه الأستاذ يحيى عبارة وصدر عن وزارة الثقافة السورية عام 1978.

في كتاب (الأعلاق الخطيرة) يعيد ابن شداد سرد المعلومات الطوبوغرافية التاريخية حول كُوَر أجناد دمشق والأردن وفلسطين، وهي الأجناد التي كانت تتوزع عليها أراضي فلسطين التي نعرفها اليوم، كما نقرأ سردا (بيبلوغرافياً) مهما لأسماء الملوك والأمراء والنواب، الذين تولوا حكم المدن الفلسطينية منذ الفتوح العمرية وحتى عهد الظاهر بيبرس.

ولكن ما يؤخذ على ابن شداد عدم دقته في الاستنتاجات التي توصل إليها حول بعض المدن والقرى، وهو ما أشرنا إليه في هوامش النص، وكذلك عدم عنايته بإسناد المعلومات إلى مصادرها، ولكن على الرغم من ذلك، يمكن اعتبار هذا الجزء من الكتاب، وثيقة مهمة عن فلسطين في أثناء الحروب الصليبية، وخصوصاً في فترة الأفول الصليبي التي كان شاهداً عليها، ووثقها في نصه أدناه.

في ذكر بلاد جند الأردن ومن ملكها

طبرية، بيسان، بانياس، صفد، هونين وتبنين، شقيف أرنون، شقيف تيرون، كوكب، قلعة الطور، صُوّر، عكا، حيفا.

قال أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح في كتاب البلدان: ولجند الأردن من الكور: طبرية وهي القصبة.

وقَدَس من أجل كورها .

والسّواد .

وبيسان.

ولم يذكر بانياس ولا ذكرها ابن حوقل أيضاً، وكأنها في غالب الظن مُحدثة[134].

هذه الكورة البرية.

فأما كورة البحرية: فصور.

وعكا .

وحيفا .

ولم يذكر ابن أبي يعقوب ولا ابن حوقل حيفا وكأنها محُدثة أيضا .

والله أعلم.

قلتُ: لم يزل الأردن وفلسطين في يد بني أمية ونوابهم إلى أن انقرضت دولتهم، في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وبويع السفاح عبدُ الله بن محمد فهزمه واستولى على بلاد الشام بأسرها في شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وولّى فيها من قبله.

ولم تزل بلادُ جُنديْ الأردن وفلسطين في يد نواب بني العباس، إلى أن وليها عيسى بن الشيخ من قبل المهتدي سنة اثنتين وخمسين ومائتين، فأظهر الخلاف عليه، وتغلب على دمشق في سنة خمس وخمسين.

---

[134] - في الحقيقة ذكرها اليعقوبي ووصفها بأنها مدينة الجولان، وكذلك ابن حوقل الذي رسمها في خريطته الشهيرة، ولكن ما فات ابن شداد انها كانت تتبع جند دمشق وليس جند الأردن

ولم يزل متغلباً إلى أن ولي المُعتمد الخلافة، فبعث إليه أماجور بجيش فأخرجه عن البلاد، واستولى على ما كان بيد أماجور، وولى فلسطين والأردن محمد بن رافع وبقيا في يده إلى أن خرج أحمد بن طولون من مصر وسار إلى الرملة، فتلقاه محمد بن رافع سامعاً مطيعاً فأقرّه على ولايته.

ولم تزل في يده إلى أن توفي أحمد بن طولون، في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وتولّى ولده خُمارويه، فأظهر محمد بن رافع الخلاف عليه. ودعا لأبي العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق فجهز خمارويه محمد بن أحمد الواسطي وسعيداً الأيسر، فقصدا فلسطين والأردن وطردا ابن رافع عنهما.

فوصل المعتمد إلى دمشق. ثم توجه إلى مصر وخرج إليه خمارويه منها، فالتقيا في ذي القعدة على الطواحين من عمل فلسطين الساحل. وهذه الواقعة تعرف بالطواحين فانهزم خمارويه، ثم تراجع، ووقعت الكسرة على المعتمد واستولى خمارويه على الأردن وفلسطين.

ولم تزل في يد نوابه إلى أن قتل بدمشق في ذي القعدة، سنة اثنتين وثمانين ومائتين. وولّي بعده ولداه أبو الجيش، ثم هارون.

ولم يزل الأردن وفلسطين في أيديهما إلى سنة سبع وثمانين. وفيها قصد الشام عليّ بن عبد الله القرمطي واستولى على فلسطين، فسير هارون من قبله عسكراً كسر القرمطي واستولى على الجندين، وولّى فيهما مولاه صوارتكين.

وبقيا في يده إلى أن بعث المكتفي محمد بن سليمان الواثقي، ودخل دمشق. ثم خرج منها وسار إلى الأردن وفلسطين فسلمها له صوارتكين فولى فيهما أحمد بن كيغلغ ثم عاد إلى بغداد.

فاستخلف عليهما أحمد بن كيغلغ يوسف إبراهيم، فقصد القرامطة بلاد الشام واستولوا على الأردن، وقتلوا يوسف وذلك سنة ثلاث وتسعين ومائتين، فقصده عسكر المكتفي فطرده عن البلاد.

وعادت إلى نواب أحمد بن طولون واستمرت في أيديهم إلى أن عقد المقتدر لولده أبي العباس وهو ابن أربع سنين على الشام ومصر، وولى عليهما نيابة عنه مؤنس المظفر وذلك في سنة إحدى وثلاثمائة.

ثم صارت إلى محمد بن طفج الإخشيد في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ولم تزل في يديه إلى أن وصل محمد بن رائق إلى دمشق من قبل الرّاضي سنة سبع وعشرين

وثلاثمائة. ثم خرج منها واستولى على الأردن وفلسطين، فخرج إليه الإخشيد من مصر وهزمه وأسر ولده. ثم تداعيا إلى الهدنة على أن تكون فلسطين للأخشيد مع مصر، ويكون الأردن لمحمد بن رائق.

ولم يزل الأمر فيهما على ذلك إلى أن قتل ابن رائق، فولى المتقي الإخشيد أجناد الشام ومصر.

ودامت ولايتها في يده وفي يد عقبه من بعده إلى أن ملك القائد جوهر مصر، وخرج منها إلى الشام.

وكان إذ ذاك متولياً على دمشق والأردن وفلسطين الحسنُ بن عبد الله ابن طفج. فلما بلغه ذلك خرج إلى الرملة في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فقصده جوهر [الصقلي] وكسره وأسره، واستولى على فلسطين والأردن ودمشق.

ولم تزل في يده إلى أن استولى الحسين القرمطي على الأردن وفلسطين في سنة ستين. وبقيا في يده إلى أن كسر على القاهرة في شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة واستعيدت البلاد.

ولم يزل جندُ الأردن وفلسطين يليهما نواب العبيديين[135] أصحاب مصر، وجرى الأمر على ذلك إلى أن تغلبت الترك على الشام، فتفرقت بلادها في أيدي المستولين عليها.

وهذا الذي سقناه قول مجمل تدعونا الضرورة إلى تفصيله.

فأما بلاد جند الأردن فإن بلادها قسمان كما قلنا فيما حكيناه عن أبي يعقوب: بَرّيّة وبحرية.

طبرية

وقصبته طبرية: قرأت في تاريخ محبوب بن قسطنطين[136] ما صورته: ملك طبياروس قيصر ثلاثاً وعشرين سنة، وكان عمره ثمانياً وسبعين سنة. وفي أول سنة من

(135) - اي الفاطميين، وهي تسمية كانوا يكرهونها، ويقال لهم للتشكيك بانتسابهم إلى آل البيت

(136) - محبوب بن قسطنطين المنبجي: مطران منبج الملكي في القرن العاشر .صاحب «كتاب العنوان» صنفه لعيسى بن الحسن على قسمين :القسم الأول من ادم إلى الملك ثاودسيوس الصغير [ت 439 م]، والقسم الثاني حتى سنة [942م] إلا ان المخطوط الوحيد الباقي يقف عند سنة 767 في عهد المهدي .قال المسعودي: (واحسن كتاب رأيته للملكية، في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي، وكتاب سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراش المصري)

مُلكه عرضت زلازل عظيمة، وسقطت منها مواضع كثيرة. وفي السنة السابعة من ملكه بنى هرودس[137] مدينة، وسماها طبرية على اسم طبياروس الملك.

وهي في سفح جبل مطل على البحيرة المنسوبة إليها، وعليها سور حصين. وبها حمامات تنصب إليها مياه حارّة من حمامات في الشتاء والصيف. ماؤها في أول خروجه يسمط من الجلد ويسلق فيه البيض. ومن خارجها أيضا حمامات يقصدها أرباب العاهات من المجذومين والمجروبين والمفلوجين فيتمالجون بالاستحمام بمائها، فتزول عنهم أوصابهم.

وأما بحيرتها: فطولها اثنا عشر فرسخاً، وعرضها فرسخان. ماؤها حلو، يخرج منه نهر الأردُنّ المعروف بالشريعة، ويصبّ في البحيرة الميتة.

وهذه البحيرة في طرف الغور، لا يعيش فيها حيوان ولهذا سُميت بالميتة، وبعض الناس يسميها بالمنتنة.

ويقال إن موضعها ديار قوم لوط.

طولها: ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها: اثنتان وثلاثون درجة. صاحب ساعة بنائها المريخ، وطالعها الدالي وزحل.

قال البلاذري: افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن عنوة، خلا طبرية، فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم بعد حصار أيام. ثم إنهم نقضوا الصلح في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأمر أبو عبيدة عمرو بن العاص بغزوهم، فسار إليهم في أربعة آلاف، ففتحها على مثل فتح شرحبيل. وقيل بل فتحها شرحبيل ثانية بغير قتال.

لم تزل طبرية في يد من يلي الجند منذ فُتحت إلى أن كانت دولة المستنصر العُبيدي صاحب مصر.

قصدها أتسز بن أوق التركي فملكها، وذلك في سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وبقيت في يده إلى أن قتله تاج الدولة تتش، وأخذ منه دمشق، واستولى على ما كان بيده من البلاد.

ولم تزل في يد ولده شمس الملوك دقاق من بعده إلى أن قصده الفرنج بلاد الشام في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فملكوا القدس وما صاقبها من البلاد. فخرج ظهير الدين طغتكين أتابك شمس الملوك دقاق إلى طبرية، فأخرج منها مصحفاً كان فيها من

---

[137] - بنيت مدينة طبرية في عهد هيرودس انتيباس عام 22م

المصاحف التي سيرها عثمان، رضي الله عنه، إلى الأمصار. وحمله إلى دمشق، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً.

ثم ساروا إليها فملكوها. وبقيت في أيديهم إلى أن وقع ظهير الدين بجرفاس القومص صاحب طبرية في شوال سنة إحدى وخمسمائة، وقرر قحف رأسه، وشرب به الخمر وهو ينظر إليه، وعاش ساعة ثم مات. ولم يملك طغتكين طبرية.

وبَنَت الفرنج في طبرية قلعة، لما ملكوها، على بحيرتها. ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها السلطان الملك الأشرف الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وأقطعها الأمير سعد الدين مبارك بن تميرك، ولم تزل في يده مدة أيام الملك الناصر، وبعده في أيام ولده الملك الأفضل وبعض أيام الدولة العادلية، إلى أن توفي سعد الدين المذكور سنة ثمان وستمائة.

وانتقلت إلى ولده فتح الدين أحمد، فانضم إلى خدمة الملك المعظم شرف الدّين عيسى ابن الملك العادل، فقايضه بصفد وطبرية، تسعين قرية من خبز الصخرة بنابلس والقدس.

واستمرت طبرية في يد نواب الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى أن توفي في ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة. وملكها بعده ولدهُ الناصر داود.

ولم تزل في يده إلى أن خرج الملك الكامل من الديار المصرية فملكها. ولم تزل في يد نُوابه إلى أن توفي في رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، واستولى عليها الملكُ الجواد بحكم النيابة عن الملك العادل ابن الملك الكامل.

ولم تزل في يد الملك الجواد إلى أن قايض دمشق بسنجار وملك الملك الصالح نجم الدين أيوب طبرية، واستمرت في يده إلى أن قبض عليه، وحمل إلى الكرك، وملك الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل دمشق وطبرية. وأعطاها الملك الصالح عماد الدين إسماعيل للفرنج فيما أعطاه من البلاد، في أوائل سنة ثمان وثلاثين وستمائة فعمروها.

ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب عنوة، على يد وزيره ومقدّم جيوشه معين الدين بن الشيخ. وبقيت خراباً وبلادهما في يد الملك الصالح نجم الدين أيوب، إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة.

وملكَ بلادَ طبرية الملك المعظم تورانشاه ولده، فلم تزل في يده، إلى أن قتل في المحرم

سنة ثمان وأربعين وستمائة. وملك دمشق الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن غازي بلادها، والمدينة خراب.

ولم تزل في يد الملك الناصر إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، صالح الكند إسطبل على أن تكون طبرية مناصفة، وكان نُصفها للفرنج ونصفها للملك الناصر. واستمر ذلك إلى انقضاء الدولة الناصرية في صفر سنة ثلاث وخمسين وستمائة. فاستولى عليها التتار فيما استولوا عليه من البلاد. ولم تزل في أيديهم إلى أن كسروا في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة. فاستمرت في يد الفرنج إلى أن ملك السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، خلد الله ملكه، صفد في شوال سنة أربع وستين وستمائة، فاستولى على طبرية وبلادهما. وهي في يده إلى تاريخ وضعنا كتابنا هذا، وهو سنة أربع وسبعين وستمائة. فأمر بعمارتها فعمرت. وجمع إليها أهلها إلى الآن.

بيسان

وهي مدينة الغور. ولها قلعة صغيرة من بناء الفرنج محدثة. يحيط بها الماء من سائر جهاتها، يُعبرُ إليها على جسر.

والغور: مكان غائر في الأرض جداً بين جبلين. فيه قرى وضياع، تخترقها العيون والأنهار والأودية.

وأهله سمر الألوان إلى السواد لحرارته. ولهذا به النخل وقصب السكر، والموز.

وهو على قسمين، على ما حكاه ابن حوقل،: حدٌ منه الأردن إلى أريحا وبَيْسان، فإذا جاوزها كان من حدِّ فلسطين، وهو يمتد مع طول بحيرة طبرية على بيسان حتى ينتهي إلى زغر وارداً إلى البحيرة الميتة، وإذا امتدَّ فيه السائر أداه إلى أيلة.

لم يزل حكم بيسان في الولايات حكم سائر بلاد الأردنّ في الانتقالات، إلى أن استولى عليها الفرنج في سنة اثنتين وتسعين عند استيلائهم على القدس.

ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

واستمرت في يده وأيدي بنيه، على الترتيب الذي تقدّم ذكره، إلى أن استولى عليها التتار فيما استولوا عليه في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وملكها الملك المظفر سيف الدّين قُطُز في رمضان من السنة المذكورة.

وملكها السلطان الملك الظاهر في ذي الحجة من السنة، واستمرت في يده إلى تاريخ وضع هذا الكتاب، وهو سنة أربع وسبعين وستمائة[138].

ثم لما توفي الملك الظاهر في الثامن عشر من المحرّم سنة ست وسبعين، صار إلى ولده السعيد ناصر الدين محمد بركة قان.

فلم يزل في يده إلى أن خرج الملك عنه لأخيه الملك العادل سيف الدين سلامش ليلة الاثنين الثامن من ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين، وولي تدبير ملكه وأتابكية عسكره الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي، فسير إليه نواباً عن الملك العادل.

فلم يزل بأيديهم إلى أن جلس السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي المذكور على تخت الملك، يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر رجب الفرد من سنة ثمان وسبعين، فسير إليه نوابه، فهو بأيديهم إلى الآن.

بانياس

وهي مدينة كورة الجولان. ولها قلعة تسمى الصُبيبة بناها الفرنج بعد الخمسمائة[139]. طولها ثمان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة. وعرضها ثلاث وثلاثون درجة. طالعها برج السنبلة هرة صاحب ساعة بنائها الزهرة.

لم يتصل بعلمي شيء من مبدأ أمرها إلاّ ما قرأته في تاريخ لطيف لأحد بني منقذ، وهو عبد الرحمن بن محمد: أن بانياس سلّمت لينال التاجي، ولم يذكر ممن تسلمها في سنة إحدى وخمسمائة.

ثم إن طنكريد صاحب إنطاكية وصل إلى أطرابلس لمحاكمة بين صاحب أطرابلس وبين صنجيل، في سنة اثنتين وخمسمائة. ثم عاد فنزل على بانياس، والقوتُ فيها قليل جداً، فلم يمانع، فدخلها، ونهبها، ورحل عنها. فخرج إليها ظهير الدين طغتكين، فرم شعثها، وأصلح فاسدها، وولأها الأمير مسعود. فأقام فيها إلى سنة ست وخمسمائة. ثم عزله عنها، وولاّه صور، وأقطعها ولده تاج الملوك بُوري.

ولم تزل في يده إلى أن صانع بها ظهير الدين خواجا بهرام، داعي الباطنية في سنة عشرين وخمسمائة. وكان هذا الرجل في غاية الاستتار والاختفاء، وتغيير الزيّ بحيث

---

[138] - يبدو ان تاليف هذا الكتاب قد تم على مراحل، والدليل اثناء حديثه عن طبرية في حياة بيبرس، وهنا بعد وفاته

[139] - في الحقيقة قلعة الصبيبة القريبة من بانياس بناها الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل ابو بكر بن ايوب، اما قلعة بانياس التي تقع داخل المدينة فقد وردت مصادر تتحدث عن بنائها في الفترة الفاطمية، والصليبيون بنو بعض الأبراج فيها فقط

يطوف البلاد والمعاقل، ولا يعرف أحد شخصه إلى أن حصل في دمشق بتقرير قرره نجم الدين إيغازي بن أرتق مع الأمير ظهير الدين طغتكين أتابك، فأكرم لاتقاء شره وشرّ جماعته. فلما تأكدت بينهما الحرمة التمس من ظهير الدين حصناً يأوي إليه، ومعقلا يحتمي به، ويعتمد عليه فسلم إليه ثغر بانياس.

وما زال به إلى أن خرج بجمعه وحشمه قاصداً حرب أهل وادي التيم. فلقوْه في الطريق، ومقدمهم ضحاك ابن جندل، واقتتلوا فقتل ومنْ معه. وعجّل الله بأرواحهم إلى النار، وأخلى منهم المنازل والديار، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

وبقي في بانياس نائبه إسماعيل فأرسل إلى الفرنج يبذل لهم تسليم الحصن ليأمن بهم. فوصلُوه، وتسلَّموه منه، وأقام تحت أيديهم حتى هلك في أوائل سنة أربع وعشرين. فاستولى عليه الفرنج وبقي في أيديهم، إلى أن سار إليه شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين الأتابك، ونزل عليه يوم الأربعاء الرابع عشر من المحرم سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

وذكر بعض جماعة أن قلعة الصبيبه[140] بُنيت بعد أن ملكها الفرنج سنة أربع وعشرين، وهم الذين أنشؤوها. فملكه [الحصن] عنوة في يومه بعد قتال وحصار.

وبقي في يده إلى أن سلَّمه شهاب الدين محمود بنُ تاج الملوك بوري، لما ملك دمشق لفلك بن فلك صاحب بيت المقدس سنة أربع وثلاثين.

وبقي في يد الفرنج إلى أن ملك الملك العادل نور الدين محمود دمشق في سنة أربعين وخمسمائة فنزل على بانياس، فأخذه في يوم الاثنين مستهلّ ذي الحجة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وبقيت في يده إلى أن مات وانتقلت لولده الصالح إسماعيل.

فلم تزل عليها إلى أن استولى عليها فيما استولى عليه من البلاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فأعطاها ولده الأفضل لما أعطاه الشام.

وبقيت في يده إلى أن استولى عليها الملك العادل عند أخذه دمشق، فأقطعها ولده العزيز عُثمان.

وبقيتْ في يده إلى أن توفي في شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة.

وملك بعده ولدهُ الملك الظاهر. ثم توفيَ في بقية السنة وولي بعده أخوه الملك السعيد.

---

[140] - هنا يخلط ابن شداد بين قلعة بانياس وقلعة الصبيبة، وعلى هذا الخلط بنى المستشرقون ماكس فان برشم، ودوشامب، وغيرهم نظريتهم التي زعموا فيها أن قلعة الصبيبة من بنا ء الصليبيين

وبقيتْ في يده إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل في سابع عشر ذي الحجة سنة أربع وأربعين وستمائة.

ولم تزل في يده إلى أن توفي فخرج الملك السعيد من مصر وتسلم القلعة من غلمان أبيه، وكانوا بها من جهة الملك الصالح.

وبقي فيها إلى أن ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد دمشق، فخاف منه فخرج عن القلعة إلى مصر.

وبقيت في يد نوابه. ثم إنه خرج من مصر، فقبض عليه عسكر السلطان الملك الناصر فحملوه إليه، فحبسه في قلعة البيرة، وبعث إلى القلعة من تسلمها في شهر رمضان سنة تسع وأربعين وستمائة.

وبقيتْ في يده إلى أن انقرضت دولته، واستولى التتر على البلاد في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، فأخرجوا الملك السعيد من البيرة، واحسنوا إليه وأعطوه بانياس.

وبقيت في يده إلى أن كسر الملك المظفر قُطُز التركي المعزي صاحب مصر التتر في رمضان من السنة، وأخذ الملكُ السعيد أسيرا فيمن أخذ من الأسرى، فقتل صبراً[141] فإنه كان على المسلمين أشد من التتر، وكان قد تنصر في هوى زوجة هولاكو، وعلق في صدره صليباً، وكتب عليه: حبيس المسلمين طليق التتر.

وتسلم الملك المظفر بانياس فيما ملك من البلاد وبقيت في يده إلى أن قتل في بقية السنة، وملك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البلاد استولى عليها بعد أن تسلم دمشق في صفر سنة تسع وخمسين وستمائة.

وبقيت في يد نوابه إلى أن خرج، أعز الله نصرته وجعل الملائكة أسرته، في بقية السنة التي ملكها فيها إليها.

فعقد فيها للمولى الأمير الكبير ملك الأمراء بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري مملوكه على بنت بدر الدين صاحب الموصل، وملكه بانياس، فولى فيها من قبله، وذلك في العشر الأول من شوال من السنة، يجتلب دور خيرها. ويجتلب دور ميرها. ويجتني قطاف ريعها. ويجتلي الطاف ريعها. وتلك نعمة يمنها عليه أن عبد له رقاب رعيته. وذلل له صعب الدهر بما أخلص له من طويته. وكيف لا ينيله رتبةً تبعد عن الأطماع منالها. ويُحلهُ منزلة يودّ من في الأفلاك انهم نُزالها، وهو ذو الهمة التي سمت على الهمم. وهمت بمكارم الشيم. وامتاز بها عن أقرانه. وجُعلت علما في برد قرانه.

---

(141) - اي حبس في مكان ولم يقدم له ماء ولا طعام حتى مات

ثم لما توفي الملك الظاهر، وولي الأمر من بعده الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان ولده، صارت إليه بعد وفاة والده في ثامن عشري المحرم من سنة ست وسبعين.

فلم تزل في يده إلى أن خرج الملك عنه لأخيه الملك العادل سيف الدين سلامش، ليلة الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر من سنة ثمان وسبعين.وولي أتابكية الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، سير إليها نواب الملك العادل فلم تزل في أيديهم إلى أن جلس السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون المذكور على تخت الملك، يوم الثلاثاء حادي عشري شهر رجب، من سنة ثمان وسبعين، فسيرٌ إليها نوّابه، واستمرت بأيديهم.

ذكرُ حصون هذا الجند

صفد

كانت أولاً تلاً. وكان على التل قريةً عامرة، تحت برج اليتيم. وما زالتْ في أيدي المسلمين إلى أن استولى عليها الفرنج فيما استولوا عليه من البلاد الشامية، فبناها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

لم تُذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الإسلام.

وهي قلعة حصينة على جبل يحتف به جبال وأوديةٌ. طولها : ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة.

عرضها : اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة.

فتحها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد بالأمان، في الرابع عشر من شوال سنة أربع وثمانين. وأنعم بها على سعد الدين مسعود بن مبارك بن تميرك. فلم تزل في يده إلى أن مات في سنة ثمان وستمائة. وانتقلتْ إلى ولده فتح الدين أحمد.

وبقيت في يده مدةً يسيرة، إلى أن أخذها منه الملك المعظم شرف الدينّ عيسى. وأعطاه سبعين ضيعةً من خبز الصخرة من نابلس والقدس، عوضا عنها وعن طبرية. ثم أعطاه إياها خارجا عن طبرية.

فبقيت في يده إلى سنة ست عشرة وستمائة. فأخذها منه وسلط عليها وعلى قدس يد النقض. وخلط لهما بالعرض. وذلك في سنة سبع عشرة وستمائة.

وسبب أخذها وخرابها : أن الفرنج لما ملكوا دمياط في سنة خمس عشرة، خاف أن يعجز فتحُ الدين عن حفظها من الفرنج.

وبقيت خرابا، وبلادُها في يد منْ يملك دمشق لا يهتم ببنائها ملك، إلى أن أعطاها الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل للفرنج، فيما أعطاهم من البلاد، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

فلمّا ملكوها استدعوا أسرى من المسلمين الذين كانوا في بلاد الفرنج وكانوا ألف نفس، والفرنج دون المائتين فاجتمع الأسرى وعزموا على الوثوب بالفرنج.

ثم إنهم فكّروا أن لا بدّ لهم من ملجأ يلجؤون إليه، ويعتمدون في الذب عنهم عليه. فكتبوا إلى الأمير سيف الدين عليّ ابن قليج النوري وهو إذ ذاك في قلعة عجلون من قبل الملك الناصر داود ليكتب إليه في أن يأمرهم بالوثوب على الفرنج، ويبعث إليهم من يتسلم الحصن، فبعث سيفُ الدين إلى الملك الناصر داود ابن الملك المعظم صاحب الكرك إذ ذاك الكتاب. فلما وقف عليه سيره إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فأرسله إلى الداوية، فلمّا اطلعوا عليه أخذوا الأسرى ودخلوا بهم عكا فذبحوهم عن آخرهم لا جزاه الله خيراً وأعظم لهم أجراً.

فبمثل هذه الحسنات، أي التي حصلت لهم، تُرقم الصحائف، ويستمطر بأكفها سحب اللطائف. ثم عمروها بمساعدة الملك الصالح لهم، ولم تزل في أيديهم إلى أن قصدها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحيّ صاحب الديار المصرية والشامية. ونزل عليهما في الثامن من شهر رمضان سنة أربع وستين. ونقل إليها المجانيق من دمشق، وبانياس، وعجلون، ونصبها، ونصب الستائر من تاريخ النزول إلى الثاني من شوّال.

ووقع الزحف عليها واشتد القتال والحصار، وأخذت عليها النقوبُ من كل الجهات حتى ملكت الباشورة يوم الثلاثاء الخامس عشر من شوال. ونصبت السلالم على القلعة، والسلطان يُباشر القتال بنفسه، ويدخل في النقوب، لا يستظل بخيمة، ولا يجلس لراحة، تقع حجارة المنجنيق من القلعة إلى جانبه، لا يصده ذلك عن غرضه. ولا يمنعه عن القيام بشؤون الجهاد ومفترضه.

فلما تحقق من فيها أن لا ملجأ لهم منه إلاّ إليه أذعنوا بالتسليم. فشرط عليهم أن يسلموها بما فيها، ولا يأخذوا منها شيئاً دقّ ولا جلّ. فأجابوا.

ورفعت على الحصن سناجق السلطان. ووقف بنفسه الكريمة على بابه، حتى يخرج من فيه بمرأى منه.

فلما لم يبق منهم أحد، دخل إليه ملك الأمراء بدر الدين الخزندار، وتسلمه فأطلعه

جماعة من اتباعهم، انهم اخذوا من الحاصل شيئاً كثيراً، فأمر بتفتيشهم، فوجد معهم أشياء نفيسة، فأخذت منهم، وضربت رقابهم صبراً.

ثم رتب السلطان فيها واليا. ورحل عنها في السابع عشر من شوال. وأمر بعمارتها وتحصينها، والزيادة فيها. وحمل إليها الذخائر والسلاح. وجعل فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه، وأقطعهم في بلد إقطاعاً.

وقدّم عليهم الأمير علاء الدين كندغدي. وولى في قلعتها مجد الدين الطوري، وصير نيابته في بلدها إلى الأمير عز الدين أيبك العلائي.

ثم لما توجه مولانا السلطان إلى الشام في جمادى سنة خمس وستين، في خفٍّ من عسكره، استصحب معه أصحاب أصناف الصناعات. وقصد صفد فعمرّ الباشورة، وبنى فيها أبرجة، وأسواقاً، وخانات، وحمامات، فصارت بما أحدثه فيها من أحسن القلاع وأمنعها. وأطيب البقاع وأخصبها.

ولم تزل بيده إلى ان توفي في الثامن عشر من المحرم من سنة ست وسبعين، فصارت إلى ولده الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان. واستمرت في يده الى أن خرج الملك عنه لأخيه الملك العادل سيف الدين سلامش ليلة الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة.

هونين وتبنين

وهما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسمائة وهما بين جبل عوف[142] وبين بانياس وصور، فتحهما السلطان الملك الناصر [صلاح الدين]، رحمه الله.

نزل على تبنين في يوم الأحد الثامن عشر من جُمادى الأولى فنصب عليها المجانيق، وضيق عليهم بالزحف. وكان بها رجال أبطال مُشدّدُون في دينهم، فأعانه الله عليهم. وفتحها يوم الأحد الثامن عشر من الشهر، وأسر منْ بقي بها بعد القتل. وفتح هُنين بعدها بقليل. وأنعم بهما على مجد الدين أحمد، ثم استعادهما منه. وأنعم بهما على الأمير فخر الدين أياس جركس، فولى عليهما مملوكاً له يقال له صارم قايماز.

وظلاً كذلك إلى أن تسلمهما الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق في سنة سبع عشرة وستمائة، وأخربهما، وأقطعهما لأخيه الملك المغيث محمود.

---

(142) - لعله يقصد جبل عاملة وحصل معه سبق قلم لأن جبل عوف يقع في البلقاء شرقي الأردن

واستمرا في يده إلى أن توفي، وملكهما ولدهُ الملك المغيث يوسف. وبقيا في يده إلى أن توفي في أيام الملك الأشرف في حصن كيفا في المحرم سنة ثلاثين وستمائة.

فصارا إليه، وبقيا في يده إلى أن توفي. فصارا إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وبقيا في يده إلى أن أعطاهما للفرنج سير فليت في سنة ثمان وثلاثين وستمائة مع ما أعطاهم من الحصون فملكهما الفرنج، ولم يزالا بأيديهم إلى أن تسلمهما مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في شوال سنة أربع وستين وستمائة. ولم يبق لقلاعهما أثر غير البلاد، فإنها في يده إلى يومنا هذا، وهو تاريخ وضع الكتاب. والله أعلم.

شقيف أرنون

بنته الفرنج. وهو مطل على جبل مطل على بيروت، وصيدا[143]. طوله ثمان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة؛ وعرضه ثلاث وثلاثون درجة.

لم يتصل بعلمي فيما طالعته من الكتب من أمر هذا الحصن إلاّ ما أنا ذاكره: وهو أن ضحاك بنّ جندل رئيس وادي التيم تغلّب عليه، وأخذه من نواب الحافظ عبد المجيد صاحب مصر، يوم الجمعة لستّ بقين من المحرم سنة ثمان وعشرين وخمسمائة فسار إليه شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري فتسلمه.

ولم يزلْ بيد أخيه شهاب الدّين من بعده إلى أن سلّمه لفلك ملك الفرنج، في سنة أربع وثلاثين. ولم يزل بأيدي الفرنج إلى أن فتحه الملك الناصر صلاحُ الدّين يوسف، في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسمائة، فأقطعه الأمير عز الدّين سياروخ.

فلم يزل إلى أن تغير الناصر على عز الدين سياروخ، فأقطعه الأمير فخر الدّين أياس جركس، ثم استعاده الملك الناصر منه لما تغير عليه، ثم أعاده إليه لما رضي عنه. فلمّا صار في يده حصنه، وزاد فيه أبرجه.

ولم يزل في يده إلى أن توفي في سنة ثمان وستمائة، فأقطعه الملك العادل ولده الملك المغيث عمر، ولم يزل في يده إلى أن تُوفي ودفن بسفح قاسيون في تربة أخيه الملك المعظم

---

(143) - يخلط ابن شداد هنا بين شقيف أرنون التي تطل على البقاع الغربي وجبل الشيخ وسهل الحولة والجولان، وبين شقيف تيرون التي تعرف اليوم باسم قلعة نيحا، وتقع في أعالي بلدة نيحا الشوفية التي تعلو 1200 مترا عن سطح البحر، وتربض على قمة شاهقة تطل على مرج بسري أو مرج العواميد وعلى جزين وصيدا وبيروت

شقيقه، حياة والده الملك العادل في سنة ست وستمائة. فصار إلى ولده من بعده الملك المغيث محمود.

ولم يزل بيده إلى أن توفي في المحرم من السنة الثلاثين على حصن كيفا فصار إلى الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق، إذ ذاك، وبقي في يده، إلى أن تُوفي في المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة، فصار إلى الملك الصالح إسماعيل.

وبقي في يده إلى أن أعطاه فيما أعطى من الحصون للفرنج في الهُدنة التي كانت سبباً لإبقاء دمشق في يده في أول سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

ولما أمر نائبه فيه بتسليمه للفرنج أبى وامتنع وقال: والله، لا جعلته في صحيفتي. فسار إليه وضربه حتى قتله، واستأصل ماله، وهو الحاج موسى، وكان أولاً مشارف مطبخ الملك الصالح، فقرب منه وكان واليًا للشقيف من قبله، وكان معه معتمد يقال له الشهاب أحمد الشقيفي.

فلمًا علم من بالحصن أن الملك الصالح قد عزم على تسليمه للداوية، اجمعوا رأيهم على عدم تسليمه للفرنج، وعصوا به، وكاتبوا الملك الناصر داود ابن الملك المعظم صاحب الكرك، فسير عليهم من بعض أصحابه رجلاً يقال له فخر الدين العيداني يصعد إلى القلعة، ونادوا بشعار الملك الناصر صاحب الكرك.

فلمًا تحقق الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل صاح دمشق إذ ذاك حميتهم للمسلمين، وانتصارهم للدّين خرج بعساكره، ونازل الحصن وضايقهم حتى أخذه. وطلبوا الأمان منه، وقالوا: أنت أمَرْتنا أن نُسلمه إلى نُوّاب الداويّة، ونحن فما يحل لنا أن نسلمه للفرنج، ونحنُ نسلمه إليك، وأنت تفعل فيه ما تختار فتسلمه الداويةُ.

ولمّا تسلّموه لم يزل بأيديهم إلى أن قصده مولانا السلطانُ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، فنزل عليه بعد أخذ يافا يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب سنة ست وستين وستمائة. ونصب عليه المجانيق.

واتّفق أن السلطان أتى بقاصد من أهل عكا معه كتب إلى من بالحصن، يهوّنون عليهم أمر العسكر، ويُوصفهم بحفظ أماكن في الحصن يُخشى عليهم منها. فاستدعى السلطان من يكتب بالفرنجي، وأمره أن يكتب كتابا ذكر فيه أمارات هي في الكتاب الذي وقف عليه. وحذر الكمندور صاحب الحصن من وزيره، وكتاباً آخر إلى الوزير يحذره من الكمندور، وأوصل الكتابين إليهما بحيلة. فحين وقفا على كتابيهما وقع الخلف بينهما، والحصار مع ذلك ملازم لهم. وألجأهم الخلف إلى أن راسلوا، وقرروا معه تسليم الحصن،

بشرط أن يبقى عليهم نفوسهم. فأجابهم إلى ذلك، وتسلم الحصن يوم الأحد التاسع عشر من رجب، واصطنع الكمندور المذكور.

ورتب فيه عسكراً، ورحل عنه في العاشر من شعبان، وكانت عدة من بالشقيف أربعمائة وثمانين رجلاً واثنين وعشرين أخا من الداوية. وحملهم السلطان على الجمال إلى صور، وسير معهم من يحفظهم.

شقيف تيرون

حكمه حكم شقيف أرنون. لم يزل في يد مَنْ ملك شقيف أرنون إلى أن تسلمه الفرنج فيما تسلموه من الملك الصالح إسماعيل في أوائل سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة.

فلم يزل في أيديهم إلى أن ملك الملك الناصر صلاح الدّين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب حلب، دمشق، في ربيع الأول من سنة ثمان وأربعين وستمائة. فسير عسكر مقدمة سعد الدين بن نزار متولي صيدا فنزل عليه، وانتزعه من يد الفرنج.

ولم يزل في يد نواب الملك الناصر المذكور إلى أن خرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين، واستولى التتار على دمشق، فقصده شهاب الدين بن بُحْتر[144] من قبل التتر، ونزل عليه، وضايقه بالرجال فسلمه الوالي إليه، وأخربه.

ولم يزال خراباً إلى أن ملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس دمشق في صفر سنة تسع. فأمر بعمارته وحمل إليه زردخاناه[145] وذخائر.

وهو في يده إلى حين وضع هذا التاريخ.

كوكب

طولها ثمان وخمسون درجة. وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. وهي كما قال الاصفهاني: راسية، راسخة، شماء، شامخة.

قصدها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فنازلها بالعدة والعديد، والأيد المتيد، والبطش الشديد. فلما رأى من فيها من الفرنج أن لا طاقة لهم بمزايلته. ولا دفع

---

[144] - بنو بحتر هم الأمراء التنوخيون الذين كانوا يحكمون جبل لبنان في عهد المماليك، ويبدو أن هذا الأمير قد تحالف مع التتار في أثناء غزوهم لبلاد الشام شأنه شأن الكثير من الحكام والزعماء التقليديين

[145] - الزَّرْدَخَاناه: (السلاح خاناه) ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع والزرد وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع وغيرها (صبح الأعشى 11/4).

لمنازلته. أذعنوا إلى الأمان. فتسلمها في منتصف ذي القعدة سنة أربع وثمانين. وأنعم بها على الأمير صارم الدّين قايماز النجمي.

وبقيت في يده إلى أن مات في أيام العادل، فأقطعها عز الدين أسامة. ولم تزل في يده إلى أن قبض العادل، سنة سبع وستمائة، وأقطعها ولده الملك المعظم. وبقيت في يده إلى أن أخربها لما خرب صفد والقدس خوفا عليها من الفرنج.

ولم تعمر بعد.

قلعةُ الطور

طولها: ثمان وسبعون درجة وخمس وعشرون دقيقة. وعرضها: اثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة.

انشأها الملك العادل سيف الدّين أبو بكر محمد بن أيوب على جبل الطور منيعةً حصينةً، فقصدها الفرنج لمأ تبعوا الملك العادل سنة أربع عشرة ونازلوها، وحاصروها، ونصبوا عليها المجانيق، وبها الأمير بدرُ الدّين محمد بن أبي القاسم الكردي الهكّاري مُركز. فلما نزل الفرنج عليها نزل إليهم وقاتلهم، فطعن منهم فارساً، وطعنه الفارس فماتا معاً.

ثم إنهم عجزوا عنها فرحلوا، وخرّبها الملك العادل بعد ذلك.

ذكر ما في جند بلاد الأردن من البلاد الساحلية

صور

منها صُور وهي مدينة حسنة حصينة، يحف البحر منها بثلاث جهات. ولها ربضٌ يُعمل فيه الزجاج الُمحكم، والفخار.

قال البلاذري: فتح شرحبيل عكًا، وصُور، وصفوريّة. وقال أيضا: إن أبا عبيدة وجه عمرو بن العاص إلى سواحل الأردن، فكسرتهم الروم، وجاءتهم المدد من ناحية هرقل، فكتب عمرو إلى أبي عبيدة يستمده، فوجه أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان، وعلى مقدمته معاوية أخوه، ففتح يزيد وعمرو سواحل الأردن: صور وعكا.

وفي سنة اثنتين وأربعين: نقل معاوية من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن: صور وعكا. ورمّهما عند ركوبه إلى قبرس، ثم إن عبد الملك بن مروان جدّدهما، وقد كانتا خربتا.

ولم تزل في صور، على ما حكيناه، من تنقل ولايات جُند الأردن في أيدي الولاة إلى أن ملك العُبيديون مصر ودمشق، وما بينهما من البلاد، فولّوا في الثغور ولاة من جهتهم، وأقطعوها من الأعمال، ورتبوا فيها غزاةً براً وبحراً.

وجرى الأمر في صور على ذلك.

فلما كانت سنة سبع وثمانين عصى أهلها على الحاكم، وقتلوا أصحابه فيها، وولّوا عليهم رجلاً ملاحاً من البحرية يعرف بعلاّقة. فندب إليهم أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة و ياقوت الخادم وجماعة من عبيد الشرا. وسير في البحر قطائع مشحونة بالرجال والعدد، وأمر أهل أطرابلس و صيدا بالمسير إليها، فاجتمع الروم، وكتب إليه يستنجده، فانفذ إليه أسطولاً مشحوناً بالمقاتلة. ووقع القتال بين الفريقين، فهزم الله فريق الفرنج، فأخذت أكثر مراكبهم. وفُتحت أكثر مراكبهم. وفُتحت البلد عنوة، ونُهبت، وأسر علاقة وجماعة من أصحابه، وحُمل إلى مصر فسُلخ حيا وحُشي جلده تبنا، وصُلب، وقُتل أصحابه صبراً.

ووليّ صور أبو عبد الله الحسين بن حمدان. وجرى الأمر في النّواب، علي ما حكيناه، إلى أن تغلب عليها قاضيها عينُ الدُولة ابن عقيل. وعصى فيها واستبدّ بها، وخلع طاعة المستنصر. وذلك في سنة خمسين وأربعمائة، فسيرّ إليه من مصر أمير الجيوش بدر المستنصري. فحاصر صور وضايقها، فاستنجد عين الدولة قُرلو التركي فرحًل بدراً عنها بعد أن أشرف على أخذها. واستمرت في يد عين الدولة، إلى أن مات في سنة خمس وستين.

وتولى بعده ولده نفيس ومعه أخواه، وأصروا على العصيان، إلى أن خرج عسكر من مصر في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة إلى صور ومقدمه منير الدولة الجيوشي فعجز أولاد عين الدولة عن مدافعته وممانعته، فسلّموها له، وتولاّها.

ولم تزل في يده إلى أن عصى فيها على المُستعلي، فجهز إليه منْ مصر عسكراً، وكان أهل صور قد كرهوا خلفه وعصيانه، فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش، فهاجم العسكر البلد، وأسروا منير الدولة وخلقاً ممن تابعه على العصيان. وحُملوا إلى مصر في اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ست وثمانين وأربعمائة، فضُربت رقابُهم، ولم يعف عن أحد منهم، وقُطع على أهل البلد ستّون ألف دينار جناية.

ووليّ فيها رجلٌ يعرف بالكتيلة فأقام فيها إلى أن عصى بها على المستعلي سنة

تسعين. فخرج إليه عسكرٌ من مصر في أول شهر رمضان، فنزل عليها، وحاصرها حتى فتحها عنوة، وقتل خلقاً من أهلها، وأخذ كُتيلة أسيراً، وحُمل إلى مصر، وقتل بها، ووُلي بصورة والٍ.

ولم تزل في أيديهم إلى أن بلغ واليها عز الملك أنوشتكين عزم بغدوين على قصد صور، فبادر بمراسلة أتابك ظهير الدّين طغتكن أمير دمشق يستصرخه ويستنجده، ويبذل له تسليم البلد إليه، وسأله المبادرة والتعجيل، فبادر ظهير الدين بانفاذ عسكر من الأتراك إلى صور وأردفهم بخلق من العرب.

فلما بلغ بغدوين اتفاقُ عزّ الملك وظهير الدّين بادر إليها، ونزل عليها في الخامس والعشرين من جُمادي الأول سنة خمس وخمسمائة. وقطع شجرها ونخلها، وبنى بيوتاً للإقامة عليها، وقاتلها دفعات لم يقض في واحدة منها وطراً.

فلما بلغ ظهير الدّين نزول بغدوين على صُور خرجَ من دمشق، وشن الغارات في البلاد التي في يد الفرنج، فقتل وأسر وأحرق. وعمل الفرنج على صُور برجين وزحفوا بهما عليها؛ طول الصغير منهما نيف وأربعون ذراعاً، والكبير أكثر من خمسين. فخرج أهل صور بالنفط والحطب، وألقوه قريبا من البُرج الصغير لعدم تمكنهم من إيصال ذلك إليه. فهبت ريح، فألقت النار على البُرج فأحرقته، واشتدّ بينهما القتال، وعجز الفرنج عنها فرحلوا ورحل طغتكين إلى دمشق.

ثم عاد وعزم بغدوين على منازلة صور في سنة ست، فبلغ ذلك عزّ الملك فأجمع وأهل البلد على مكاتبة طغتكين بتسليمها إليه، وأرسلوا إلى الأمير سيف الدين مسعود متولّي بانياس من قبل ظهير الدّين، وسألوه أن يتحدث لهم مع ظهير الدّين في نصرتهم وتسلم البلد منهم، فوصل مسعود إلى دمشق، ولم يكن بها ظهير الدّين، فتحدّث مع ولده تاج الملوك بوري في انتهاز الفرصة في تسلم صور.

وكتب إلى أبيه، وكان بحماة، في ذلك فولى مسعوداً صور، وأقطع بانياس تاج الملوك ولده، وسيرّ جماعةً وافرة من الأتراك. فتوجه بهم مسعود إلى صور تقوية لها، وطّيب نفوس أهلها، وأجروا على الرسم في السكة والخطبة للآمر بأحكام الله.

وكتب ظهير الدين إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر، يُعلمه: أن بغدوين قد جمع، وحشد للنزول على صُور، وأن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني نصرتهم، فلم يمكنّي إلا متابعتهم ومطاوعتهم، حماية للدين، ورعاية المسلمين. ومتى وصل اليها من جهتكم من ينصرها، ويذب عنها، سلمتها إليه، وأخرجت نُوّابي عنها.

فوصل إليها من مصر فيه غلة ورجال وسلاح، ورسولٌ يشكر للأتابك فعله وهو بدر بن أبي الطيب الدمشقي الذي كان بأطرابلس والياً، فزال طمع الفرنج عنها، وطالبوا الموادعة من أتابك، فوادعهم، واستقرت في يد مسعود إلى سنة ست عشرة.

وفيها وصل من مصر أسطول مشحون بالرجال والغلات، فلما عزموا على الرجوع، خرج مسعود لتوديعهم فقبضوا، عليه، وحملوه إلى مصر.

وكان سبب القبض: أن عزّ الملك تتابعت كتبه بما يعتمد مسعود مع الرعية من الأضرار بهم والمخالفة للعادة الموافقة لهم. ولما وصل إلى مصر أكرم.

فلما بلغ الفرنج رجوعها طمعوا فيها، فأخذوا في التأهب لقصدها. فكتب من فيها إلى الآمر فخرج أمره بردّ ولايتها إلى ظهير الدين طغتكين، وكتب له منشور بالولاية، فندب إليها ظهير الدين قوماً لا كفاية لهم، فازداد طمع الفرنج فيها، فنازلوها في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضايقوها الى أن قلّت الأقواتُ بها.

وخرج ظهيرُ الدين من دمشق بعسكره إلى بانياس، وكتب إلى مصر يسأل من أميرها معونة بمراكب في البحر، فلم يُحبه إلى ذلك. فلما علم ظهيرُ الدين عجزه عن دفع الفرنج عنها، ووقع في نفسه اليأس منها، راسل الفرنج بالترغيب والترهيب إلى أن استقر الحال بينه وبينهم أن يسلمها لهم بحيث يؤمن جميع من فيها؛ ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية بما يقدرون عليه من أموالهم ويقيم من أراد الإقامة.

ووقف ظهيرُ في عسكره بإزاء الفرنج، وأذن للناس في الخروج، فحمل كل منهم ما أطاق حمله من ماله وأثاثه، ولم يتعرض لأحد منهم بأذى. ولم يبق بها إلا من عجز عن الخروج. وتسلمها الفرنج في اليوم الثالث والعشرين من جُمادى الأولى من السنة.

وبقيت في أيديهم إلى أن قصدها الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ونزل عليها في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وقاتلها، وضايقها براً وبحراً، إلى أن هجم عليه الشتاء وتراكمت الأمطار، وترادفت بعوثها من سائر الأقطار، فرحل عنها على نية العود إليها.

ودامتْ في أيديهم إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب. فالله تعالى يؤيد الملة الإسلامية بنصر من عنده وينزل الكفار من صياصيهم. ويمكن أيدي فتكاتها من نواصيهم ويستأصل بسيوف عزماتها شأفةَ أديانهم وأقاصيهم.

عكا

ويقال فيها عكة أيضا طولها : سبع وستون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة. وهي مدينة واسعة الأرجاء، كثيرة الضياع، ولها مرسى مأمون.

وهي في عصرنا قفل بلاد الساحل، وقصبة ما فيه من الحصون والمعاقل، قد تقدم لنا فتحها عند ذكرنا صُور.

ثم قال البلاذري، بعد الكلام الذي أوردناه هناك،: لما كانت سنة تسع وأربعين، خرجت الروم إلى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط. فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا، ورتبهم في عكا، وعمل بها دار الصناعة، فلما ولي هشام بن عبد الملك نقل الصناعة إلى صور.

ثم لما كانت سنة سبع وأربعين ومائتين، أمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل، وشحنها بالمقاتلة.

ولم تزل في يد من يلي جُند الأردن، على ما قدمناه من العذر في الإجماع، إلى أن ملك المصريون، وأجروا البلاد الساحلية، على القاعدة التي حكيناها عنهم.

فلما كانت سنة أربع وستين وأربعمائة، قصدها أتسز بن أوق التركي، فملكها، فخرج إليها أمير الجيوش بدر المستنصري، من مصر، في سنة خمس، فحاصرها حتى استولى عليها، وأخرج نُواب أتسز منها، وأقام بها والياً عليها الى سنة ست وستين.

فاستدعاه المستنصر إلى مصر، وولاه تدبير دولته، فولى فيه من قبله، وترك أمواله وحريمه فيها، فسيَّر أتسزُ منكلي التركي، فحاصرها حتى افتتحها، وقتل الوالي الذي كان بها، وأحسن إلى حريم أمير الجيوش، ولم يتعرض لماله.

فلما ملكها سيَّر أتسز إلى عكا والياً من قبله، فلم يجب منكلي إلى تسليمها إليه، وقال: أنا أخذت هذه المدينة بسيفي. فنازعه الوالي فقتله، وخلع طاعة أتسز. وخرج إلى طبرية، فولى عليها من قبله، فقصده أتسز في بقية السنة، والتقى به على طبرية فهزم عسكره وقتله.

وكان أبو منكلي نائبا عنه بعكا، لما خرج عنها، فأخذ حريم أمير الجيوش وأمواله، وركب في البحر وسار إلى أمير الجيوش بمصر، فأقبل عليه، وولاه عكا إلى أن عصى فيها سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فخرج إليه نصير الدولة الجيوشي، فحاصره وضايقه، إلى أن تسلمها منه، وولّي فيها ...

ولم تزل بعدُ في أيدي العبيديين، إلى أن نزل عليها بغدوين صاحب البيت المقدس، وبها زهر الدولة نبا الجيوش، نائباً عليها، في عسكر كثيرا، براً وبحراً، فقاتلها إلى أن عجز أهلها عن حمايتها. وخرج عنها واليها، وانفذ يلتمس الأمان له ولأهل عكا لإياسه من وصول نجدة أو معونة من مصر، فلم يجبه بغدوين لما رأى من عجزهم وضعفهم، وجدّ في قتالها حتى أخذها عنوة في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، في أيام الأمر.

وبقيت في يد الفرنج إلى أن قصدها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد كسرة الفرنج على حطين وأسر ملوكهم، ونزلها يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها حتى أخذها عنوة، واستنقذ من كان فيها من أسراء المسلمين، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفس، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر.

وبقيتْ في يده إلى أن قصدها الفرنج، ونازلوها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جموع كثيرة.

فسار إليهم صلاح الدين، وواقعهم عليها وقائع لم يمكنه في شيء منها دفعهم عنها. وتتابع قتالهم إلى أن دخلوها على حين غفلة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين.

وبقيت في أيديهم بعد إلى عصرنا، الذي وضعنا فيه هذا الكتاب، يسرّ الله فتحها، وسنى للملة الإسلامية نُجحها.

حيفا

وهي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل.

ما زالت على القاعدة التي قررناها في الولايات والانتقالات في أيدي المسلمين، إلى أن نازلها الفرنج في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وحاصروها، وضايقوها. فبينما هُم ليلةً إذ سمعوا فيها صيحة عظيمة. فلما أصبح الصباح فتح من فيها أبوابها وخرجوا بالسلاح، وقاتلوا من عليها من الفرنج، حتى قتلوا عن آخرهم. ودخل الفرنج المدينة فوجدوهم قد قتلوا أولادهم ونساءهم.

ولم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين.

فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة، التي وقعت بينه وبينهم، وذلك في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولم تزل بَعدُ في أيديهم.

في ذكر بلاد جند فلسطين

الرملة، القدس، الخليل، نابلس، قيسارية، أرسوف، يافا، عسقلان، غزة

الرملة واللد

قال هشام بن محمد الكلبي: سمّيت فلسطين بفلسطين بن كسلوخيم من بني يافث بن نوح.

وكانت قصبته أولاً لدّ. ولم تزال على هذا الشأن إلى أن ولى الوليد بن عبد الملك أخاه سليمان جند فلسطين، فنزل لُد، ثم أحدث مدينة الرملة، ومصرها، واختط مسجدها. وكان في موضعها رملة.

فبقي على المدينة اسمها، وصارت القصبة وخربت لُدّ.

طولها: ستّ وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة. وعرضها: أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة.

طالعها برج النور. صاحب ساعة بنائها عطارد.

لم تزل الرملة مذ مصرت عامرة الأسواق. ودارّة الأرزاق. ينتابها السفّار. ويحط بها التجار. إلى أن جاءتها زلزلة، في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وأربعمائة هدمت دورها، وشقّت سؤرها، وعفت الآثار. وأطلعت الماء من الآبار. وانشقت منها صخرة بيت المقدس والتأمت. فانتقلت أكثر أهل الرملة بعدُ إلى إيليا [القدس] فعمروها، ومصروها.

ولم تزل الرملة تنتقل في أيدي الولاة بتنقل الجنّد منذ فتحت إلى أن صارت في أيدي العبيديين.

ولم تزل في أيديهم إلى أن خرج مفرج ابن الجراح على العزيز وخلع طاعته، في سنة إحدى وستين وثلاثمائة وتغلب على فلسطين وبلاده.

وبقيت في يده إلى أن خرج إليه من مصر بلتكين التركي فأخرجه من الرملة، ولم تزل بعد في أيدي العبيدين إلى أن قصده أتسز بن أوق التركي في سنة ثلاث وستين وأربعمائة إلى الرملة، فملكها وولى فيها.

ولم تزل في يده إلى أن خرج إليه نصير الدولة بعسكر من مصر، فاستعادها وقصد دمشق مُحاصراً لها، فحاصره فيها، فاستنجد بتاج الدولة تتش صاحب حلب يومئذ، فسار إليه، فلما بلغ نصير الدولة مسيره رحل عن دمشق، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

ثم أن تاج الدولة قتل أتسز وملك دمشق وسار إلى الرُملة، فملكها وولى فيها.

ولم تزل في يده إلى أن قصدها عسكر من مصر مقدمه منير الدولة، فاستعادها في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة. ولم تزل في أيديهم إلى أن حاصرها الفرنج، وأخذوها في سنة إحدى وتسعين.

ولم تزل في أيديهم إلى أن ملكها وملك معها لُدّ الملك الناصرُ صلاح الدين، يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ولم تزل في يده إلى أن وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين، فنزل لهم عن بلادٍ، وجعل لد والرملة بينه وبينهم مناصفة.

ولم تزل على ذلك أيام العزيز، والأفضل، والعادل، والمعظم، والكامل، إلى أن ملك ولده العادل، فنقضوا هذه المناصفة، وتغلبوا عليهما.

وبقيتا في أيديهم إلى أن فتحها مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدّين بيبرس الصالحي، في سنة أربع وستين، فعمر الرملة وصير لها عملاً وولى فيها عاملاً وقاضيا، وقواها وصيرها مصراً، وجمع إليها الناس من كل قطرٍ، وأسكنهم فيها، وأنزلهم في نواحيها.

إيلياء

وهي مدينة بيت المقدس مبدأ بنائه. قرأت في كتاب الكامل في التاريخ: قيل: أصاب الناس في زمن داود عليه السلام طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس. وكان يرى الملائكة تعرج منه إلى السماء فلهذا قصده ليدعوه فيه. فلما وقف موضع الصخرة دعا الله تعالى في كشف الطاعون فاستجاب له فاتخذ ذلك الموضع مسجداً. وكان الشروع في بنائه لإحدى عشرة سنة خلت من ملكه. وتوفي قبل أن يتم بناؤه. وأوصى ولده سليمان بإتمامه وقتل القائد الذي قتل أخاه ايشا بن داود. فلما توفي ودفن تقدّم لإنفاذ أمره، فقتل القائد، واستلم بناء المسجد، فبناه بالرخام، وزخرفه بالذهب ورصعه بالجواهر، قوي على ذلك جميعه بالجنّ والشياطين.

فلما تم بناؤه اتخذ يوم الفراغ منه عيداً عظيماً وقرب قربانا فتقبله الله منه.

وقيل: إن سليمان هو الذي ابتدأ بعمارته. وكان داود أراد أن يبنيه. فأوحى الله إليه أن هذا البيت مقدس. وانك قد صبغت يدك بالدماء فلست بانيه.ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء فلما ملك سليمان بناه.

وقرأت في كتاب الأخبار الطوال تأليف أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، رحمه الله: كان داود عليه السلام ابتدأ بعمارة بيت المقدس، فتوفي قبل إتمامه فاستتمه سليمان، واتم بناء مدينة إيليا[146]. وكان أبوه ابتدأها قبله. وبنى المسجد بناء لم يرى الناس مثله. وكان يضيء في ظلمة الليل الحندس إضاءة السراج الزاهر، لكثرة ما جعل فيه من الذهب والجواهر. وفرغ منه في سبع سنين. وجعل اليوم الذي فرغ منه عيداً في كل سنة.

وقرأت في تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجي[147] قال: مكتوب أن بعد ما خرج نوح من السفينة بزمان قبل أن سكن إبراهيم في أرض الموعد، من بلاد الشام، بنى ملكزدق[148] الحبر على قبر آدم بيت المقدس. وأن الله، تبارك وتعالى، خصه، وعرفه، مكان قبر آدم عليه السلام.

وعن كعب قال: بنى سليمان بيت المقدس على أساسٍ قديم كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم قال: والأساس القديم الذي كان لبيت المقدس أسسه سام بن نوح. ثم بناه داود وسليمان، عليهما السلام، على ذلك الأساس.

لمعة من فضائله :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من زار بيت المقدس محتسباً لله عزّ وجلّ حرم الله لحمه وجسمه على النار.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إنما الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدكم هذا، ومسجد ايليا.

وعن كعب قال: إن الله عز وجلّ ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين. وعن ابن حليس أن عبد الملك سأل نوفاً البكالي هل سمعت في بيت المقدس شيئاً؟ قال نوف: في كتاب الله عز وجل المنزّل أن الله عز وجل يقول: فيك ستّ خصالٍ، فيك مقامي، وحسبي، ومحشري، وجنتي، وناري، وميزاني.

---

[146] - اسم إيليا لم يكن قد ظهر في زمن سليمان فهو اسم روماني (إيليا كابيتولينا).

[147] - سبق التعريف به

[148] - ورد اسم هذا الملك في التوراة بلفظ ملكي صادق

وعن وهب بن منبه: قال أهل بيت المقدس جيرانّ الله عز وجل. وحق على الله تعالى أن لا يعذب جاره.

وعن كعب قال: لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس، فينقادا إلى الجنة جميعاً وفيهما أهلوهما.

وعن عبد الملك الجزري أنه قال: إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية. وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية. وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط كان بيت المقدس في رخاء وعافية.

وقال خالد بن معدان: مقبور بيت المقدس لا يعذب.

فضل الصخرة

عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة.

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: لما فتح عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بيت المقدس وجد على الصخرة زبلاً كثيرا مما طرحه الروم غيظاً لبني إسرائيل، فبسط عُمر رداءه، وجعل يكنس ذلك الزبل، وجعل المسلمون يكنسون معه.

وعن شيخ من ولد شدّاد بن أوس عن أبيه عن جده قال: فتقدّم عمر، رضي الله عنه، حتى ملأ أسفل ثوبه من المزبلة التي كانت في بيت المقدس، فحمل وحملنا في ثيابنا مثل ما حمل حتى ألقيناه في الوادي.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل، عليه السلام، إلى قبر إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقال: انزلْ فصل ها هنا ركعتين فإن ها هُنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مرّ بي ببيت لحم، فقال: انزلْ فصلّ ها هنا ركعتين فانْ ها هنا ولد أخوك عيسى. ثم أتي بي إلى الصخرة فقال: من ها هُنا عرج أمر ربك إلى السماء، فالهمني الله عزّ وجلّ أن قُلت: نحن بموضع عرج منه أمر ربي فصليت بالنبيين، ثم عرج بي إلى السّماء.

ذكر خراب بيت المقدس بعد بنائه

اختلف العلماء في السبب المقتضي لخرابه، وفي أي زمان خرب ومن أخربه اختلافاً كثيراً، ملخصه: أنه خرب مرتين فُسر بهذا القول، قوله تعالى: ﴿وقَضَيْنا إلى بَني إسرَائيلَ في الكِتَاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مَرّتَيْن وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كبيراً. فإذَا جَاء وَعْدُ أولاَهُما بَعَثْنا عَلَيْكم عِباداً

لنا أولي بَأسٍ شَديد فَجَاسُوا خِلاَلَ الدّيَار وكان وَعْداً مَفْعُولاً. ثُم رَدَدْنا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِم وَأمْدَدْناكم بِأمْوالٍ وَبَنِين وجعلناكُم أكثر نَفيرا. إن أحْسَنْتُمْ أحْسَنْتُم لأنْفُسكُمْ وَإنْ أسَأتُمْ فَلَها فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرة لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُم وَلِيدْخُلُوا المَسْجدَ كما دَخَلُوه أولَ مرةٍ وليُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً. عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكم وإن عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً﴾[149].

المرة الأولى:

خربه بخت نصر. ويقال فيه بخت ناصر. وسببُ خرابه له مختلف فيه. فقال قوم: قتل بني إسرائيل يحيى بن زكريا. والمحققون من أصحاب التواريخ والسير يدفعون هذا القول وينكرونه، فإنَّ بخت نصر عندهم غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا في عهد أرميا بن حلقيا. وبين عهد أرميا وقتل يحيى أربعمائة وإحدى وستون سنة عند اليهود والنصارى. ويزعمون أن ذلك في كتبهم وأسفارهم. وأن الذي أخذ بثأر جرواش. وهي المرة الأخيرة.

ويُقال: إن الذي استعمله بهمن بن بشتاسب ابن لهراسب. وكان بخت نصر خدم جده وأباه، وخدمه أيضاً. وعمّر طويلاً. فأرسل بهمن رسلاً إلى ملك بني إسرائيل بالبيت المقدس فقتلهم الإسرائيلي.

فغضب بهمن من ذلك واستعمل بخت نصر على إقليم بابل. وسيره في الجنود الكثيرة فأوقع بهم.

وحكى أبو حنيفة الدينوريّ في كتاب الأخبار الطّوال شيئاً غير هذا: وهو أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما مات اجتمع عظماء فارس وأشرافها ليختاروا رجلاً من ولد كيقباذ الملك فيملكوه عليهم، فوقع اختيارهم على الهراسف وأن لهراسف عقد لابن عمه بخت نصر بن كامجار بن كيانبه في اثني عشر ألف رجل من خيله. وأمره أن يحارب الشام فيحارب ارخبعم [رحبعام] بن سليمان فان كان الظفر له قتل من قدر عليه من عظماء مدينة بني إسرائيل وهي إيليا وهدمها.

فسار بخت نصر حتى أتى الشام فشن بها الغارات، وعاث فانهزم ملوكه منه وهرب أرخبعم من بيت المقدس فنزل فلسطين فتوفي بها وأقبل بخت نصر حتى ورد ايليا، فدخلها لا يمتنع منه أحد. فوضع في بني إسرائيل السيف، فقتل منهم ثلاثمائة ألف نفس، وسباهم، وهدم المدينة فلم يدع فيها بيتا قائماً، ونقض المسجد. وحمل ما كان فيه من الذهب والفضة والجوهر وحمل كرسي سليمان. وقفل راجعاً إلى العراق.

---

(149) - سورة الإسراء، الآيات 4-8

وكان في الأسرى دانيال النبي عليه السلام فسار حتى قدم على لهراسف الملك وهو نازل بالسوس، فمات عنده.

ويقال إن البيت المقدس بقي خراباً إلى أن عمره كورش الفارسي. واسمه في اللغة الفارسية بهمن.

فإنه أذن لبني إسرائيل في العود إلى أورشليم، وبنى إيليا والبيت المقدس وذلك بعد سبعين سنة من خرابه.

وفي أثناء هذه الفترة أمر الله أرميا، وهو المسمى عُزَيْراً، بالخروج من مصر وعوده إلى الشام. فسار حتى أشرف على بيت المقدس وهو خراب فقال: ﴿أنى يُحيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[150] بعد أن عمر بيت المقدس.

المرة الثانية:

خربه جرواش ملك بابل. ويُحكى في سبب ذلك: أن ملكهم هيرودس أراد أن يتزوج بنت امرأةٍ له، فنهاه يحيى بن زكريا عن ذلك، فطلبت المرأة منه قتل يحيى. فأرسل إليه فأحضروه، ودعي بطشتٍ فذبحه فيه، وهو يقول: لا يحلّ لك.

وبقي دمه يغلي، فطرح عليه تراب حتى بلغ سور المدينة فلم يسكن، فسلط الله عليهم جرواش في جمع عظيم فحصرهم، فلم يظفر بهم، فأراد الرجوع فأتته امرأة من بني إسرائيل فقالت: بلغني أنك تريد العود، فقال: نعم، وقد طال المقام وقلت الميرة. فقالت: إن فتحت لك المدينة أتقتل من آمرك بقتله؟ قال: نعم. قالت: فتكف إذا أمرتك؟ قال: نعم. قالت: اقسم جندك أربعة أقسام ثم أرفعوا أيديكم إلى السماء وقولوا اللهم إنا نستفتحك على دم يحيى بن زكريا.

ففعلوا فخرب سور المدينة فدخلوها، فأمرتهم العجوز أن يقتلوا على دم يحيى ابن زكريا، حتى يسكن.

فلم يزل يقتل حتى قتل سبعين ألفاً فسكن الدم. فأمرته بالكف فكف. وخرب البيت المقدس وأمر أن تلقى فيه بالجيف وعاد.

وكانت هذه المرة بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، ولم يزل خراباً إلى أن عمرته هيلاني أم قسطنطين. وحكى أصحاب تواريخ الروم: أن سبب عمارتها له أن ولدها قسطنطين لما صار الملك إليه طوعت له نفسه أن يبني مدينة يجعلها مقر ملكة، ومركز

---

[150] - سورة البقرة، الآية 259

سلطانه، فخرج من رومية، وسار إلى أرض بوزنطا فبنى فيها مدينة، وسماها القسطنطينية باسمه وصار يغير على بلاد برجان لما جاورهم، فكانت الحرب بينهم وبينه سجالاً، نحواً من سنة، إلى أن كانت عليه. فقتل من أصحابه خلق كثير، وخاف البوار. فرأى في النوم كأن رماحاً نزلت من السماء، فيها عَذَبٌ [أي: خِرَق] وأعلام على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس. وقيل له: خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوّك تنصر.

فجعل يحارب بها في النوم، فرأى عدوه منهزماً بين يديه فاستيقظ من رقدته، ودعا بالرماح، وركب عليها صلباناً ورفعها على عسكره، وزحف على عدوّه فكسره.

وسار إلى بيعته وسأل عن تلك الصلبان، وهل تعرفون ذلك في شيء من الآراء والملك، فقيل له أن بيت المقدس مجمع لهذا المذهب. فبعث إلى بيت المقدس وأحضر ثلاثمائة وثلاثة عشر أسقفاً فعرفوه دين النصرانية، فرجع إليه وترك اليونانية، وأمر رعيته بمتابعته على النصرانية.

ثم خرجت أمة هيلاني إلى الشام، وبنت الكنائس، وصارت إلى بيت المقدس فبنته، وعمرته، وزخرفته، وطلبت الخشبة التي صُلب عليها المسيح، بزعمهم، فحلتها بالذهب. واتخذت لوجودها عيداً وهو عيد الصليب.

هنا انتهى بنا القول في بناء البيت المقدس قبل ظهور ملّة الإسلام. وسنذكر ما جدّده فيه خلفاءُ بني أمية، والعبيديون، أصحاب مصر عند ذكرنا لمزارات الشام، إن شاء الله تعالى.

مدينة بيت المقدس

والصفة التي عليها في عصرنا أنها على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي طويلة.

وفي طرفها الغربي: باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود عليه السلام.

وفي طرفها الشرقي: باب الرحمة، وهو مُغلق لا يفتح إلاّ من عيد الزيتون إلى مثله.

ولها في جهة الجنوب: باب يسمى باب صهيون.

ومن الشمال: باب يسمى باب الغُراب[151]. ومتى دخل الداخل من باب المحراب يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، والمسلمون يسمونها قمامة وهي من عجائب الدنيا بناءً.

---

(151) - لعله باب المغاربة

ذكر فتحها وملوكها

قال البلاذري: قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص وهو يحاصر إيليا في سنة عشر، فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صُولح عليه أهل مُدن الشام من أداء الجزية والخراج على أن يكون متوالي العقد لهم عمر بن الخطاب بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك. فسارع عمر رضي الله عنه، حتى نزل بالجابية من دمشق، ثم صار إلى إيليا فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم بذلك. وذلك في سنة سبع عشرة.

ولم تزل بعدُ في الولاية على ما قررناه في غيرها من البلاد المضافة إلى الأجناد.

فلما صارت إلى المستنصر صاحب مصر خرج أتسز بن أوق التركي فقصد أرض فلسطين فملك الرُّملة، وبيت المقدس من نوابه سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

وبقيت في يده إلى أن خرج بدر المستنصري في سنة خمس وستين فاستعاد الرملة والقدس وولى فيهما من قبله. ثم عاد إلى مصر في سنة ست وستين، فعاد أتسز إلى القدس فملكه في بقية السنة.

ولم يزل في يده إلى أن قصد مصر بعسكره، فكسر في رجب سنة تسع وستين وعاد منهزماً إلى دمشق. فجمع، وخرج إلى القدس وكان من فيه وثبوا على من عندهم من الأتراك من أصحابه، فقتلوا أكثرهم، والتجأ من بقي منهم إلى محراب داود فتحصنوا به. وأقاموا حتى وصل أتسز إلى القدس فراسلهم في الدخول في الطاعة فأبوا فنازلهم في شعبان؛ وأقام مدة يحاصرهم إلى أن فتح له القيم محراب داود، فدخل المدينة بالسيف، وقتل عامة أهلها واستمر القتل فيها ثلاثة أيام، ولم يبق منهم إلاّ من استجار بالصخرة والمسجد الأقصى.

وبقي بيت المقدس في يده إلى أن خرج نصير الدولة الجيوشي، فاسترجع القدس وما كان قد استولى عليه من بلاد فلسطين والأردن، ونزل على دمشق فحاصرها وهو فيها فكتب إلى تاج الدولة صاحب حلب يستنجده، فلما سار إليه رحل نصير الدولة وقصد مصر، فلما قُتل تاج الدولة أتسز سار إلى القدس فملكه فيما ملك. وذلك في سنة إحدى وسبعين.

ولم يزل القدس في أيدي نوابه، إلى أن اقطعه الأمير أرتق بن أكسب، وبقي في يد ولديه من بعد إيلغازي وسكمان، إلى أن قصده الأفضل أمير الجيوش شاهنشاه ابن الجيوش بدر المستنصري من مصر في عسكر. فنزل عليها في شعبان سنة تسعين وأربعمائة، وحاصرها، وضايقها، ونصب عليها المجانيق فهدم بها ثلمةً من السور، وأشرف من فيها على الغلبة. فبعث سكمان إلى الأفضل يطلب منه الأمان له ولأخيه إيلغازي

ولأصحابهما، فأجابهما. وتسلم البلد وولي فيه من قبله وذلك في سنة إحدى وتسعين، وخرج سكمان وأخوه إلى دمشق.

وبقي القدس في أيدي المصريين إلى أن قصدها الفرنج في سنة اثنتين وتسعين، وحاصروها أشد حصار حتى ملكوه، في اليوم الثاني من شعبان من السنة عنوة، بعد إعطائهم الأمان لمن فيه، فأحرقوا، لعنهم الله، المصاحف، وأخربوا المساجد؛ وكان ملكهم كندفري.

وأقام فيه إلى أن مات وولّي أخوه بغدوين بعده، ودام مالكه إلى أن أصابه جرح على العرش فمات منه في التاسع من ذي الحجة، سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وتولاه بعده القمص بغدوين صاحب الرها بعهد من بغدوين الأول، فسار إليه، وملكه وسكنه، وبقي في يده إلى أن مات بالفالج في نابلس وبيت المقدس ليلة الاثنين الحادي عشر من شهر رمضان سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

وملك بعده، بعهد منه، زوجُ ابنته فُلك بن فُلك، وبقي في يده إلى أن وقع عن فرسه، وهو يطارد أرنباً في أرضِ عكّا، فغاصت في صدره، وعجل الله بروحه إلى النار، وذلك في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

وولي بعده البلاد أكبر أولاده، وبقي حاكماً على ما كان بيد أبيه من البلاد إلى أن مات في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

وولي بعده أخوه هفري وهلك في سنة ثمانين. وتولّى بعده ولدٌ له صغير، وفوض تدبير دولته لقومص بن بارزان صاحب أطرابلس وكان ابن عمه.

وبقي في يده إلى أن قصده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فنصب عليه المناجيق، وسلّط على سوره النقوب، ممّا يلي وادي جهنم إلى أن تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثمانين.

ومن الاتفاقات العجيبة والمصادفات الغريبة أن القاضي مُحيي الدين بن الزكي مدح الملك الناصر صلاح الدين، لما فتح حلب بقصيدة، هناه فيها، جاء منها:

وفتحكم حلباً في النصف من صفرٍ مُبَشر بفتوح القدس في رجبِ

[رسالة القاضي الفاضل في فتح القدس]

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في فتح القدس: ولما لم يبق إلاّ القدس وقد اجتمع إليها منهم كل شريد طريد. واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد. وظنوا أنها من الله مانعتهم. وأن كنيستها إليه شافعتهم.

فلما نزلها الخادم رأي بلداً كبلاد. وجمعاً كيومِ التناد. وعزائم قد تألبت وتآلفت على الموت فنزلت بعرصته. وهان عليها موردُ السيف وأنْ تموت بغصته. فزاول البلد من جانب فإذا أوديةً عميقة. ولجج وعرةً غريقة. وسور قد انعطف عطف السوار. وأبرجةً قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار. فعدل إلى جهةٍ أخرى كان للمطامع عليها مُعرّج. وللخيل فيها مُتولج.

فنزل عليها، وأحاط بها، وقرب منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه. ويزاحمه السور بأكتافه. وقابلها ثم قاتلها. ونزل عليها ثم نازلها. وبرز إليها ثم بارزها. وحاجزها ثم ناجزها. فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح. وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عتق الصفح.

فراسلوه ببذل قطيعة إلى مُدة. وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النجدة. فعرفهم الخادم في لحن القول.

وأجابهم بلسان الطول.

وقدم المنجيقات التي تتولى عُقُوبات الحصون عصيها وحبالها. وأوتر لهم قسيها التي تضرب ولا تفارقها سهامها، ولا تفارق سهامها نصالها. فصافحت السور فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك.

وقدم النصر نسراً من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلُو علوه إلى السماك. فشج مدارع أبراجها. وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها. ورفع مثار عجاجها. فأخلى السور من السيارة.

والحرب من النظارة. فأمكن النقاب. أن يسفر للحرب النقاب. وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب. فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمُله. وأسمع الصخرة الشريفة حنينة باستقالته. إلى أن كادت ترق لمقالته. وتبرأ بعض الحجارة من بعض. وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض. وفتح في السور باباً. سدّ منْ نجاتهم أبوابا. وأخذ يفت في حجره فقال عنده الكافر: يا ليتني كنت ترابا. فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور. كما يئس الكفار من أصحاب القبور. وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور..

وفي الحال خرج طاغية كفرهم. وزمام أمرهم. ابن بارزان، لعنه الله، سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة. وبالأمان لا بالسطوة. وألقى بيده إلى التهلكة. وعلاهُ ذُل الملكة بعد عزّ المملكة. وطرح جنبه على التراب وكان جنباً لا يتعاطاه طارح. وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليه طرف آمل طامح.

وقال: ها هنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفرنج على أنه إن هُجمتْ عليْهم الدأر. وحملت الحرْبُ على ظهورهمُ الأوزار. بُدئ بهم فعجلوا. وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا.

ثم استقلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلاّ بعد أن ينتصف. ولم يفل سيفٌ من يد إلا بعد أن تنقطع أو تتقصف.

فأشار الأمراء بالأخذ بالميسور. من البلد المأسور. فإنه لو أخذ حرباً فلا بدَّ أن يقتحم الرجل الأنجاد. وتبذل نفوسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد. وكانت الجراحُ في العساكر قد تقدم منها ما أعتقل الفتكات. واعتاق الحركات. فقبل منهم المبذول عنْ يدٍ وهمْ صاغرون. وانصرف أهل الحرب عن قدرةٍ وهم ظاهرون.

وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان. فخدمها الكُفر إلى أن صارت روضة جنان. لا جرم أن الله أخرجهم منها واهبطهم. وأرضى أهل الحق وأسخطهم. فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح. وبنوها بالعمد والصفاح. وأودع الكنائس بها وبيوت الديوية [الداوية] والإسبتارية منها كل غريبة من الرّخام الذي يطردُ ماؤه. ولا ينطرد لألأؤه. قد لطف الحديد في تجزيعه. وتفنن في توشيعه. إلى أن صار الحديد. الذي فيه بأس شديد. كالذهب الذي فيه نعم عتيد.

فما ترى إلاّ مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراقٌ. وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود. وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود.

وأقيمت الخطبة يوم الجمعة الرابع من شعبان فكادت السماوات يتفطرن للسجوم لا للوجوم. والكواكب منها تنتشر للطرب لا للرجوم. ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة. وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة.

واقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها. وجهرت الألسنة بالله اكبر، وكان سحر الكفر يعقدها.

وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر. فرحب به ترحيب من بر لمن برّ وخفق علماه في حفافيه. فلو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتابُ الخادم وهو مجدٌ في استفتاح بقية الثغور. واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور.

فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها. وأيام الشقاء قد أوردت مواردها.
هذا ما وقع عليه اختيارنا من الرسالة، على أننا أتينا بخبر الفتح على سياقاته وألحقنا فيها طليعة الكلام بساقته.

خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي

اقتضبتُ من الخطبة التي خطب بها القاضي محيي الدين بن الزكي، حين فتح البيتُ المقدس شذوراً.

وفيتُ بها من وعودي نذوراً. إذ هي والكتابُ الفاضليّ رضيعا لبان البراعة، وحليفان أطالا على السيف لسان البراعة.

قال بعد أن ذكر ما في الكتاب العزيز من التحميد:

الحمد لله معز الإسلام بنصره. ومُذل الشرك بقهره. ومُصرِّف الأمور بأمره. ومديم النعم بشكره.

ومستدرجِ الكافرين بمكره. الذي قدر الأيام دولاً بعدله. وجعل العاقبة للمتقين بفضله وأفاء على عباده من ظله. وأظهر دينه على الدين كله. القاهر فوق عباده فلا يمانع. والظاهر على خليقته فلا ينازع. والآمر بما يشاء فلا يراجع. والحاكم بما يُريد فلا يدافع.

أحمدهُ على إظهارهْ. وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره. وتطهير بيته المقدّس من أدناس الشرك وأوضاره. حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد شهادة من طهر بالتوحيد قلبه. وأرضى بها ربه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك. وداحض الشرك وراحض الإفك. الذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعُرج به منه إلى السماوات العُلى. إلى سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. ما زاغ البصرُ وما طغى.

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان. وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البلد شعار الصلبان. وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن. وعلى أمير المؤمنين علي بنْ أبي طالب مُزلزل الشرك ومكسّر الأوثان. وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس.

أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى. والدرجة العُليا. لما يسره الله على

أيديكم من استرداد هذه الضالة. من الأمة الضالة. وردها إلى مقرها من الإسلام. بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام. وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه. وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليه رواقه واستقر فيه رسمه. ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه. وبالتقوى فانه أسس على التقوى منْ خلفه ومن بين يديه.

فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام. وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام. وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء. ومَقَرُ الرسل ومهبط الوحي. ومنزل ينزل به الأمر والنهي. وهو في أرض المحشر. وصعيد المنشر. وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين. وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله عليه وسلم بالملائكة المقربين. وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرف الله برسالته. وكرمه بنبوته. ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته. فقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسَيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً لله﴾[152].

وقال: ﴿لقد كَفَرَ الّذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابنُ مَرْيَم﴾[153].

وهو أول القبلتين. وثاني المسجدين. وثالث الحرمين. لا تشدّ الرحالُ بعد المسجدين إلاّ إليه. ولا تعقدُ الخناصر بعد المواطنَيْن إلاّ عليه. ولو لا أنكم ممن اختاره الله من عباده. واصطفاه منْ سكان بلاده. لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار. ولا يباريكم في شرفها مبار. فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية. والعزمات الصديقية. والفتوحات العمرية.

والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية. والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية. والهجمات الخالدية.

فجزاكم الله عن نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، أفضل الجزاء. وشكراً لكم ما بذلتموه من مُهجكُم في مقارعة الأعداء. وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مُهراق الدماء. وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

واقدروا، رحمكم الله، هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فلهُ الفضل والنعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة. وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو

---

[152] - سورة النساء، الآية 171.

[153] - سورة المائدة، الآية 17.

الفتح الذي فتحت لهُ أبواب السماء. وتبلت بأنواره وجوه الظلماء. وابتهج به الملائكة المقربون. وقر به عيناً الأنبياء والمرسلون.

فإذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل قواعد الإيمان. فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء.

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونصَّ عليه في خطابه. فقال تعالى: ﴿سُبحان الذي أسْرى بِعَبْده لَيْلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصَى الّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[154].

أليس هو البيت الذي عظمته الملل وأثنت عليه الرسُل. وتُليتْ فيه الكُتُبُ الأربعة المنزَّلة من إلهكم عز وجلّ.

أليس هو البيت الذي أمسك الله عزَّ وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب. وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب.

أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أنْ يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلاّ رجلان. وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبةً للعصيان.

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين. ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بما أمضته كان وقد وعن وسوف وحتى.

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده. وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد. ونشر التقديس والتحميد. وما أمَطْتُم عن طُرُقهم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفاسد الخبيث. فالآن تستغفر لكم أملاك السماوات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا، رحمكم الله، هذه الموهبة فيكم واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم. ومن اعتصم بعُروتها نجا وعُصم. واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الردّى. ورجوع القهقري والنكول عن العدَى. وخُذوا في انتهاز الفُرصة. وإزالة ما بقي من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا، عباد الله، أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من عباده. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان. فيخيل لكم أن

---

(154) - سورة الإسراء، الآية رقم 1.

هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلاد. ووالله ما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم.

واحذروا، عباد الله، بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل. وخصكم بهذا النصر المبين. وأعلق أيديكم بحَبْله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه. فتكونوا ﴿كالَّتي نَقَضَتْ غَزْلَها منْ بَعْد قُوَّة أَنْكَاثاً﴾[155] ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتَيْنَاهُ آياتنا فانْسَلَخ منْهَا فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فكَانَ منَ الْغَاوين﴾[156].

والجهاد الجهاد، فهو من أفْضَل عباداتكم. وأشرف عاداتكم. انصروا الله ينصركم اذكروا أيام الله يذكركم. اشكروا الله يزدكم ويشْكُركم. خذوا في حسم الداء. وقطع شأفَة الأعْداء. وتطهير بقية الأرض التي أغْضبت الله ورسوله. واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية. والملة المحمدية. الله أكبر. فتح ونصر. وغلب الله وقهر. أذل الله من كفر.

واعلموا، رحمكم الله، أن هذه فرصةٌ فانتهزوها. وفريسةٌ فناجزوها. وهمةٌ فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون. وقد قال الله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرونَ صابرون يغْلبُوا مائتين﴾[157] أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره. وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده: ﴿إن ينْصُرْكم اللهُ فلاَ غالب لكُم، وإن يخذُلكم فمنْ ذا الذي ينْصُرُكم منْ بعْده﴾[158].

وتمامُ الخُطبة والخُطبة الثانية قريب مما جرت به العادةُ من الدعاء للخليفة والسلطان.

رجعنا ..

ولم يزل القدس في يد الملك الناصر، بعد أن فتحه، إلى أن أقطع البلاد بين أولاده. فكان للملك الأفضل منْ دمشق إلى العريش، خلا الكرك والشويك، فإنهما كانا للملك العادل. فأقطع القدس عز الدين جُرديك النوري.

---

(155) - سورة النحل، الآية رقم 92.

(156) - سورة الأعراف، الآية رقم 175.

(157) - سورة الأنفال، الآية 66.

(158) - سورة آل عمران، الآية رقم 160.

ثم حصل بينه وبين أخيه العزيز شنآن، ونفرت أكابر الأمراء الصلاحية، فخرج فارس الدين ميمون القصري، وسنقر الكبير فقطعا نابلس مع غيرهما فلحقوا بالعزيز وحرضوه على قصد الأفضل.

فخرج من مصر بعد أن أقطع القدس علم الدين قيصر وذلك في سنة تسعين، يريد دمشق، فطرأ بينهما ما حكيناه في أمراء دمشق.

ثم وقع الاتفاق على أن تبقى فلسطين للعزيز، والأردن للأفضل، وعاد العزيز إلى مصر.

ولما صارت فلسطين في يده، أقطع القدس لأبي الهيجاء السمين، فعصى عليه في سنة اثنتين وتسعين، فقصده. وفيها [أخذ] الملك العزيز دمشق، وسلّمها لعمه الملك العادل، ونزل له عن القدس، واسترجعه من أبي الهيجاء، وأقطعه سنقر الكبير، ثم استعاده منه، وأقطعه ميمون القصري سنة أربع وتسعين.

ومات العزيز في سنة خمس وتسعين، وجعل الأفضل أتابكاً لولده الملك المنصور بمصر.

فلما ملك الملك العادل مصر مع ما كان بيده من البلاد أقطع دمشق والأردن وفلسطين لولده الملك المعظم شرف الدّين عيسى، واستمرت في يده إلى أن توفي الملك العادل في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة.

وبقيت البلاد في يده إلى أن قصدت الفرنج دمياط واستولوا عليها فاستنجده أخوه الملك الكامل صاحب مصر، فلما وصل إليه شكا ما الفرنج عليه من القوة، وسأله أن يعطيه القدس، وكوكب، والطور، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط، فأسرها في نفسه ووعده فيها بما طاب به قلبه.

ولما تضايق بالملك الكامل الأمر في حصار دمياط، بعث أخاه الملك المعظم إلى أخيه الملك الأشرف يستنجده، وهو بحران، فأخرب القدس في طريقه وكوكب، حتى لا ينتفع بهما الفرنج، ولا يرغبون فيهما . وبقي في يده خراباً إلى أن توفي سنة أربع وعشرين وستمائة.

فخرج الملك الكامل إلى الشام في شوال سنة خمس وعشرين فولى في بلاد فلسطين، وكان الامبرطور قد وصل إلى عكا، والملك الكامل في نابلس، فكتب إليه الإمبراطور أن يسلم القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين ويلقاه. وتردّدت الرسل بينهما في ذلك، وكان للملك الكامل غرض في تملك دمشق، فجمع الأمراء واستشارهم فكلّ منهم أشار بالعود إلى تل العجول خلا الأمير سيف الدين ابن أبي زكري فانه قال: أبق دمشق

على ابن أخيك الملك الناصر، واطلبه، واطلب أخاك الملك الأشرف وعسكر حلب. ونقاتل هذا العدوّ فإما لنا وأمّا علينا، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس.

فامتعض لذلك وقبض عليه وسيره إلى الكرك فحبسه فيها.

وعاد إلى تل العجول واستدعى الملك الأشرف من دمشق، وكان قد وصل إليها ليدفعه عنها، فلما غلب على الملك رغبته في تملك دمشق أذعن لتسليم القدس للإمبراطور، فتسلمه في حادي عشر شهر ربيع الأول سنة ست وعشرين.

واستمر القدس في أيدي الفرنج إلى أن توفي الملك الكامل في سنة خمس وثلاثين بدمشق وملك الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن الملك العادل بعده، فقايض الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل عن دمشق بسنجار وغيرها، فوصل إلى دمشق، ثم خرج منها إلى نابلس في سنة سبع وثلاثين قاصداً مصر، وفيها أخوه الملك العادل، فاستولى على دمشق الملك الصالح عماد الدين إسماعيل. وقبض الملك الناصر على الملك الصالح بنابلس إسماعيل، وحبسه في الكرك، وجمع عسكرا عظيماً ونزل به على القدس، يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى من السنة، وكان الفرنج قد عمروا به برجاً يعرف ببرج داوُد وحصنوه، فنصب عليه المجانيق وضايقه إلى أن تسلمه يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة.

وملك بيت المقدس وولى فيه منْ قبله.

[رسالة الملك الناصر داود حول الفتح الثاني للقدس]

وكتب كتاباً بيده إلى الخليفة المستنصر من إنشائه نُسختهُ: أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي ما دامت الأيام والسنون. وفتح بعزمه مستغلق الحصون. وأذاع ببركته سر النصْر المصُون. وأطلع البشائر بابه يانعةَ الثمار، ناضرة الغُصون. وقضى لأوليائه بنيل المُنى، ولأعدائه بنيل المُنون. العبدُ يُقبل العتبة الشريفة التي تسر بتقبيلها القلوب، وتقر بتقريبها العيون. وتودّ لو اكتحلتْ بأثمد تُرابها الجُفون. ويصف شوقه إلى الخدمة التي تحقق في نعمها الآمال وتصدق في كرمها الظنون. ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون. وعليها يموتون وعليها يُبْعثُون.

ويُنهي أنه طالع المقام الشريف بأمره الهدنة وانقضاء مُدتها. وانفساخ عُقدتها. وعند ذلك أخلى الفرنج، خذلُهم الله، القدس الشريف من سكانه. وانتقل كل منهم عن وطنه إلى صيرة منْ أوطانه.

وأقام به كند من كُنُودهم. ومقدّم من جُنودهم. وهو فارس مشهور من فرسانهم. وطاغية يُذكر من شُجعانهم. كان قد عمر قلعة القدس في مدّة الُهدنة وحصنها . وملأها بالعُدد والآلات وشحنها .

ووصلها ببرج يقال له برج داود النبي، عليه الصلاة والسلام، ابتناهُ لنفسه مسجداً . واتخذه لخلوته معبداً .

وهو برج عظيم المقدار والحجم. مُبار في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم. ينقلبُ البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير. ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير. قد بُني بالصفاح والعمد . وتأنّق بانوه في إحكامه فما طال عليهم الأمد .

وهو من أسفله إلى ثلاثة قد صب فيه الحجر والكلسُ صبا . ورُدم بقوّة بحيث لو حضره يأجوجُ وماجوج ما استطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا له نقبا . فكأن الله قد ألانَ لداَوُدَ الصُخر كما ألان له الحديد في بنيانه. أوْ كأنه استعان في إتقانه بجنّ سليمانه. واستفرى اللّعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان. ومن المشهورين بالشدة والبأس إذ التقى الجمعان. قدْ ركِبُوا في الغيّ رُؤوسهم. ووطّنوا على القتل نفوسهم. يتهافتوُن على نار الحرب تهافُت الفراش. وَيَردُون حياضَ المنُون ورود الإبل العطاش. لا يلتقون سهام القسيْ إلاّ بنحورهم. ولا حجارة المنجنيق إلاّ بصدورهم.

وبايعوه على الموت وحالفُوا . وطاوعوه على الضلال فما عصوا ولا خالفوا .

ثم عمدوا إلى القلعة والبُرج فستروهما بالستائر المخلدة. والخشب المسندة. والعمد الممدّدة. وأوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة. لا بل نار الله الموقدة. فنزل العبدُ عليهم بطائفة من عسكره. وراوحهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكره. ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير إراقة دم. أو قتل موحدٍ يفتدي من المشركين بأمم.

فتجمعوا على الضلال وتألبوا . وحادوا عن طريق الرشاد وتنكبوا . وتوثبوا لنصر الصليب وتصلبوا .

فقاتل العبد صليبهم بصليب من الرأي لا يعجم عوده. وقابل جأشهم بجيش من المصابرة لا يفل جنوده. وجرد لهم جماعة من عبيد الديوان تُرسل إليهم البوائق من نبالها . وتشهر عليهم الصواعق من نصالها .

ونصب عليها المناجيق التي تزحم الحصون بمناكبها . وتحرق شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم كواكبها ، ومن شأنها أنها إذا قابلتْ بلدةً أذتْ بكظمها . وقضت برغمها . وأنزلتها على حكمها .

فرمتهم بثالث الأثافي من جبالها . وسحرت أعينهم إلا أن الله ما أبطل سحر عصيها ولا سحرَ حبالها .

وأحدث النقابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها . ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت حجابها .

وكان الملاعين قد طمحت إلى الممانعة عيونهم. وغلقت بالمصابرة ذهونهم. وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم. فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وجزاهم بما كسبوا . ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم.

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب منْ صياصيهم.

وطلعت على الأسوار المنيفةُ، من الأعلام الشريفة، الرايةُ التي أعادت بسناها آية الليل لكن من آياته النهار إبصار. وأعظم من النيرين الشمس والقمر ضياء وإبداراً .

وأخذ العبد القلعة وتسلمها . وافترع ذروتها العُليا وتسنمها . وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلت.

ومُدتّ له أرضها فألقت ما فيها وتخلت.

ولجأت من الملاعين طائفة إلى برج داود ترجو حقن دمائها . وتقنع بسلامة ذمائها . وما علموا أنهم دخلوا منه سجّناً لا حصناً . ونزلوا به قبراً عجل لهم، وهم في قيد الحياة دفناً .

وسيروا رسولاً لهم الأمان على نفوسهم وأموالهم. والخروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم.

فما سمع العبد لرسولهم كلاماً . ولا شفا لغُلتهِ أواماً . ولا عرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سلاماً .

بل أمر الحجارين أن يجدوا في نقب جداره من جميع أقطاره. ويجتهدوا في قطع دماره بقلع أحجاره.

ويوقد على عدوّ الله ناراً تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله في الآخرة بناره.

فعادوا بعدَ ذلك سألوا الأمان على نفوسهم. والخروج بمجرد نفوسهم. فأجابهم العبد إلى هذه المسألة الهينة الممكنة. وخرجوا وقد ضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة.

وصارت إلى العبد القلعة إرثاً عن أبيه، والبرجُ إرثاً من سميه. وهطل عليهم سحاب بركة الديوان العزيز بوسمه ووليّه. واجتمع شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد . فافترق شمل تثليث الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد . وعطف الله على حزب الإيمان بالنصر. وعاد على حزب الطغيان بالكسر..

واضحى الباطلُ وقد عاوده ذله. ورد الله الحق إلى نصابه وإليه يرجع الأمر كلّه.

والعبد يظن أن الله تعالى ما أعاد هذا البيت إلى العدوّ بعد فتوحه. ولا نقله عن الهداة من أمة محمد إلى الغواة من عبده مسيحه. إلاّ ليسطر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سطره في سيرة أمير المؤمنين جده. ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جُنده.

وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز. وظفر وجيز. فهو بعناية إمامه الذي يستخرج له التوفيق من وعائه. ويُمد في القرب بجيوش عساكرِه وفي البعد بجيوش دُعائه.

وقد سير العبد عبد الديوان سرخاب رسوله ليتلوا سورة الفتح من حفظه. ويشرح صورة الأمر من لفظه. فإنه كان للفتوح حاضراً. ولقتال العدو مُباشراً.

والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثراً. وعيانها بالردم خبراً. ليخمد سرر شرها. ويؤمن غائلة أمرها. وينقطع رجاء الكافر من نزلها وحصرها وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريف.

وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف.

وأما برج داود فقد تقدم عزم العبد على أن يغض من طرفه. ويجدع من أنفه. ويقلل من ارتفاعه.

ويُسهل من امتناعه. ويجعله مسجدا للركوع والسجود. لا معقلا للجموع والحشود. ومعبداً يُلتزم بمزاره. لا حصناً يعتصم بأسْوَارِه.

وهو يسترشد في ذلك هدي الديوان العزيز الذي عليه معتمده. وإليه مرجعه فيما يصدر عنه ويرده.

والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالب. وحزب عدوه وعدو دينه حزب الشيطان الهارب، ويقضي له ولمن اعتلق به ببلوغ المطالب والمآرب.

رجعنا ..

ولم يزل القدس في يد الملك الناصر داود إلى أن اتفق مع الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص على مصالحة الفرنج ليعينوهم على قتال الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، وأعطوهم صفد والشقيف والقدس وغيرها، وذلك في سنة ثمان وثلاثين وستمائة، فدخل الفرنج القدس، ورفعوا

الصليب على الصخرة وأخرجوا من فيه من المجاورين إلى الخليل، واستمر في أيدي الفرنج، إلى ان جاءت الخوارزمية إلى الشام، في سنة إحدى وأربعين باتفاق مع الملك الصالح نجم الدين.

وهجموا القدس وقتلوا من فيه من الفرنج، وطهروا الصخرة من أوضارهم، وذلك في سنة اثنين وأربعين.

ثم خرج إليهم من مصر عسكر مقدمه الأمير ركن الدين بيبرس الكنجي فقاتلوا الملك الصالح والملك المنصور، والفرنج على غرة فكسروهم وتبعوهم. وولي في القدس من قبل الملك الصالح، وأقطع بلاده الخوارزميه.

وما برحوا في تلك البلاد يدينون بالعيث والفساد، إلى أن كسرهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب على القصب، من أعمال حمص، سنة أربع وأربعين وستمائة.

وبقيت منهم شرذمة رجعت إلى القدس، وتغلبوا عليه فخرج عليهم عسكر من مصر مقدمه فخر الدين بن الشيخ، فأتى على بقيتهم، واستعاد القدس، وبقي في يد نوابه إلى أن انزل الملك الناصر إليه من الكرك، واستولى عليه في بقية سنة أربع وأربعين.

ثم استعاده الملك الصالح سنة خمس وأربعين، ولم يزل في يده إلى أن مات، وولي بعده ولده الملك المعظم توران شاه، ثم قتل في المحرم سنة ثمان وأربعين.

وملك الملك الناصر صاحب حلب، دمشق والأردن وفلسطين، فلم يزل القدس في يده إلى أن صالح الملك المعز عز الدين أيبك صاحب مصر، فنزل له عنه، وذلك في سنة إحدى وخمسين.

وبقي في يده إلى قتل الفارس أقطاي التركي في شعبان سنة اثنتين وخمسين، وخرج من مصر مماليك السلطان الملك الصالح البحرية إلى الملك الناصر يستنصرونه، فسير عسكراً إلى القدس فاستعاده.

ولم يزل في يده إلى أن خرج من دمشق فاراً من التتر في سنة ثمان وخمسين.

فلما استولى التتر على البلاد دخلوه وقتلوا به نويساً وبقي في أيديهم إلى أن كسرهم المظفر على عين جالوت ثم قتل.

وصارت البلاد لمولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، فرتب له في كل سنة خمسة آلاف درهم برسم مصالح الحرم. وبنى بخارج البلد خاناً للسبيل، ونقل إليه الباب الذي كان على دهليز القصر الذي يدخل منه إلى البيمارستان بالقاهرة.

وبنى فرناً وطاحوناً، ووقف عليه ثلاثة قراريط بالطرة من أعمال دمشق، وثلث وربع قرية المشارفة، ونصف قرية من أعمار القدس.

وشرط أن يصرف ذلك في خبز وفلوس، وإصلاح زرابيل من يبيت في هذا الخان من المسافرين، وذلك في سنة اثنين وستين وستمائة.

مدينة الخليل عليه السلام

قال ابن حوقل النصيبي: هي مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد إبراهيم. وفي مسجدها الذي يقام فيه الجمعة قبر إبراهيم واسحق ويعقوب، عليه الصلاة والسلام، صفاً. وكل قبر منها تجاه قبر امرأته. والمدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار من الزيتون والتين والجميز.

وقرأت في كتاب أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي الذي وضعه ذيلاً لتاريخ دمشق قال: وفي هذه السنة، يعني سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ورد الخبر من بيت المقدس بظهر قبور الخليل وولديه إسحاق ويعقوب، عليهم الصلاة والسلام، هم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس، وكأنهم أحياء لم تبل أجسادهم، ولا رم لهم عظم.

وحكى علي بن أبي بكر الهروي السائح: حدثني جماعة من مشايخ الخليل: لما كان زمان بغدوين انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم واسحق ويعقوب وقد بليت أكفانهم، وهم مسندون إلى حائط ورؤوسهم مكشوفة، فجدد الملك بغدوين أكفانهم، ثم سد الموضع، وذلك في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

قلت: ولم يزل حكم هذه المدينة في الولايات حكم ما تقدمها من بلاد هذا الجند إلى أن أخذ الفرنج القدس في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة فاستولوا عليها لأنها ضمناً وتبعاً للقدس.

ولم يزل في أيديهم إلى أن فتحها السلطان الملك الناصر صلاح الدين عند فتحه للقدس، في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. ولما ملكه بنى القبة والجامع، ووقف عليه وقوفاً برسم الواردين عليه، وهي التي تسمى ضيافة الخليل[159].

ولم تزل في يد من يلي دمشق إلى أن مات الملك المعظم سنة أربع وعشرين

---

[159] - هذا الإيضاح ضروري من قبل ابن شداد لأن الكثير من الرحالة الذين مروا بالخليل تحدثوا عن الموضوع وكأنه ضيافة مستمرة من زمن النبي إبراهيم

وستمائة. وخرج الملك الكامل من مصر، وولى فيه. ولما فتح دمشق وسلمها للأشرف أعطى الخليل للملك الناصر ابن الملك المعظم، وبقي في يده إلى أن استدعى الملك الصالح، الخوارزمي إلى الشام، وجرى الأمر فيه على ما جرى في نابلس في تنقلها بين الملك الناصر والملك الصالح، إلى أن استبد به الملك الصالح في سنة ثلاث وأربعين.

وبقي في يده إلى أن توفي، وولي بعده ولده الملك المعظم توران شاه، ثم قتل، واستولى على البلاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب، لما ملك دمشق، وأعطاه الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن الملك الكامل.

وما زال في يده إلى أن خرج عن طاعة الملك الناصر في سنة خمس وخمسين وستمائة، فاسترجعه الملك الناصر ثم تغلب عليه الملك المغيث في سنة سبع، فاسترجعه الملك الناصر في بقية السنة، وصار في يده إلى أن أقطعه الملك المغيث في رجب من سنة سبع وخمسين وستمائة.

ثم انقضت دولة الملك الناصر في سنة ثمان وخمسين، وصار في أيدي التتر مع ما صار إليهم من البلاد، فسلموه للملك المغيث صاحب الكرك، فلم يزل في يده، إلا أن مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين والبلاد أخذه منه، وأقطعه لمملوكه الأمير عز الدين أيدمر نائبه بالكرك.

وبقي في يده إلى أن ولاه دمشق، فاسترجعه منه، واقطعه علاء الدين أيدكين الدمياطي في سنة سبعين لما استخلفه في الكرك عنه.

نابلس

وهي مدينة السامرة، وبها البئر التي حفرها يعقوب النبي، صلى الله عليه وسلم، وبها الجبلان المقدسان، وهما طور سينا، وطور تينا المقسم بهما في الكتاب العزيز وهو قوله: ﴿والتّين والزّيتون﴾[160]. ويقال إن تحت المدينة مدينة أخرى منقورة في الحجر.

قال البلاذري: ثمّ إن عمرو بن العاص فتح غزة في خلافه أبي بكر رضي الله عنه، ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس، إلى أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم وعلى أن الجزية في رقابهم والخراج على أرضهم.

طولها ست وستون درجة، طالعها برج الثور، صاحب بنائها الزهرة، لم تزل في يد

---

[160] - سورة التين، الآية رقم 1.

من يلي من المسلمين إلى أن استولى عليها الفرنج عند استيلائهم على القدس في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة.

فلم تزل في أيديهم إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين بالأمان، على يد حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بعد حصار شديد ومضايقة في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وأقطعها عند فتحها حسام الدين المذكور، وبقيت في يده إلى أن مات فأقطعت لعماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين المشطوب.

وبقيت في يده إلى أن مات صلاح الدين في سنة تسع وثمانين، وولي ولده الأفضل بعده، فخرج عنه جماعة من الأمراء الصلاحية مغاضبين، ولحقوا بالملك العزيز صلاح الدين صاحب مصر، فاقطع نابلس الأمير فارس الدين ميمون القصري وسنقر الكبير الدوادار.

وبقيت في أيديهما إلى سنة اثنين وتسعين، فأضيف إلى ما كان بيد سنقر منها إلى فارس الدين ميمون القصري.

ولم تزل في يد ميمون إلى أن مات العزيز في سنة خمس وتسعين فاسترجعها الملك الأفضل، وبقيت في يده إلى أن أخذ الملك العادل مصر وما كان بيده من البلاد الشامية، كما حكيناه قبل، وذلك في سنة ست وتسعين فأقطع ولده الملك المعظم الشام من النبك إلى العريش.

وما زالت في يده إلى أن توفي في ذي القعدة، فصارت نابلس إلى الملك الناصر فيما صار إليه من البلاد. وبقيت في يده إلى أن قصد الملك الكامل الشام في سنة خمس وعشرين. وولى على نابلس، ولم تزل في أيدي نوابه إلى أن أخذ دمشق في شعبان سنة ست وعشرين فأعادها إلى الملك الناصر فيما أعاد إليه من البلاد.

ولم تزل في يده إلى أن ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل دمشق من الملك الجواد بن مودود في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين. ثم خرج إلى نابلس فاستولى عليها، وقصد الملك الصالح إسماعيل دمشق فأخذها.

فلما بلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين، خرج من نابلس يريد استرجاع دمشق، ثم أحس من عسكره نفاقاً، فرجع إلى نابلس، فقبض عليه الملك الناصر داود صاحب الكرك، وحبسه عنده، وولى في نابلس.

وبقي الملك الصالح محبوساً في الكرك إلى أن خرج في شهر رمضان من السنة، وملك مصر في ذي القعدة، ودخل معه إليها الملك الناصر معاضداً له، فخرج الملك الصالح إسماعيل من دمشق في بقية سنة سبع وثلاثين فاستولى على نابلس، وولى فيها.

ولم تزل في يد نوابه إلى أن خرج الملك الناصر من مصر إلى الكرك، فلما حل به راسل الملك الصالح في إعادة نابلس عليه، فأجابه بعد تمنع وتردد.

ولم تزل في يده إلى أن كانت بينه وبين الملك الصالح وحشة، فبعث إليها من أخذها وولي فيها، وذلك في سنة أربعين ثم حصلت بينهما مهادنة وموادعة فأعادها إليه.

ولم تزل في يده إلى أن وطئت الخوارزمية البلاد في سنة اثنتين وأربعين، فاخرج الملك الصالح نجم الدين أيوب إليها من استولى عليها. وبقيت في يده إلى أن صالح الملك الناصر في سنة ثلاث وأربعين فأعادها عليه.

فلما ملك الملك الصالح دمشق في هذه السنة، خرجت الخوارزمية عن طاعته واستولوا على نابلس، ثم حصل بينهم وبين الملك الناصر اتفاق فأعادوها عليه.

وبقيت في يده إلى أن كسرت الخوارزمية في المحرم سنة أربع وأربعين، ثم تراجعوا واجتمعوا، وعادوا إلى القدس فملكوه، وملكوا نابلس، فخرج عليهم عسكر الملك الصالح من مصر فكسرهم وأجلاهم عن البلاد وعادت ونابلس إليه.

ولم تزل في يده إلى أن توفي على المنصورة من أعمال مصر في شعبان سنة سبع وأربعين وتسعمائة. وملك ولده الملك المعظم، ثم قتل في محرم سنة ثمان فصارت البلاد إلى الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب، فولى في نابلس في جمادى الأولى من هذه السنة.

ولم تزل في يده إلى أن هزمه عسكر مصر المعز عز الدين أيبك التركي، وعاد إلى دمشق، فخرج من الكرك ركن الدين خاص ترك الكبير، ومعه عسكر فاستولى على نابلس للملك المغيث بن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب الكرك.

ومازالت في يده إلى أن خرج الفارس اقطاي بعسكر من مصر، فدفع عن نابلس عسكر الكرك، واستولى عليها فخرج عليه عسكر الملك الناصر فأزاله عنها، وولى فيها.

ولم تزل في يده إلى أن خرج عليها الملك المغيث في آخر سنة خمس وخمسين وستمائة، منابذاً لطاعة الملك الناصر، وولى فيها فخرج عليها عسكر الملك الناصر، فهزموه، وصعد إلى الكرك وولى فيها.

وبقيت في يد نوابه إلى أن انحازت البحرية والشهرزورية لصاحب الكرك وخرج بهم إلى نابلس، فاستولى عليها وولى عليها، وذلك في سنة سبع وخمسين، فخرج عليهم الملك الناصر بعسكره فهزمهم عنها.

وبقيت في يده إلى أن استولت التتر على البلاد الشامية فخرج إليها الملك الظاهر

أخو الملك الناصر من دمشق منابذاً طاعة أخيه فاستولى عليها، ثم خرج السلطان الملك الناصر من دمشق إليها ورتب فيها عسكراً، وقدم عليه مجير الدين ابن أبي زكري، فوصل عليها كشلو خان مقدم التتر فقتل ابن أبي زكري ونور الدين الأكتع وابن درياس وغيرهم من الأمراء الذين كانوا في العسكر، ثم أخذوها وبقيت في أيديهم إلى أن كسرهم الملك المظفر في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة. واسترجع منهم البلاد، ثم قتل، رحمه الله، في بقية السنة.

وصارت البلاد إلى مولانا السلطان الملك الظاهر فولى فيه عشير نابلس نوابه فيه، إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب.

قيسارية

وكانت مدينة على سيف البحر، حصينة، منيعة، لها ربض كبير.

البلاذري: وولّى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يزيد بن أبي سفيان فلسطين مع ما ولاه من أجناد الشام. وكتب إليه يأمره بغزوة قيسارية، وقد كانت حُصرت قبل ذلك فنهض إليها في سبعة عشر ألفاً، فقاتله أهلها فمرض، وعاد إلى دمشق. واستخلف عليها أخاه معاوية بن أبي سفيان ففتحها، وكتب إليه بفتحها، فكتب به يزيد إلى عمر. ولما توفي يزيد بن أبي سفيان كتب عمر إلى معاوية بتوليته على ما كان يتولاه يزيد، فشكر أبو سفيان ذلك لعمر. وقال: وصلتكم رحمٌ.

فحاصرها معاوية حتى فتحها في شوال سنة تسع عشرة قسراً، وبعث بفتحها تميم بن زرقاء عريف خثعم إلى عمر، رضي الله عنه، فقام عمر على المنبر ونادى في الناس ألا إن قسارية قد فتحت.

ولما فتحت وجد بها من المرتزقة سبعمائة ألف، ومن السامرة ثلاثون ألفاً ومن اليهود مائتا ألف ووجد فيها ثلاثمائة سوق قائمة كلها، وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف. وحوصرت سبع سنين إلا شهراً واحداً.

وقال أيضاً عمن حدثه: إن الروم خرجت في أيام ابن الزبير إلى قيسارية، فشعثتها، وهدمت مسجدها الجامع، فلما استقام لعبد الملك بن مروان الأمر رمّ قيسارية، وبنى مسجدها وشحنها بالرجال.

ولم تزل يليها من جند فلسطين، إلى أن أخذها الفرنج سنة أربع وتسعين وأربعمائة بالسيف، وقتلوا من فيها من الرجال.

ولم تزل بأيديهم إلى أن أخذها منهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد بدر الدين دلدرم الياروقي، وعون الدين قليج في سنة ثلاث وثمانين. واستمرت في يده إلى أن خرجت عنه في البلاد التي وقعت عليها الهدنة فيما بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين.

واستمرت في أيديهم إلى كسر عسكر ريدافرانس[161] على دمياط في سنة سبع واربعين وستمائة وأسر، ثم أطلق، فنزل الساحل، وعمر قيسارية وشيدها وحصنها.

ولم تزل في أيديهم إلى أن ملك مولانا الملك الظاهر البلاد، قصدها ونازلها، وحاصرها حتى فتحها فتحا عنوة سنة ثلاث وستين وستمائة، وخرّبها حتى لم يدع لها أثراً.

أرسوف

طولها سبع وستون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمس دقائق.

ليس لها في الفتوح العُمري ذكر، ولا فيما وقفت عليه من الكتب المؤلفة في صدر الإسلام.

وأول ما أحاط به علمي من أمرها أن الفرنج تسلّموها في سنة أربع وتسعين وأربعمائة بالأمان، ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ولم تزل في يده إلى أن دخلت في البلاد التي وقعت الهدنة عليها بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين.

ولم تزل بأيديهم إلى أن كُسر ريدافرنس على دمياط، وأسر في سنة سبع وأربعين وستمائة، ثم أطلق في سنة ثمان ونزل الساحل فعمر قيسارسة، كما قلنا، وأرسوف، وحصنها، وشيدها.

وما زالت في يد الفرنج إلى أن قصدها مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، ونازلها في شهر رجب من سنة ثلاث وستين وستمائة، حتى ملكها عنوة في الثاني عشر من الشهر، وأخرجها على يد جيوشه ملك الأمراء بدر الدين بيليك الخزندار، فإنه أبلى فيها بلاء عجبت السيوف من مضائه، وأعانته الأقدار على إمضائه.

---

(161) - أي ملك فرنسا لويس التاسع

يافا

وهي على ساحل البحر، كانت عامرة، عليها سور مُحكم البناء. ولها قلعة شاهقة في الهواء. وليس لها ذكر في الفتوح العمري.

والذي اتصل بعلمي من أمرها أن فلسطين لما انتهت في الولايات إلى المستنصر العُبيدي صاحب مصر خرج عليه اتسز بن أوق التركي في سنة ثلاث وستين وأربعمائة وقصد يافا، فأخرج منها نوابه، وعاد إلى دمشق، فخرج إليه عسكر من مصر مقدَّمُهُ نصرُ الدَّولة وولّي فيها.

ولم تزل في أيدي العُبيديين إلى أن ملك تاجُ الدولة الشام فملك فلسطين وولّى في بلاده نوابه، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

ولم تزل في يده إلى أن قُتل في سنة ست وثمانين، فخرج الأفضل أمير الجيوش إلى الشام من مصر، فاستعاد يافا فيما استعاده من بلاد فلسطين، وولّى فيها. وبقيت في أيدي نُوابه إلى أن قصدها كندفري فتسلمها في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فشيدها، وعمرها، وسلّمها إلى طنكريد صاحب إنطاكية.

ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها عنوة الملك الناصر صلاح الدين في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، على يد أخيه الملك العادل، وخربها، وبقيت خراباً إلى أن تقررت الهدنة بين الملك الناصر وبين الفرنج، وشرَطوا عليه إبقاءَها في أيديهم.

فلم تزل في أيديهم إلى أن خرج الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب من دمشق لما بلغه إغارة الفرنج على بلاد الساحل وذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فأغار على مرج عكا، وقصد يافا، ففتحها عنوة في شوال من السنة.

ولم تزل في يده إلى أن خرج الفرنج، وملكوا بيروت فخرج إليهم الملك العزيز من مصر، ووقعت الهدنة بينه وبينهم، وأعيدت يافا إليهم في سنة أربع وتسعين. فلم تزل في أيديهم إلى أن أطلق ريدافرانس من الأسر في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وصار إلى الساحل فعمرها، وبنى قلعتها، وجدد أبنيتها.

وبقيت في أيديهم إلى أن قصدها السلطان الملك الظاهر، ونازلها في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وستين وستمائة، فحضر عنده رسول من صاحبها بالإقامة على ما جرت به العادة، فقبض اليه، وسار إلى يافا ليلاً، وعسكره لابسٌ، فصبحهم بكرة فهرب من كان بالمدينة إلى القلعة، وهي على رابية عالية حصينة، فلم تغن عنهم شيئاً، وفتحها بعد يومين من نزوله عليها بالأمان، وخربها، وهي الآن خراب يباب.

عسقلان

طولها خمس وستون درجة. وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. طالعها الأسد صاحب ساعة بنائها المشتري.

قال البلاذري: وكتب عُمر إلى معاوية يأمره بتتبع ما بقي من فلسطين، ففتح عسقلان صلحاً بعد كد. ويقال إن عمرو بن العاص كان قد فتحها، ثم نقض أهلها وأمدهم الرُوم، ففتحها معاوية وأسكنها الروابط، ووكّل بها الحفظة.

وقال ايضاً عمن حدثه من أهل عسقلان: إن الروم أخربتها وأجلت أهلها عنها في أيام ابن الزّبير فلمّا ولي عبد الملك بن مروان بناها وحصنها.

ولم تزل في يد من يلي فلسطين، إلى ما حكيناه، منذ فتحت إلى أن صارت في أيدي المصريين، فلما كانت أيام الآمر بأحكام الله كان بها من قبله والياً يعرف بشمس الخلافة، فراسل بغدوين ملك الفرنج، وهادنه وأهدى إليه وامتنع به من حكم المصريّين عليه.

فوصلت إلى الآمر الأخبار بذلك، فبعث عسكراً وقدّم عليه قائداً، وأوعز إليه أن يمر بعسقلان، ويظهر أنه يريد الغزاة، وكتب معه كتابا إلى شمس الخلافة يأمره فيه بالنهوض معه، وأوصى القائد بالقبض عليه إذا خرج إليه. فلما قارب عسقلان استدعاه فامتنع من الحضور وجاهر بالعصيان، وأخرج منْ كان معه من الجند المرتبين معه خوفاً منهم.

فلما بلغ الآمر ذلك خاف على عسقلان أن يأخذها الفرنج فأرسل إلى شمس الخلافة، وطيب قلبه، وأقطعه بلاداً بمصر حتى انقاد له، ثم إنه خاف ممن معه فيها، فأحضر جماعة من الأرمن، واتخذهم جنداً، فأنكروا عليه فعله، ووثبوا عليه فقتلوه، ونهبوا داره، وكتبوا إلى الآمر بذلك فبعث عليهم والياً، وذلك في أخر سنة أربع وخمسمائة.

واستمرت في أيدي أصحاب مصر إلى أن تغلب الفرنج على بلاد الساحل، فكانت آخر ما تغلبوا عليه. وسبب تأخرها أنها ليس لها ميناء يُرسي فيها المراكب، ولم تؤخذ حتى تكررت منازلة الفرنج لها مراراً عديدة.

وأول من نزل عليها كندفري، ثم أخوه بغدوين، ثم الونس، ثم فلك بن فلك، وقطعوا أشجارها وكرومها، ورتبوا في الحصون المجاورة لها خيلاً، تغاديها وتراوحها الغارات، وعمروا بالقرب منها في سنة أربع وأربعين وخمسمائة غزة، وسكنوها ومدّوها بالرجال والفرسان.

فلما بلغ أهلها الجهد كتبوا إلى الملك العادل أبي الحسن علي بن السلاّر،

يستنجدونه، فبعث أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني إلى الملك نور الدين محمود إلى الشام يلتمس منه أن ينزل على طبرية، ليشغل الفرنج عن التعرض بعسقلان، وبعث معه عسكراً، وأعطاه مالاً، وأمره أنه متى لم يجد من نور الدين عوناً أن يديون[162] بالمال من قدر عليه.

فسار ابن منقذ إلى الملك العادل فوجده محاصراً دمشق، وهو في شُغل بها عن الالتفات إلى غيرها، فاعتذر عليه، ومكنه من التديون، فديون في ثمانية أيام ثمانمائة وستين فارساً، وسار بهم إلى عسقلان، وأقام يحارب الفرنج أربعة أشهر لا ينقضي يوم منها بلا إغارة ثم أستدعي إلى مصر، فرحل عنها، وأقام الحصار عليها حتى مات فلك بن فلك، وملك بعده ولده الأكبر بفدوين فجدّ في حصارها، وعمل عليها برج خشب، وقاتلها حتى ملكها بالأمان في جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان بها والٍ يسمى تميماً فلما خرج منها حمل معه رأس الحسين عليه السلام إلى القاهرة.

ولم تزل في أيديهم إلى أن نازلها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ونصب عليها المجانيق، وقاتلها قتالاً شديداً حتى تسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وأخربها، ولم تزل في يده إلى أن تغلبَ الفرنج.

وبقيت في أيديهم إلى أن تقررت الهدنة بينهم وبين الملك الناصر، وشرط عليهم عودها إليه وتخريبها، فأخربها في شعبان سنة ثمان وثمانين، وكان عليها سور محكم البناء، بحيث أنه كان عرضه في موضع تسع أذرع، وفي موضعٍ عشر.

ولم تزل خراباً إلى أن ملكها الملك الصالح صاحب دمشق، وأعطى الفرنج بلاداً كانت فيها، وذلك سنة ثمان وثلاثين فعمروها.

ولم تزل في أيديهم إلى أن قصدها عسكر الملك الصالح نجم الدين ومقدمه معين الدين ابن الشيخ فحاصرها حتى أخذها عنوة، وهدمها في مستهل جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وستمائة.

وبقيت في يده إلى أن توفي الملك المعظم ولده، فملكها فيما ملك بعده، إلى أن قتل، وملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد صاحب حلب فيما ملكه من دمشق والسواحل.

ثم خرجت عنه في صلح الملك المعز في سنة إحدى وخمسين وستمائة، ثم عادت إليه في سنة اثنتين وخمسين، ثم خرجت عنه إلى التتار عند استيلائهم على البلاد، ثم عادت

---

(162) - أي أن يضم عسكراً إلى ديوان الجند، أو بالمعنى المعاصر تطويع العسكر.

إلى الملك المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية في شهر رمضان، من سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ثم ملكها السلطان الملك الظاهر فيما ملك في أواخر السنة المذكورة، ثم خرج إليها في سنة تسع وستين، وأخرب ما كان باقيا من قلعتها، وهي بيده إلى الآن.

غزة

وتُعرف بغزة هاشم، وهو هاشم بن عبد مناف، أبو عبد المطلب، لأنه كان كثير التردد إليها، وبها قبره.

وهي نشز مرتفع على البحر، وقد تقدّم لنا فتحها، وعمارة الفرنج لها.

طولها أربع وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. طالعها الثور، صاحب ساعة بنائها المشتري.

ولما فتحت عسقلان، فُتحت بغير قتال في تاريخها، ولم تزل في يد صلاح الدين، ثم من بعده في يد العزيز، وفي أيامه أغارت الفرنج عليها، وعلى الداروم، فأمر بخراب قلعة الداروم.

ولم تزل غزة في يده، ثم في يد الأفضل أخيه، ثم في يد عمه الملك العادل، ثم في يد ولده الملك المعظم، ثم صارت في يد الملك الكامل، إلى أن مات، فتغلب عليها الملك الناصر ابن الملك المعظم، وولّى فيها.

وما زالت في يده إلى أن كانت بينه وبين الملك الجواد حرب استظهر عليه فيها الملك الجواد، فاستولى على غزة، وولّى فيها من قبله.

ثم خرج عسكر الفرنج فاستولوا على غزة فأخرج إليهم الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن الملك الكامل صاحب مصر عسكراً، فدفعهم عنها وكسرهم وأعادها للملك الناصر.

وبقيت في يده إلى أن ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، فولّى فيها من قبله، واستمرت في يده إلى أن مات، فصارت إلى ولده الملك المعظم إلى أن قُتل.

وملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد صاحب حلب دمشق، واستولى عليها فيما استولى عليه من بلاد الشام، وما زالت بيده إلى أن نزل عنها مع القدس للملك المعزّ عز الدين أيبك التركي صاحب مصر.

وبقيت في يده إلى أن خرجت البحرية من مصر عند قتل الفارس آقطاي التركي، فاسترجعها الملك الناصر وأقطعها لجماعة منهم.

وما زالت في يد الملك الناصر صلاح الدين إلى أن صارت البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك، صارت دُولاً بين الملك المغيث وبين الملك الناصر إلى أن استبد بها الملك الناصر في سنة سبع وخمسين وستمائة.

وبقيت في يده إلى أن خرج أخوه الملك الظاهر من دمشق منابذاً، واستولى عليها لما استولى على نابلس.

ثم انقرضت دولة الملك الناصر في هذه السنة عند استيلاء التتر على البلاد، فلم يدر بعد فيها ديار، إلى أن كسر الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي التركي صاحب مصر التتر، على عين جالوت، واسترجع البلاد، فتراجع إليها أهلها وعمرت.

وهي في عصرنا، الذي وضعنا فيه هذا الكتاب، فيها نواب مولانا السلطان الظاهر ركن الدُنيا والدّين بيبرس الصالحي، خلد الله ملكه وجعل الأرض بأسرها ملكه.

في ذكر ما بمجموع هذه الأجناد الثلاثة من المزارات

غوّر نَابُلسُ:

به قرية يقال لها عَمَتًا بها قبر أبي عبيدة ابن الجراح، وقد زرناه بطبرية.

اريحا:

بها قبر ذكروا أنه قبر موسى بن عمران عليه السلام والله أعلم. وورد أن أريحا مدينة الجبارين.

السوَاد:

بلد به قرية، يقال لها المُهَيّد، ذكروا أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وُلد بها. وقد ذكرنا مولده فيما تقدم.

البلقاء:

بلد به الكهف والرقيم، وعنده مدينة يقال لها عَمَّان بها آثار قديمة.

قال الهروي: وقد زرنا الكهف والرقيم ببلاد الروم عند مدينة يقال لها أبسس، خربة، بها آثار عجيبة، قريبة من مدينة أبلستين. وقيل هي مدينة دقيانوس. وبالمغرب موضع يقال له جنان الورد في بر الأندلس به الكهف والرقيم، وبه قوم موتى لا يبلون. كما ذكر أهل الموضع. وذكروا أن طليطلة هي مدينة دقيانوس والصحيح الذي ببلاد الروم.

مآب:

به قرية يقال لها سيحان، بها قبر ينزل عليه النور ويراه الناس، وهو على جبل، والنّاس يزعمون أنه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام.

صَرَفة:

قرية بها قبر، يزعمون أنه قبر يوشع بن النون وقد تقدم قول آخر فيه وهو الصحيح.

الطُور، ومؤتة:

قُرى بها قبر جعفر بن أبي طالب الطيار، وقبر زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، والحارث بن النعمان، وعبد الله بن سهيل، وسعد بن عامر بن النعمان القيسي، وأبي دُجانه الأنصاري واسمه سماك.

وباللجّون:

مقام إبراهيم عليه السلام.

ولاوي:

قرية بها قبر لاوي بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

ظهر الحمار:

قرية بها قبر بنيامين أخي يوسف الصديق عليهما السلام.

مدينة نابلس:

في ظاهرها مسجد، ذكروا أن آدم عليه الصلاة والسلام سجد في ذلك الموضع. وبها الجبل الذي يمتقد اليهود أن إسحاق عليه الصلاة والسلام، فدي عليه وهذا الجبل تمتقد فيه اليهود، وهو مذكور عندهم في التوراة واسمه كرزيم [جرزيم]. والسّامرة تصلي إليه. وبها عين تحت كهف يمتقدون فيها، ويزورونها.

بُلاطة:

قرية من أعمال نابلس، بها عين الخضّر، وحقل يوسف الصديق، وقبر يوسف عند الشجرة. وهو الصحيح.

وعورتا:

قبر يوشع بن النون ومفضل ابن عمّ هارون، ويقال بها سبعون نبياً.

سَيْلُون:

قريةٌ كان يعقوب عليه الصلاة والسلام ساكناً بها، وإن يوسف عليه الصلاة والسلام، خرج منها مع إخوته، والجبّ الذي رُمي فيه بين سنْجيل ونابلس، عن يمين الطريق.

ما في بلاد جُند الأردن من المزارات

مدينة طبرية:

ممن شرقي بحيرتها: قبر سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام. والصحيح أن سليمان دُفن إلى جانب أبيه في بيت لحم. وهما في المغارة التي بها مولد عيسى عليه الصلاة والسلام ومن شرقيها أيضاً: قبر لقمان الحكيم، وابنه على ما قيل.

وبطبرية: قبر أبي عبيدة بن الجراح وزوجته، على ما قيل. وقيل بالغور. وقيل ببيسان.

وفي لحف جبل طبرية: قبر أبي هريرة على ما قيل. وقيل قبرهُ بالبقيع. وقيل: بالعقيق.

وبطبرية: عينُ ماء تُنسب إلى عيسى عليه الصلاة والسلام وكنيسة الشجرة، ولهذا الموضع حكاية عجيبة ذكرت في الإنجيل لعيسى عليه الصلاة والسلام مع الصباغ.

وبظاهر طبرية: مشهدٌ به قبر سُكينة بنت الحسين عليه السلام، فيما قال. وبها قبر يقال إنه قبر عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

دير فاخور: موضع تعمد فيه المسيح، من يوحنّا المعمداني على الأردن على ما ذكروا.

ومن أعمال طبرية: قرية يقال لها أرْبَد: بها قبر أم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، عن يمينه الطريق، وبها أربعة من أولاد يعقوب عليهم الصلاة والسلام، وهم: دَان، وأيساخار، وزبولون، وكاد وفي الطريق إلى بانياس: قصر يعقوب، وبيت الأحزان وجبّ يوسف عليه الصلاة والسلام. والصحيح أن جبّ يوسف في طريق القدس، عند بلد يقال لها سنجيل.

حطين:

ويقال حُطيْم قرية بها قبر شعيب وقبر زوجته، على ما قيل.

الشجرة:

قرية بها قبرُ صديق بن صالح، وقبر دحية الكلبي، في مغارة على ما قيل.

كفر كنه:

قرية بها مقام يونس، وقبر ابنه، والله اعلم.

رُومة:

من أعمال طبرية، بها قبر يهوذا بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام على ما زعم.

وكفر مندة:

قرية، قيل إنها مَدْيَن شرقي طور سينا. وبهذه القرية قبر صفوراء بنت شعيب زوجة موسى عليهما الصلاة والسلام. وبها الجب الذي قلع الصخرة من عليه، وسقى منها أغنام شعيب. والصخرة باقية هناك. وبها اثنان من أولاد يعقوب؛ وهما أشير ونفتالي.

وعند هذه الأماكن جبل يقال له: الطور، قيل إن موسى عليه الصلاة والسلام، منْ هذا الجبل رأى النار، ومن هذا الموضع أرسله الله.

كابُول:

قرية بها قبران زعم أنهما قبرا روبين وشمعون.

الناصرة:

قرية بها دار مريم ابنة عمران ومنها كانت وبها سُميت النصارى. وجبل ساعير: قريب منها؛ والإشارة في التوراة في الجزء العاشر من السفر الخامس في حق موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم. وهو قوله تعالى جاء الله من سيناء يريد مناجاته لموسى على طُور سيناء. وقوله: وأشرق من سَاعير إشارة إلى ظهور عيسى عليه الصلاة والسلام من الناصرة. بقوله واستعلن من جَبَل فَاران إشارة إلى نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. إذ عندهم في التوراة جبال فاران هي جبال الحجاز والنبي صلى الله عليه وسلم ظهر منها.

عكا:

بها عين البقرة، ذكروا أن البقر خرجت منها لآدم، فحرث عليها. وعلى هذه العين مشهد ينسب إلى علي ابن أبي طالب عليه السلام. ويحكى أن الفرنج عملته كنيسة، وأقام بها قيم برسم عمارتها وخدمتها. فلما أصبح قال رايت شخصاً يقول انا علي بن أبي

طالب، قل لهم أن يعيدوا هذا الموضع مسجداً وإلاّ من أقام به هلك. فأخبرهم، فلم يقبلوا كلامه، وأقاموا غيره، فلما أصبحوا وجدوه ميتا.

فتركها الفرنج مسجداً، وهي إلى الآن.

ويقولون بها قبر علكّ الذي نُسبت إليه. ويزعمون أن علك نبي. ويمرج عكا خلق شهداء.

زيارات جند فلسطين

القدس الشريف:

به الصخرة التي عُرج بالنبي صلى الله عليه وسلم منها وأثر قدمه فيها. وهي شبر وافٍ، وعلوّها مقدار ذراعين، ودائرها يزيد على أربعة أذرع وتحت قبة الصخر مغارة الأرواح، ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله فيها، ويُنزَلُ في هذه أربع عشرة درجة. ويقال إن بهذه المغارة قبر زكريا عليه الصلاة والسلام.

ورواق الصخرة مبني على ستّ عشرة أسطوانة من الرخام، وعلى ثمانية أركان. ولها أربعة أبواب من الحديد. وعلى الصخرة درابزين حديد يحويها، طوله قامتان.

المسجد الأقصى:

به محراب عمر بن الخطاب لم تغيره الفرنج وقبته أنشئت في أيام الإمام ابن العزيز صاحب مصر، وكملت في سلخ ذي القعدة سنة ستّ وعشرين وأربعمائة. وهي كلها بالفص المذهب، الكتابة والتوريق، لم يغيّر منه الفرنج شيئاً. وعلوّ هذه القبة ستون ذراعاً.

وتحت الأقصى، اصطبل كان لدواب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، كما ذكروا، ومعالف الدواب إلى الآن.

وهناك مغارة يقال لها مهد عيسى.

وقبة السلسلة التي كان يحكم بها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ودائرها ستون خطوة.

وبالقدس: كنيسة اليماقبة: بها بئر، يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام اغتسل منها، وآمنت السامرة على يده عندها.

وبالقدس: برج داود ومحرابه.

وبظاهر القُدس: عين سلوان: ماؤها مثل ماء زمزم، وهي تخرج من تحت قبة الصخرة، وتظهر في الوادي قبليّ البلد.

وكنيسة السليق: يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام منها رفع إلى السماء.

وكنيسة صهيون: يُقال إن المائدة نزلت على عيسى والحواريين بها.

وادي جَهَنَّمْ: به قبر مريم أم عيسى: يُنزل إليه في ستّ وثلاثين درجة. وبه العمد من الصخر المانع والرخام.

وتحت القبة: ستة عشر عموداً، ثمانية حمر، وثمانية خضر. ولها أربعة أبواب على كل باب ستة عمد من الرخام.

وبه كنيسة وهي الآن مشهد لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

وبأرض فلسطين: قبر راحيل أم يوسف عن يمين الطريق السالك من القدس إلى الخليل.

بيت لحم:

بلدة بها مولد عيسى عليه الصلاة والسلام، ويقال إن قبري داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام بها.

حَلْحُول:

قرية بها قبر يونس عليه الصلاة والسلام، على ما زعموا.

رامة:

قرية بها مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

كفر بريك:

قرية بها قبر لوط عليه الصلاة والسلام.

ياقين:

قرية بها مقام لوط عليه الصلاة والسلام، وبها كان يسكن بعد رحيله من زُغر. والموضع الذي خُسف بقومه هو اليوم: البحيرة المنتنة: ويقال الميتة، وقيل إن الحجر الذي ضربه موسى ﴿فانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾[163] بزُغر.

مدينة الخليل عليه السلام:

بها مغارة فيها قبر إبراهيم الخليل، واسحق، ويعقوب، وسارة، عليهم الصلاة والسلام. وقيل إن قبر آدم، ونوح، وسام، فيها. والمغارة تحت هذه المغارة التي تُرى الآن وتزار.

---

(163) - سورة البقرة، الآية رقم 60.

قال علي بن أبي بكر الهروي: حدثني جماعة من مشايخ الخليل أنه لما كان في زمان بغدوين الملك انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم، وإسحاق ويعقوب، وقد بليت أكفانهم، وهم مستندون إلى حائط، وعلى رؤوسهم قناديل وهي مكوفة، فجدّد الملك أكفانهم، ثم سُد الموضع، وذلك في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

بيت جبرين: قيل هو البلد الذي ذكره الله في القرآن في سورة المائدة، وهو قوله ﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ إلى آخر الآية.

وقيل: إن المدينة التي قال إن فيها قوما جبارين إنها أريحا. وقيل عمّان، وهو الصحيح.

ووادي النمل:

وقيل إن به خاطبت النملةُ سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام.

عسقلان:

بها بئر إبراهيم. ويقال إنه حفرها بيده. وبه مشهد الحسين عليه السلام، كان به رأسه. فلما أخذها الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة. وذلك سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وبالرملة:

قبر عُبادَة بن الصامت، والصحيح أنه بالقدس الشريف.

والله أعْلَمُ بالصَّواب.

رحلة العبدري

فلسطين خالية من العلماء والمحدثين

لا توجد معلومات حول العبدري سوى ما ورد في متن رحلته، ولذلك تقع المعلومات الأخرى في باب التكهن والتخمين. ويقول محمد الفاسي محقق الرحلة إنه لا تُعرف له ترجمة ولا يُعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، ولا كيف وأين نشأ، ولا ما كان من أخباره بعد عودته من رحلته إلى المشرق. ولكنه يضيف أنه كان من بلاد حاحة؛ القبيلة البربرية، ويؤكد أنه مغربي صميم من مراكش[164]. أما كراتشكوفسكي وغيره فيذهبون إلى أن أصله من بلنسية في الأندلس.

وقد رد الفاسي على ذلك بقوله: (وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحيحي، وسمي جده الأعلى في بعض مخطوطات رحلته سعوداً، وتدل نسبته العبدري على أنه كان من أصل عربي قرشي، إذ هي إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب، وكان سلفه يقطنون بلاد حاحة، القبيلة البربرية التي تحيط بمدينة الصورة على الشاطئ الأطلسي، والنسبة إليها حيحي على غير قياس أي كما يتلفظ بها أهل المغرب. ولا مراء في أنه كان من بلاد حاحة فهو دائماً يذكر ذلك ويحن إلى وطنه، حتى أنه لما وصل إلى فاس في رجوعه من سفره أدركه العيد بها فقال في ذلك: [من البسيط]

قالوا تعيّد في فاس فطب فرحاً	فقلت مالي بها دار ولا عطن
فاس ومكناسة وطنجة وسلا	عندي كزديك[165] لا أهل ولا وطن
بغداد قفر إذا لم تَحْوِ لي سكنا	والقفر بغداد إن أهلي به قطنوا

فهو لا يطيب فرحاً بالتعييد بفاس، على الرغم من جمالها واتساع حضارتها

[164] - من مقدمة الفاسي للرحلة و مقالة محمد الفاسي في (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية) بمدريد، ص 5 و7.

[165] - زديك برية قفرة ببلاد طرابلس وصفها في رحلته

واشتمالها على العلماء الجلة، وكونها قاعدة المملكة، ويفضل عليها بلاد حاحة موطن أهله ومعطن أسرته. فإذا علمت هذه اشتد عجبك ممن يقول إن العبدري من بلنسية).

بدأ العبدري رحلته من بلاد حاحة في شهر ذي القعدة عام 688 هـ، كانون الأول 1289م. وسافر عن طريق البر من وراء جبال الأطلس الأعلى قاطعاً صحراء المغرب الجنوبية الشرقية حتى وصل إلى تلمسان، وبها بدأ تقييد وقائع رحلته، ثم سافر من تلمسان إلى بجاية، فبونة، فتونس، فالقيروان، فطرابلس، فالإسكندرية، فالقاهرة، ومنها إلى مكة عن طريق سيناء حيث أدى فريضة الحج، ثم زار المدينة وصعد إلى ينبع، فعقبة أيلة، ومنها توجه نحو الخليل ثم حلحول إلى أن وصل إلى القدس في أواسط المحرم سنة 689هـ، كانون الثاني 1290م، حيث مكث فيها خمسة أيام غادرها بعد ذلك إلى عسقلان التي توقف عند وصفها ملياً، ثم عبر منها إلى غزة فمصر، في طريق العودة إلى بلاده.

رحلة العبدري حافلة بالتحقيقات الجغرافية ووصف المناظر، وغنية بالمعلومات القيمة حول مختلف مناحي الحياة والعادات الاجتماعية وعلماء المسلمين في القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي.

وإلى العلم والعلماء اتجه اهتمام العبدري في الدرجة الأولى، وهو الاهتمام الذي تجلى في معظم الرحلات المغربية، التي تحولت شيئاً فشيئاً، كما قال كراتشكوفسكي، إلى ضرب من يوميات العلماء[166].

ودلت الرحلة على سعة معارف الرجل وتمكنه من العلوم الإسلامية، وثقافته الواسعة، ولم يكن لرجل هذا شأنه من العلم أن يُعجب بالأحوال العلمية التي خبرها في معظم البلدان التي زارها، في وقت بدأت الثقافة الإسلامية عموماً تبتعد عن العقل وتعتمد النقل. ولم يخطئ العبدري إذ رأى أن علوم الشرع والأدب كانت في اضمحلال في المغرب والمشرق كليهما. وقد أبدى ملاحظات سلبية عديدة في رحلته عن أوضاع البلدان التي زارها.

وقد ظهرت لرحلة العبدري ثلاث طبعات: واحدة في الجزائر أوائل الستينات حققها أحمد بن جدو باسم الرحلة المغربية وظهرت في قسنطينة، والثانية في الرباط باسم رحلة العبدري حققها الدكتور محمد الفاسي سنة 1968م، والثالثة في دمشق باسم رحلة العبدري حققها الدكتور علي إبراهيم كردي سنة 1999م.

ونالت الرحلة عناية المستشرقين الذين كانوا أول من نوه في العصر الحديث

---

(166) - كراتشوفسكي، ص 397

بقيمتها، فقد عني بها المستشرق الفرنسي مانسان في مقال نشره بالجريدة الآسيوية (سنة 1845م)، ثم تحدث عنها بإعجاب بالغ المستشرق الفرنسي شريونو في مقال نشره بالجريدة الآسيوية (سنة 1854م)، وأتبعه بترجمة بعض فصولها، ووالى كبار المستشرقين الإشارة إليها والإشادة بها.

ولفت الدكتور شاكر الفحام، رحمه الله، في تقديمه لطبعة؛ دمشق إلى عدم علمية تحقيق بن جدو وعدم اعتمادها، وأشار إلى نواقص تحقيق الفاسي معتبراً أنه افرغ في ذلك جهداً، ووفق في أكثر ما ذهب إليه، ولكنه أقل إقلالاً كبيراً من شرح الألفاظ والمعاني التي يحسن تفسيرها، وأضرب عن تخريج النصوص في مظانها، وهو أمر له شأنه في الموازنة بين النصوص المقتبسة، والنصوص كما جاءت في أصولها، وأغفل تخريج الأشعار، ولم يعرف بالأعلام التاريخية والجغرافية التي تحتاج إلى فضل تعريف وبيان، وهو ما سوغ إخراجها بطبعة علمية تلافت جميع النواقص السابقة، ويقصد بذلك طبعة دمشق.

فلسطين في رحلة العبدري :

وصف العبدري مدينة الخليل بإسهاب، ونقل عن مصادر شتى بعض فضائلها منسوبة إلى أبي هريرة وكعب الأحبار ووهب ابن منبه وابن عباس.

لم يشغل حديث العبدري عن القدس سوى أقل من أربع صفحات، الأمر الذي يتناسب، كما رأى الدكتور كامل جميل العسلي وإقامته القصيرة في المدينة، التي لم تتعدَّ خمسة أيام. حيث تناول بعض مشاهد المدينة وأماكنها المقدسة، ووصف المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وتحدث عن الحالة العلمية وخص بالذكر القاضي بدر الدين محمد بن جماعة.

ويتضح من وصف العبدري للقدس أنَّ المدينة كانت ما تزال تُعاني من آثار الخراب الذي حل بها سنة 616هـ، 1219م، عندما هدم الملك المعظم عيسى الأيوبي أسوارها، ومن الأحداث التي مرت عليها في أواسط القرن، حين سُلّمت للصليبيين وتمكنوا من احتلالها مرتين. ويأتي العبدري في كلامه الموجز على ذكر كنيسة القيامة ورباط المنصور ورباط البصير، وهما من أهم أربطة المدينة في ذلك الوقت، وقبر مريم عليها السلام في وادي جهنم، وقبر رابعة البدوية ومصعد عيسى عليه السلام (في الطور).

كما يسترسل العبدري في وصف عسقلان التي كانت خراباً حين مر عليها، وهو ما بينه ابن شداد في حديثه عن عسقلان من أن الملك الظاهر بيبرس أخرب قلعتها خشية استيلاء الفرنج عليها ويبدو انها بقيت خراباً في زمن العبدري.

وبالنسبة لغزة فقد أشار إلى إعمارها، الذي تفوق على جميع مدن الشام التي مر بها، وأشار أيضاً إلى ذلك قبل سنوات قليلة ابن شداد، غير أن العبدري انتقد انعدام العلماء والمحدثين فيها.

وفي الحقيقة هذا الأمر كان شأن معظم بلاد فلسطين، التي كانت ما تزال تعاني من ويلات الحروب الصليبية التي منعت عنها الاستقرار، وأدت بعلمائها إلى الهجرة إما إلى دمشق، كما مر معنا في الحديث عن بني قدامة، أو إلى القاهرة، كما يتضح من أسماء بعض العلماء المنسوبين لمدن فلسطينية في ذلك الزمن.

رحلة العبدري

الرحيل من المدينة المنورة

ثم رحل الركب من المدينة يوم الأربعاء الموفّي ثلاثين لذي الحجة راجعاً من طريقنا، حتى قرب من وادي الصفراء فتيامن وخرج من مضيق يعرف بنقب علي، مصوبا إلى الدهنا، ثم على ينبع ماراً على الطريق الأول إلى عقبة أيلة، فتيامن منها بعض إلى الشام وصوب الأكثر إلى مصر، وكان الركب الشامي رحل من المدينة على طريق المعلى إلى تبوك، وصحبه أكثر المغاربة حرصاً منهم على تقريب المسافة إلى الشام، لأنها أقرب من طريق البرية بكثير، ولكنها طريق شاقة قليلة الماء جداً، وردها على سبعة أيام، فحملهم الكسل والحَيْن [أي: الموت] المقدَّر إلى سلوكها مع ضعفهم، وتهتك قواهم فوقع عليهم الثلج وهم بالقرب من عمان، فأفنى خلقاً منهم كثيراً وذكر بعض من حضر ذلك أنه قد أحصي منهم ألف وسبعمائة، وما أعلم أنه مات ممن رجع على الطريق الأول إلا أقل من عشرة ماتوا بالمرض.

وسافرنا من عقبة أيلة إلى الشام صحبة الأمير الصالح علاء الدين الأعمى[167]، وصل الله تعالى علاه، فرأيت منه رجلاً قل أن يسمح الدهر بمثله سخاوة نفس، وسراوة همة، ومتانة دين، وصحة يقين، إلى علم جم قد حفظه سماعاً، وذكاء متقد يلمع إليه بالأمور الخفية إلماعاً، وصلاح معجز لا يبارى.

وسبق في ميدان الفضل لا يجارى، وصبر في ذات الله على تحمل الأذى وإغضاء للجفون طلباً لمرضاته على القذا.

---

(167) - ذكر الصلاح الصفدي في موسوعته (الوافي بالوفيات) في ترجمته ما يلي: (اسمه ايدغدي الأمير علاء الدين الأعمى الركني الزاهد ناظر اوقاف القدس والخليل عليه السلام انشأ العمائر والربط وغير ذلك واثر الآثار الحسنة بالقدس والخليل والمدينة النبوية كان من احسن الناس سيرةً واجملهم طريقةً انعمرت الأوقاف في ايامه وتضاعف مغلها، واشتهر ذكره وسار وكان من أذكياء العالم يقال عنه: إنه خط حمام بلد الخليل عليه السلام ورسم الأساس بيده وذره بالكلس للصناع وكان يحب الخيل ويستولدها، وقيل: إنه كان إذا مر به فرس من خيله عرفه وقال: هذا من خيلي توفي بالقدس سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وصلي عليه بدمشق)

ينام الناس وهو ساهر، ويستكنون وهو ظاهر، ويريحون وهو سارح، ويستريحون وهو غادٍ ورائح، رعيا منه للفقراء والمساكين وذبا للأذى عمن دب إليه الردى ولا معين.

يدأب على ذلك ولا يمل، ويصمم عليه بعزم يعقد ولا يحل، على أن السن قد أخذت منه مأخذها، تتسكب أنامله للعفاة بالنيل إنسكاباً، وتزري بوبل الغيث سمحاً وانصباباً، وأما الفراسة فلو رآه إياس، لعراه أياس، فضيلة ديانة، لا نتيجة زكانة[168]، وصنع قدير، لا تصنع تقدير، وتوفيق قدر، لا تدقيق نظر، ونور بصيرة، يستمد من صلاح سريرة. وقد حضرته واقفاً في مضيق والناس يخطرون عليه فخطرت امرأة على بعير مع قوم مشاة، فلما أحس بمشيها قال لهم أهي امرأة؟ قالوا نعم. وأخبرني من أثق به أنه يقف على البنائين في حرم الخليل عليه السلام وفي القدس، فيقول لهم هذا متقن، وهذا غير متقن، ولا يزال يعرفهم بما في بنائهم من عيب ويقفهم على دقائق ما فيه من فساد، مما لا يمكن البتة أن يتعرف إلا بالمشاهدة؟

وله مجلس علم يحضره ولا يتخلف عنه، وناهيك من شيخ كبير رئيس ملك من الملوك يجلس للفقراء يدرسونه من الصباح إلى المساء، ويقعد بين يدي المقرئ مجوداً عليه للكتاب العزيز، غير مستند قعود الصبي بين يدي معلمه، لا يأنف ولا يتكبر ولا يعتو ولا يتجبر. فسبحان من له الإبداع والإنشاء.

الوصول إلى مدينة الخليل عليه السلام

ثم وصلنا بعد ثمانية أيام إلى المحل الأنيس، والمعهد الذي يتخير فيه مقيل وتعريس، والمنزل الذي حكم له القدر بالسعادة حين التأسيس، مثوى لكل خاشع ومنيب، ومستقر كل خائف حذر من التأنيب، ومناخ كل مشتاق يحن حنين النيب[169].

حرم الخليل عليه السلام، وهي قرية مليحة المنظر والمخبر، أنيقة المسموع والمبصر، مشرقة كالصبح إذا أسفر، موضوعة ببطن واد قليل الماء والشجر، والمحيط بها حرار وعرة، والمسجد بنيته أنيقة من المباني القديمة الوثيقة، عالية البناء محكمة العمل من صخور منحوتة في نهاية العظم، منها صخرة في الركن الذي على يسار القبلة، وهي من الأرض على قدر القامة، فيها سبعة وثلاثون شبرا، يتعجب الناس منها ومن وضعها هنالك.

---

[168] - الزكانة هي العلم بالشيء عن طريق الظن والفراسة

[169] - النيب جمع ناب وهي الناقة المسنة. وقوله حنين النيب معناه أصوات حزينة تصدر عن الناقة إذا فصل عنها حوارها فهي لا تراه

ويقال إن البنية كلها من صنعة الجن، أمرهم سليمان عليه السلام بتجريدها على الغار، لما دثر ما كان عليه بتقادم الأعصار، وفيها تحريف عن الجنوب إلى الشرق، فلما ردت مسجداً جعل لها المحراب في الوسط كسائر المساجد تحصيناً لصورتها، ثم رد الركن الأيمن محراباً آخر تنبيهاً على تشريفها، وفي داخل المسجد قبر الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وتقابلها من ناحية يسار القبلة ثلاثة أخرى وهي قبور أزواجهم. وكان في غربي المسجد قبر يوسف عليه السلام دفن هنالك حين نقل من مصر بوصيته، والآن قد زيد في المسجد حتى رجع قبره في داخله.

وعلى يمين المنبر لاصقاً بجدار القبلة نفق يهبط منه على درج من رخام متقنة العمل، إلى مسلك ضيق هو ممر إنسان واحد، ويفضي إلى فسحة ليست بكبيرة مفروشة بالرخام وفيها صور ثلاثة قبور مقابلة للداخل في طول الحائط، مصطفة من الشرق إلى الغرب. ويقال هي علامات للقبور محاذية لها، وكذلك التي في المسجد، وذلك أنه كان هنالك غار كبير وفيه القبور ثم سد كله إلا المدخل المذكور وجعل للقبور علامات محاذية في بطن الغار، وهي التي في المدخل، وفي ظاهره وهي التي في المسجد، وكان باب الغار في مؤخر المسجد عند قبر يعقوب كما سيأتي ذكره، ثم رد عند المحراب كما ذكرنا، وقد نزلت إليه وتأملته مراراً، ودعوت الله فيه سراً وجهاراً، والحمد لله على حسن عونه.

ذكر مقابر الأنبياء بمدينة الخليل عليه السلام

وقد رأيت أن أقيد هنا شيئاً مما ذكر في هذه القبور وفي الغار، وما يتصل بذلك بحول الله وقوته، وما التوفيق إلا به.

وجدت بخط الفقيه القاضي المحدث الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مفرج الأندلسي رحمه الله، في تأليف علي بن جعفر الرازي، سماه (المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب) وهو جزء لطيف نقلته من خط ابن مفرج رحمه الله، وهو روى فيه عن مؤلفه المذكور حديثاً صدر به التأليف، مسنداً إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ولما أسري بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل إلى قبر إبراهيم، فقال انزل صل ها هنا ركعتين، فإن ها هنا قبر أبيك إبراهيم ﷺ، ثم مر بي ببيت لحم فقال انزل صل ها هنا ركعتين، فإن ها هنا ولد أخوك عيسى، ثم أتى بي إلى الصخرة وذكر الحديث في الإسراء.

وفي الجزء المذكور وبخطه: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن عمر بن جابر يقول:

وقد سئل عن قبر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وعن صحته، فقال ما رأيت أحداً من الشيوخ الذين لحقتهم من أهل العلم إلا وهم يصححون أن هذه قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأزواجهم صلوات الله عليهم، ويقولون ما يطعن في ذلك إلا رجل من أهل البدع.

وقال أبو بكر: هكذا نقل الخلف عن السلف، ليس عندي فيه شك، وذكر أبو بكر أن مالك بن انس قال: إن النقل أصح من الحديث، لأن الحديث ربما وقع فيه الخطأ، والنقل لا يقع فيه الخطأ.

وفيه بخطه سمعت عبد الواحد بن رزق يقول: قدم أبو زرعة القاضي الدمشقي مسجد إبراهيم، فجئنا ننظر إليه فرأيته قد وقف عند قبر سارة في وقت الصلاة، فدخل شيخ فدعاه فقال يا شيخ أيٌ هو قبر إبراهيم من هؤلاء؟ فأومأ إلى قبر إبراهيم، فجاءه شاب فدعاه: يا شاب أي هو قبر إبراهيم من هؤلاء؟ فأومأ إلى قبر إبراهيم. ثم جاءه صبي فدعاه فقال: يا صبي أيما قبر إبراهيم من هؤلاء؟ فأومأ الصبي إلى قبر إبراهيم ومضى.

فقال أبو زرعة أشهد أن هذا قبر إبراهيم الخليل لا شك فيه، هذا هو الصحيح نقل الخلف عن السلف كما قال مالك بن أنس، ثم دخل إلى داخل المسجد فصلى الظهر ثم رحل من الغد.

وفيه بخطه: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن عمر بن جابر يقول: خرجت سنة من السنين أنا وأبو بكر بن المرجى وجماعة من أهل العلم والورع إلى مسجد قبر إبراهيم، وكان لهم إمام يكنى بأبي حامد، فقال لنا رأيت في ليلة النصف من شعبان، وقد ركعت عند المنبر، فنعست، فرأيت فيما يرى النائم كأن آتياً أتاني فقال: تحب أن تنظر إلى القوم؟ وقد كنت أسأل الله اربعين سنة أن يرينيهم. فقلت: نعم فأخذ بيديَ إلى مؤخر المسجد قريباً من قبر يعقوب، فقلع بلاطه فإذا قد أضاء منها النهار فدخل ودخلت معه، وإذا القبور صف واحد، الرجال صف والنساء صف، كما هم فوق على كل واحد منهم غطاء أبيض، فرفع غطاء قبر يعقوب فإذا هو كهل من الرجال، كثير بياض اللحية ملقى على قفاه مستقبل القبلة. فقال: هذا يعقوب. ثم رد عليه الغطاء ومضى حتى أتى قبر إبراهيم في الوسط،، وعليه غطاء أبيض فرفعه فإذا شيخ أبيض الرأس واللحية أبيض الحاجبين كأن وجهه القمر، وهو على قفاه مستقبل القبلة، فقال: هذا إبراهيم ﷺ ورد عليه الغطاء ومضى ومضيت معه. ثم جاء قبر إسحاق، فقلت: في نفسي ليت فلاناً كان معي حتى يراهم، فالتفت إلي وهو أمامي فقال أن فلاناً، لا يقدر أن ينظر إلى هؤلاء لأنه مشاحن، والمشاحن لا يرى هؤلاء. ثم انتبهت ولم أبلغ قبر إسحاق، قال: فحكيت هذه الحكاية لعلي

بن محمد ابن هارون، إمام كان بمسجد إبراهيم أقام به نحو عشرين سنة. قال: أنا رأيت باب المغارة في مؤخر المسجد وأراني بلاطة وقال هذه على الباب، وهو درج ينزل منه ثم يعطف إلى القبلة قريباً من قبر يعقوب.

وفيه بخطه: عن كعب الحبر حديث في سكنى إبراهيم الشام، قال فيه: ثم أوحى الله إليه أن انزل (ممرى)، فرحل ونزل ممرى، ونزل عليه جبريل وميكائيل بممرى، وهما يريدان إلى قوم لوط. فخرج إبراهيم ليذبح لهم العجل فانفلت منه فلم يزل حتى دخل مغارة حبرون، ونودي إبراهيم سلم على عظام أبيك آدم، فوقع ذلك في نفسه ثم ذبح العجل وقدمه إليهما، وكان من شأنه ما نص الله تعالى، فمضى بهم إلى قرب من ديار قوم لوط، فقالا له: اقعد هنا فقعد واستلقى على قفاه، فلما رأى المدن قد انقلبت بأهلها وسمع صياح الديكة في السماء، قال: هذا هو الحق اليقين، فأيقن بهلاك القوم، فسمي ذلك الموضع مسجد اليقين، ثم رجع فطلب من عفرون المغارة. قال: وكان ملك ذلك الموضع. قال له: بعني موضعاً أقبر فيه من مات من أهلي فقال له أيها الشيخ الصالح أدفن حيث أردت، فأبى عليه إلا بثمن، فقال: أبيعك بأربع مائة درهم في كل درهم خمسة دراهم، كل مائة منها ضرب ملك، وأراد أن يشدد عليه لكي لا يجد فيرجع إلى قوله، فخرج من عنده فإذا جبريل عليه السلام، فقال: إن الله عز وجل قد سمع مقالة هذا الجبار لك، وهذه الدراهم فادفعهما إليه، فدخل عليه إبراهيم ودفع إليه الدراهم، وقال من أين لك هذا؟ قال من عند إلهي ورازقي، فأخذ منه الدراهم، فصارت المغارة مقبرة له ولمن مات من أهله.

قال: وأول من مات ودفن في حبرون سارة زوجة إبراهيم، ثم توفي إبراهيم فدفن بحذائها، ثم توفيت ربقة زوجة إسحاق، فدفنت فيها، ثم توفي إسحاق فدفن بحذائها، ثم توفي يعقوب فدفن عند باب المغارة، ثم توفيت ليفا فدفنت بحذاء يعقوب. ثم ذكر أن أولاد يعقوب تشاجروا حتى سد باب المغارة وحوطوا عليه حائطاً، وأعلموا فيه علامات القبور وكتبوا على كل قبر اسم صاحبه وخرجوا عنه، وأطبقوا بابه فكان من جاء زائراً يطوف به لا يصل إليه أحد، حتى جاء الروم ففتحوا له بابا ودخلوا إليه وبنوا فيه كنيسة. وفيه بخطه مسنداً إلى ابن عباس رضي الله عنه: لما أراد الله أن يفيض روح خليله إبراهيم عليه السلام، أوحى إلى الدنيا أني دافن فيك خليلي، فتشامخت الجبال كلها فرحاً واضطربت أركانها واستشرفت لذلك، وتواضعت منها بقعة يقال لها حبرون، فشكر الله تعالى لها ذلك، ودفنه فيها، فقال لها: يا حبرون أنت شوعي أنت شمشوعي أنت قدسي،

أنت قدس قدسي فيك أدفن خيرتي من خلقي، فيك مغارة كنزي وإليك احشر أصفيائي وأحبائي من ولد خليلي، من كل فج فطوبى لمن وضع جبهته فيك سأجزل لأبويه الأجر، وأجزل له الدخر، وأبارك فيه وفيك أيام الدهر عليك تنزل بركاتي وإليك تهبط ملائكتي يستغفرون لمن زار خليلي وصفيي فطوباك ثم طوباك، لا رفعت رحمتي عنك، ولا زال نوري وظلي ينزل عليك، ورحمتي تتحدر عليك، ولا خذلت من زار قبر خليلي، ولا زالت بركاتي عليك أيام الدنيا مضاعفة.

وفيه بخطه عن وهب بن منبه اليماني أنه قال: إذا كان آخر الزمان حيل بين الناس وبين الحج، فمن لم يحج ولحق ذلك، فعليه بقبر إبراهيم عليه السلام فإن زيارته تعدل حجة.

وعن كعب الحبر قال: قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة وربقة وليفا على يوم من بيت المقدس في البقعة المعروفة بحبرون، فمن زار منكم بيت المقدس فليجعل مع زيارته زيارة قبر إبراهيم ﷺ.

قلت يظهر من الأحاديث المتقدمة أن ممرى اسم البلد، وحبرون اسم البقعة التي فيها الغار، وعفرون اسم الملك، وتقييدها على ما وجدت بخط ابن مفرج، ممرى بميمين أولاهما مكسورة وبعدهما راء مهملة بعدها ألف، وحبرون بحاء مهملة مفتوحة بعدها باء بواحدة ساكنة، وراء بعدها واو أخره نون.

وفي حديث آخر حبرى مثل سكرى. وعفرون بعين مهملة مفتوحة بعدها فاء ساكنة وراء بعدها واو ونون، وربقة براء مهملة مفتوحة بعدها باء مكسورة وقاف، وآخرها تاء التأنيث وليفا بلام مكسورة بعدها ياء باثنتين من تحتها ساكنة، وغين معجمة، وآخرها ألف.

وفي حديث آخر ربقة بالراء وهاء التأنيث، وأما قوله في حديث ابن عباس شوعي وشعشوعي فلا أعرفه، ولولا أني وجدته بخط من ذكرت ما جسرت على نقله وإني من عهدته لبريء وبالله التوفيق.

فصل :

ثم زرنا تربة لوط وهي شرقي حرم الخليل عليهما السلام على تل مرتفع يشرف منه على غور الشام، وهو شرقيها، وهنالك بحيرة لوط، وهو ماء مستبحر أجاج كماء البحر، وهي منقطعة لا تتصل بالبحر ولا هي منه قريبة ويقال إنها موضع ديار قوم لوط

والله أعلم. وعلى قبر لوط عليه السلام بنية وهو في بيت منها مبيض مليح، والقبر أيضاً مبيض ظاهر لا ستور عليه.

ويمقربة من هذه التربة مسجد اليقين وقد مر ذكره وحديثه في ذكر مغارة حبرون، وهو أيضاً على تل مرتفع نـزه لـه زيادة رونق وفرط إشراق، وليس هنالك إلا دار واحدة لاصقة بالمسجد من ناحية الشرق، ويسكنها القيم، وفي المسجد قريباً من الباب موضع منخفض في حجر صلد قد هيئ له صورة محراب ليعلم أنه مركع، ولا يسع إلا مصلياً واحداً، ويقال: إنه لما أيقن عليه السلام بهلاك قوم لوط خر لله تعالى ساجداً، فتحرك موضع سجوده حتى ساخ في الأرض قليلاً، وهو حجر صلد كما تقدم، فجعل مركعاً تبركاً به.

وبالقرب من المسجد مغارة فيها قبر يزار ويتبرك به، وهو قبر فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم، وقد وجدت عند القبر لوحين من رخام موضوعين وأظنهما كانا مثبتين عند رأس القبر ورجليه، وفي أحد اللوحين منقوشاً بخط مشرقي مليح: بسم الله الرحمن الرحيم، لله العزة والبقاء، وله ما ذرا وبرا. وعلى خلقه كتب الفنا . وفي رسول الله أسوة وعزاء. هذا قبر أم سلمة فاطمة ابنة الحسن وفي اللوح الآخر صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحته هذه الأبيات. [من البسيط]

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه	بالرغم مني بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة	بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر بنت الزكي الطاهر الحسن	الندب الهمام حسين أطهر البشر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع	ومن عفاف ومن صدق ومن خفر

وكان موضع البيت الثالث من اللوح مثلوماً فذهب عجز البيت ولم يبق إلا الألف واللام والنون من الندب، فكملت عليه بقية البيت والحمد لله.

التوجه من الخليل إلى بيت المقدس

ثم سافرنا من حرم الخليل عليه السلام بعدما أقمنا عليه خمسة أيام وصلينا فيه الجمعة، إلى بيت المقدس وبينهما مسيرة يوم، وزرنا في طريقنا قبر يونس عليه السلام، وهو على نحو ثلاثة أميال من بلد الخليل عليه السلام، وعليه بنية كبيرة ومسجد، ومررنا في طريقنا ببيت لحم فلم يقض لنا دخوله، وهو قريب من بيت المقدس. وقد تقدم أنه مولد عيسى عليه السلام والنصارى يعظمونه ويقومون به غاية القيام، ويضيفون من نزل

به. ثم وصلنا إلى بيت المقدس زاده الله تعظيماً، وألحفه مبرة دائمة وتكريماً. مسجد الأنبياء وقبلتنا قديماً. ومطلع الأولياء يطلعهم عظيماً فعظيماً. أحد المساجد التي إليها تعمل المطي، وتضاعف بها الحسنات لكل بر تقي، مصعد نبينا ﷺ، إلى مستوى يسمع فيه صرير الأقلام، ومعراجه حين عسعس الظلام، إلى مناجاة الملك العلام، والقدس المقدس المفني من الآثام، نجعة من راد وري من حام، خفق برقه فوق من شام، وتدفق ودقه فأفرق ذو الهيام، لو نطق محتجاً بفضيلته الشام، لأفحم به العراق أي إفحام. والبلد مدينة كبيرة منيعة محكمة كلها من صخر منحوت، على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم، هدمه الملك الظاهر[170] خوفاً من استيلاء الروم عليها وامتناعهم بها.

والخراب فيها فاشٍ وليس لها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة عليها، وبها كنيسة معظمة عند النصارى يحجونها في كل عام، وهي التي يزعمون أن فيها قبر عيسى ﷺ. وعلى كل من يحجها منهم ضريبة معلومة للمسلمين، وضروب من الإهانة يتحملها راغماً.

وبها رباطان متقاربان في غاية الإتقان بنى أحدهما الملك المنصور، وبنى الآخر الأمير علاء الدين الأعمى. وفي كليهما رزق جار للمنقطعين وأبناء السبيل، وفي شرقي البلد واد يعرف بوادي جهنم في بطنه كنيسة يعظمها النصارى، ويقال إن بها قبر مريم عليها السلام، وفي عدوته على تل مرتفع منارات منها قبر رابعة البدوية، بالباء منسوبة إلى البادية، ومنها بنية أخرى يقال إنها مصعد عيسى ﷺ.

ذكر المسجد الأقصى

أما المسجد الأقصى فهو من المساجد الرائقة العجيبة المنشرحة الفسيحة، وهو متسع جداً طولاً وعرضاً. وذكر أبو عبيد البكري أن طوله سبع مائة واثنان وخمسون ذراعاً بالمالكي، وهو ثلاثة أشبار. وطوله من الجنوب إلى الشمال. وعرضه أربع مائة وخمس وثلاثون، وهو من الشرق إلى الغرب. وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال، ولا أعلم له باباً قبلياً سوى الباب الذي يدخل منه الإمام.

وذكر بعض الناس أن عددها خمسون باباً، والمسجد كله فضاء غير مسقف في نهاية الإحكام وإتقان العمل، وفيه تزويق كثير وتذهيب رائع مليح.

---

(170) - الذي هدم سور القدس هو الملك المعظم عيسى سنة 616، وليس الظاهر بيبرس، لأن الصليبيين في عهد الظاهر بيبرس كانوا اعجز من ان يهدموا اي مدينة في الشام

وهذا المسقف في الركن الغربي من ناحية الجنوب، وفي ناحية الشرق مواضع مسقفة مع طول الحائط وعلى الأبواب، وهنالك موضع عيسى عليه السلام يقصد للركوع فيه والتبرك به وهو هزمة[171] في الأرض مبيضة. وهذا الحائط الشرقي هو سور المدينة من ناحية الشرق، وهو على طرف الوادي المذكور أولاً وعلى جهة منه منطقة بعيدة المهوى جداً.

وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة، وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها وأغربها، وقد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة، وتلت من الإتقان ظاهره ونصه، وتجلت في جمالها الرائع كعروس حسناء جليت على منصة. قامت مشرفة متبرجة على يفاع. تصرح وتلوح بالإعراب والإبداع.

وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصناع، حسنها الأول فاستحسنها الآخر وانعقد الإجماع. تنازع الكمال منها الظاهر والباطن، لما سلما معاً من كل عائب وشائن، واجتمعت في كليهما أشتات المحاسن، فإن أدلى الظاهر بحجته إلى حكم الطرف حكم له، وإن أعرب الباطن عن فضائله قال له الطرف ما أكمله. تناصف الحسن وتماثلت الأدلة، فليس إلا أن يقال في جواب المسألة: أيهما جاء أولاً عمل عمله.

وصفتها أنها قبة مثمنة على نشز في وسط المسجد، ويطلع إليها في درج من رخام وقد أحاط بها، ولها أربعة أبواب، والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة وداخلها كذلك.

وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق ما يقصر عنه الوصف، وأما الذهب فما رأيته مبتذلاً في شيء كابتذاله في هذه القبة، حتى لقد غشي به أكثرها ظاهراً وباطناً فهي تتلألأ ساطعة الأنوار، كلمعان برق أو اشتعال نار. وقد ذهب الأعلى من ظاهرها إلى حد التسقيف، وألبس سقفها لين الرصاص المحكم الإلصاق حتى صار جسداً واحداً.

وأما باطنها فيكل عن وصفه اللسان، ويحار في حسنه إنسان الإنسان، تبهر الناطق أشعته الباهرة، وتستوقف الخاطر محاسنه الظاهرة، أسكرت العقول فصارت لها عقالاً، وكلت الألسن فما وجدت مقالاً، فاقت حسناً وكمالاً، فقطعت لسان من يغمز، وراقت حلى وأوصافاً، فأسرت فؤاد المتحرز، إن وعدت الإعجاب خيراً فهي مشاهدة تنجز، أو افتخر مكان لتحدث من حسنها بالمعجز. [من الكامل]

شرك العقول ونزهت ما مثلها ... للناظرين وعقلة المستوفز

[171] - الهزمة: الحفرة

وفي وسط القبة الصخرة التي جاء ذكرها في الآثار وانه ﷺ عرج عنها إلى السماء، وهي صخرة صما علوها أقل من القامة، وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة، وينزل إليه في درج، وقد هيئ له محراب وسوي وأتقن.

وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها أحدهما وهو الخارج من الخشب، والآخر من حديد أصفر محكم العمل بديع الصنعة، وفي القبة صورة درقة[172] كبيرة من حديد معلقة هنالك، وأظنها كانت مرآة ولكنها قد صدئت وزال صقالها. والعوام تقول إنها درقة حمزة، واشتهر عندهم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به.

ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره، من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنياً به إلا شيخاً هو قاضي البلد يلقب بدر الدين، وهو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة[173] له مجلس علم يدرس فيه أول النهار في المسجد عند المحراب، ومجلس سماع ويروي فيه بعد صلاة العصر يوم الجمعة في قبة الصخرة.

وقد حضرت كلا المجلسين فلم أخرج منهما بطائل، وكلمته في أشياء تخبط فيها وتعسف، فلم أجد من نفسي إذعاناً للأخذ عنه على قلة همته في الرواية، إذ وجدته يروي عن نظائره من أهل مصر ومن لا يزيد عليه في السن إلا يسيراً إلى أخلاق وصف لي بها تريب الأريب، وتنفر النسيب والغريب. فله تواليف منها اختصار كتاب أبي عمرو بن الصلاح في علوم الحديث[174]، ومنها كتاب حذا فيه حذو السهيلي في كتاب الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام[175]. أغار فيه على الكتاب المذكور إغارة، وسماه غرر البيان في مبهمات القرآن، ومنها كتاب المسالك في علم المناسك، لم يأت فيه ببديع، ولا شق الظلماء من بيانه صنيع.

وكانت إقامتنا بالقدس خمسة أيام.

---

[172] - الدرقة هي درع او ترس من الجلد الخالص

[173] - قاضي من علماء الحديث وسائر علوم الدين ولد في حماة 1241/639 وولى الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء في مصر والشام توفي بمصر 733 هـ/1233 م له عدة تآليف (انظر الأعلام 5/297 - 298).

[174] - هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) بن عثمان الشهرزوري، ابو عمر تقي الدين (577 - 634/ 1181 - 1245) احد المقدمين في التفسير والحديث والفقه من شيوخ الصلاحية بالقدس له كتاب «معرفة انواع علم الحديث» مشهور، يعرف بمقدمة ابن الصلاح (الأعلام 42/207).

[175] -عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي، حافظ عالم باللغة والسيرة، ولد في مالقه 1114/508. اتصل امره بصاحب مراكش فطلبه إليها واكرمه توفي بمراكش 1185/581. نسبته إلى سهل من قرى مالقة له «التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام»

[عسقلان]

ثم زرنا ثغر عسقلان جبره الله وهو خراب يباب[176]، لا أنيس به إلا أطلالاً ماثلة، وآثاراً طامسة. تؤثر في القلب تباريح الأسى، وتعيد المشرق من أنيسه حندساً. تحث المبصر على إعمال العبرة، وإسبال الجفون بوابل العبرة. وتذكر بمن مضى وانقضى، وتضرم في الجوانح جمر الغضا. وتهون على العاقل شأن هذه الدار، وتنادي الحذر الحذر والبدار. لما دلت عليه من ضخامة الراحلين عنها، وفخامة الظاعنين المنزعجين منها. لم تحمهم تلك القصور العالية، ولا وقتهم تلك المباني السامية، بل صاروا تراباً وهي خراباً، وعادوا أمواتاً تندبهم تلك الطلول الدراسة، وتنذر ما حل بهم تلك الرسوم الطامسة، فتلك الآثار أسطار في ديوان البلى مقروة، وتلك الصور سور في ذوايب الدنا متلوة. عجباً لها لما استعجمت أبانت، ولما أشكلت بانت، وعظت وما لفظت، ونصحت وما أفصحت، حركت الساكن بسكونها، وأظهرت الكامن بكمونها، إن أثر الزمان المحو في مرسومها، فالمحو أوضح كل المعنى من مفهومها.

تأمل كتاب الكائنات تأملاً	به أبداً تلهى عن اللهو واللغو
وزد كل ممحو السطور تدبراً	فقانون علم النحو في ذلك المحو

وقل ما رأيت من البلدان، أن جمع من المحاسن ما جمعت عسقلان، جبرها الله صنعاً وإتقاناً، ووضعاً ومكاناً، وبراً وبحراً، عامراً أو قفراً، لها على البر والبحر طرف ممتد، وحكم ماض لا يرتد. ترنو إليهما من طرف، وتتلو عليهما سور الشرف، وتزهو بتقلبها في الترف، في روضة جمة الأزهار والطرف.

وأما مبانيها فلو فاخرتها إرم، لقيل لها نفخت في غير ضرم، أو حاسنتها بابل، لصاب عليها من مطر التعنيف وابل، وأسرع إليهما ملام كالمعابل[177]. لفتك لامين على نابل. وبها مزارة رأس الحسين رضي الله عنه، وهو مسجد كبير مليح مرتفع، والمسقف منه ناحية القبلة، وفيه جب كبير لماء المطر، وأمر ببنائه بعض بني عبيد، وكتب ذلك على الباب، وقد تقدم ذكره في رسم مصر والحمد لله.

وفي قبلة هذه المزارة مسجد كبير مليح يعرف بمسجد عمر، وقد تهدم ولم يبق إلا حيطانه، وفيه من أساطين الرخام قائمة وموضوعة ما هو النهاية في الحسن، وبه

---

(176) - يذكر ابن شداد في الفصل السابق أن الملك الظاهر بيبرس هو الذي أخرب حصن عسقلان بعد أن حرره من الصليبيين، ويبدو أن المدينة برمتها بقيت خراباً في ذلك الزمن

(177) - المعابل جمع معبلة بكسر الميم وهي نصل عريض طويل

أسطوانة حمراء مليحة جداً، ويحكى أن النصارى حملتها إلى بلادهم فأصبحت بموضعها في المسجد[178].

وفي وقبلة المسجد بير عظيمة متقنة العمل، عجيبة الصفة تعرف ببير إبراهيم، ينزل إليها في درج متسع، ويدخل منه في بيوت شارعة فيه، وفي البير أربعة عيون، واحدة من كل جهة، وتخرج أسراب مطوية بالحجارة، يقابل بعضها بعضاً، وماؤها طيب عذب، ولكنها ليست بغزيرة، ويحكى في فضائلها أشياء لا تقع الثقة بصحتها والله أعلم.

وبظاهر عسقلان واد يعرف بوادي النمل، ويقال إنه المذكور في الكتاب العزيز، وقد ذكر المفسرون أنه وادي الشام، وفيه جبانة عسقلان. وبها من قبور الأولياء والشهداء مالا يحصره عد، وأكثرها مسمى معروف، وقد وقفنا عليها وأرانا إياها شخص مقيم بعسقلان، وهو قيم التربة المذكورة، وله شيء من جراية أجراها له ملك مصر قيدته هنالك، مع ما يرضخ له به من يسمح من الزوار.

وكان دخولنا عسقلان في وقت الظهر، فصليناها بمسجد الحسين ثم خرجنا قبل العصر إذ المقام به غرر، والله ولي التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[غزة]

ثم وصلنا إلى غزة حماها الله وهي آخر بلاد الشام مما يلي مصر، وبينها وبين الصالحية أول بلاد مصر ستة أيام.

وغزة مدينة متسعة عامرة لا سور لها، وبينها وبين البحر مسافة أميال، وهي أكثر عمارة من كل ما تقدم ذكره من بلاد الشام، وهي جسر إلى مصر وإلى الشام، وبها أسواق قائمة ومساجد معمورة ولها جامع مليح حسن، ولكنها قد عريت عن عالم أو متعلم، وأقفرت من فقيه ومتكلم، فهي عامرة، وقائمة داثرة. وهذا أمر شمل في هذا الأوان المدن والقرى، وعم بحكم القدر أصناف الورى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم سافرنا من غزة مستقبلين لبرية الشام، مطرحين لدواعي النكول والأحجام، مصافحين لأوجالها مكافحين لأهوالها. وهي كلها رملة وعثاء، وبرية دوية عشراء. كأن سالكها يخوض وحلا، أو يدافع من رملها المنهال سيلا، ومسافتها ستة أيام، كأنها لفرط العنا أعوام، ولو جمعت إلى وقتها المعني طولاً، لأعادت كل سالك لها بقيد الحمام

---

[178] - أي أنها عادت من بلاد الفرنج وحدها، وهي خرافة متداولة ذكرها أكثر من رحالة زار المكان

معقولاً[179]، ولكن العزائم تقوى إليها بقرب المسافة، مع حصول الأمن بها وانتفاء المخافة، وذلك أن كل مرحلة منها منهلة عامرة، والقوافل بها ليلاً ونهاراً مريحة وسائرة، لا تستدبر ميلاً، إلا لقيت بها مستقيلاً. ولا تزمع تحويلاً، إلا وجدت في وجهتك متحولاً. فخف بذلك عناها وإن لم يخف، وذبل به عود لأوائها وهو من النضارة يرف، وقل ما فارقها سالك إلا عاد نضوا طليحاً، ولا ألقى عصا التسيار بها مسافر حتى صار لقى طريحاً.

ثم وصلنا إلى الصالحية أول بلاد مصر ولكنها معدودة في البرية، لضيق أرزاقها وشكاسة أخلاقها، وإفراط عنائها، وأضرار هوائها، قرية تقري ضيفها قرا وطوى، وتوحشه من أنسها حتى يأنس بالذيب إن عوى.

ومنها إلى قاعدة مصر قرى ظاهرة متصلة، وعمارة متظاهرة متأصلة، مسيرة خمسة أيام، لا يتعذر بها مرام. وأعظمها عمارة. وأسناها بزة وشارة. مدينة بلبيس وهي مدينة كبيرة، ذات أسواق قائمة ولها نخل وبساتين.

---

[179] - اي بقيد الموت مقيداً

شيخ الربوة

وصف فلسطين بعد خروج الصليبيين

من النصوص التي تحدثت عن وصف بعض مناطق فلسطين بعد الحروب الصليبية مباشرة، نص شيخ الربوة الدمشقي ثم الصفدي، حيث قدم فيها وصفاً دقيقاً لشمال فلسطين بعد جلاء الصليبيين عنها مباشرة لا يوجد في غيره.

كان أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة، إماماً بمسجد الربوة، قرب دمشق فنسب إليها، ولقب بالصوفي لميله إلى التصوف. ويبدو أن ميوله الصوفية قد أدت به إلى اعتزال العالم آخر حياته، فقد أقام ببعض نواحي فلسطين متزهداً، إلى أن توفي بصفد عام 727هـ، 1337م. أي قبل وفاة المؤرخ والجغرافي أبي الفداء بخمس سنوات.

وكانت له معرفة بالعلوم الدنيوية فوضع كتابه الشهير (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) ويتضمن وصفاً للأقاليم السبعة وفصول السنة وبحثاً في الجواهر والأحجار الكريمة، ووصفاً للأنهار والعيون والآبار وبحثاً في البحار وخاصة البحر المتوسط، كما يتضمن كتابه بحثاً في ممالك الشرق والغرب، من الهند وإيران والشرق الأدنى ومصر وإفريقية الشمالية، كذلك يحتوي على معلومات كثيرة في النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض.

حقق موسوعة «نخبة الدهر» المستشرق الدانماركي ميهرن عام 1866 ميلادية، وصدرت بطبعة أخرى في سانت بطرسبورغ عام 1886 ميلادية، ثم أعيد طبعها في لايبزغ عام 1923 ميلادية بتحقيق ميهرن أيضا مع ترجمة فرنسية.

وفي هذه الطبعات أغلاط إملائية كثيرة، وهي بحاجة إلى تحقيق، وتصويب للكلمات والأسماء وشرح للمفردات، بما يعطي هذا الكتاب حقه، ويجعله سهل التناول من قبل الباحثين والراغبين في الاطلاع على الأحوال في مطلع العصر المملوكي[180]، وقد حاولنا التصويب قدر المستطاع في هذا القسم من الكتاب.

---

[180] - نخبة الدهر مقدمة ميهرن الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني ج3 ص458، تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ج1 ص 386.

تحدث شيخ الربوة عن التقسيمات الإدارية الجديدة المستحدثة في بلاد الشام خلال دولة المماليك، وهي معلومات غاية في الأهمية، تسهم في رسم صورة لأوضاع فلسطين بعيد خروج الصليبيين منها . وقد استخلصنا الحديث عن مدن فلسطين وأعمالها من الفصل الذي يتحدث عن بلاد الشام عموماً، ولأن التبعية الإدارية كانت متداخلة إلى حد كبير، إذ كانت أراضي فلسطين ومدنها تتوزع بين مملكة دمشق، ومملكة صفد، ومملكة الكرك، ومملكة غزة.

ولعل الوصف الأهم الذي لايوجد عند غيره، هو حديثه عن برج صفد، الذي شبهه بمنارة الإسكندرية لضخامته وارتفاعه، وهو كذلك حقاً، وحديثه عن البئر العجيبة في صفد أيضاً، وهي معلومات خاصة به، حصّلها من خلال إقامته في هذه المدينة أواخر حياته.

ومع أنه يشير إلى خراب معظم الحصون والمدن التي كان الفرنج يحتلونها في فلسطين، إلا أنه يشير إلى ازدهار الأعمال والقرى التابعة لها، وهو ما يؤشر إلى ازدهار زراعي عبر عن نفسه بالحديث عن زيت الزيتون النابلسي، الذي كان يصدر إلى جميع أنحاء العالم، وكذلك حديثه عن فواكه وخضار وخيرات في جميع الأعمال الفلسطينية التي تحدث عنها.

ولعل اللافت للنظر في حديث شيخ الربوة عن بيت المقدس، إضافة إلى اختصاره، إتباعه بيت المقدس إلى مملكتين من ممالك بلاد الشام التسمة، ففي البداية تحدث عن أن بيت المقدس من أعمال مملكة دمشق، ثم ما لبث أن قال في نهاية الفصل إنها من أعمال مملكة غزة. وهذا التداخل مفهوم في سياق أهمية هذه المدينة وسعي الحكام لأن تكون تابعة لهم. ومن المرجح أن تبعية القدس كانت مترجحة في ذلك الزمن وحسب قوة السلطان ونوابه.

في وصف فلسطين والأردن
وإلى حدود ساحل البحر الرومي بالشام

قالوا سمّي الشام شاماً لشامات في أرضه بيض وسود، ولأنه في جهة الشمال من جزيرة العرب، أو لأن ساماً بن نوح نزل فيه، وإنما أبدلت السين شيناً للتفاؤل.

وحدّه الأول طولاً من ملطية وإلى العريش، ومسافته سبعة وعشرون يوماً وعرضه الأعرض من منبج وإلى طرطوس.

وكان مقسوماً في أيام الروم بأربعة أقسام: قسم قصبته دمشق، وقسم قصبته طبرية وتسمّى الأردن، وقسم قصبته حمص، وقسم قصبته إيليا وتسمى فلسطين.

وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه، فلما جاء الإسلام وأراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يفتح الشام، بعث إلى كل عمل جنداً وأمّر عليهم أميراً، فبعث إلى حمص أبا عبيدة بن الجراح، وإلى دمشق يزيد بن أبي سفيان، وإلى الأردن شرحبيل بن حسنة، وإلى فلسطين عمراً بن العاص وعلقمة بن محرز، وأمره إذا فرغ منها يترك علقمة بفلسطين، فتركه وسار إلى مصر وسميت هذه الأعمال يومئذ اجناداً.

وكانت قنسرين مضافة إلى حمص إلى أن ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة، فقصده أهل العراق فأتوا علياً، فأنزلهم قنسرين والعواصم والثغور، وصيرها جنداً وأفردها عن حمص.

وبقي الأمر على هذا إلى أن ولي الرشيد الخلافة، فأفرد العواصم والثغور وجعلها جنداً واحداً، وذلك في سنة سبعين ومائة، فصار الشام مقسوماً إلى ستة أجناد.

ثم قسم الشام في الدولة التركية [المملوكية] إلى تسعة أقسام: منها قسم ملكوه التتار والأرمن والروم وانفصل عن الشام وسمّي روماً[181].

---

[181] - هذا القسم من الشام هو منطقة كيليكية والثغور والعواصم، ودخلت إلى ما يسمى بلاد الروم أي تركيا في ذلك الزمن

[مملكة دمشق]

والقسم الأول من الثمانية وبه دار الإمارة الكبرى في عصرنا دمشق: (..)

مدينة مرد وعملها السواد.

وإقليم جرش، ومدينته[182] عجلون، وفيها حصن حسن حصين وفيه أمياه جارية وفواكه كثيرة وأرزاق غزيرة وهو مشرف يرى من مسيرة أربعة أيام.

وإقليم بيت رأس.

وإقليم سوسيا[183].

[نابلس]

وإقليم سامرة، ومدينته نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين، متسعة ما بينهما ذات أمياه جارية وحمامات طيبة، وجامع حسن، تقام فيه الصلوات وكثير قراءة القرآن به ليلاً ونهاراً، والاشتغال فيه كثير. وهي كأنها قصر في بستان قد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة، وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العريان، ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي، ويعمل منه الصابون الراقي، يحمل إلى سائر البلاد الذي ذكرنا، وإلى جزائر البحر الرومي، ولها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض، ولها الجبلان وهما طور سينا، وطور تينا[184]، وإليهما حج السامرة وقربانهم على الطور يذبحون الخرفان ويحرقون لحومها.

ولا توجد في بلد من البلدان من السامرة ما يوجد منهم بها، ويقولون إنهم لا يبلغون في بلد منهم الألف أصلاً. ويقال إنه إذا اجتمع في طريق مسلم ويهودي وسامري ونصراني رافق السامري المسلم.

وإقليم فحل.

---

[182] - وردت مدينة خطأ.

[183] - هو الساحل الشرقي لبحيرة طبرية، ومدينته القديمة هي هيبوس إحدى مدن الديكابوليس أيام الرومان، وهو من أقاليم الجولان الطبيعي

[184] - في النص طور زيتا هو جبل الزيتون باللغة السريانية، وهو عند السمرة جبل جرزيم، بينما الشائع والمعروف أن جبل الزيتون أو طور زيتا هو الجبل المشرف على القدس وقد صححنا نص شيخ الربوة بناء على نص ابن شداد الأعلاق الخطيرة الذي نعتبره المصدر الذي نقل عنه، نظراً لتطابق الجمل والعبارات

[بلاد الغور]

والغور الأعلى والقصير[185]، ومدينته[186] بيسان.

والغور مقسم ثلاثة أقسام: الأعلى هذا.

والأوسط غور عمتا[187] واريحا.

والأسفل غور زغر، ومدينته زغر، وطوله نحو من أربعة أيام، وعرضه الأعرض يوم. ومن عجيب مياهه الجارية أن بأعلاه بحيرة قدس يفيض الماء ويسبح نهراً هو نهر الأردن، ثم يمرّ ويصبّ في بحيرة طبرية بوسط الغور، ثم يخرج ويمر بالغور في وسطه حتى يصب في بحيرة لوط عليه السلام بأسفل الغور ثم لا يخرج منها فكأن نهر الأردن فلك دائر مطلعة من بحيرة قدس بأعلى الغور ويوسط دوره قوسه بحيرة طبرية، وغروبه ببحيرة زغر وبه من العجائب ما سنورد ذكرها في خصائص البلاد عند ذكرنا لها.

ومن أعمال دمشق أيضاً: كورة بيت جبريل، وكورة عمواس، وكورة بني عطية، وبلد الخليل عليه السلام، واسمه حبرون، وغور مدينة عمتا، وغور داميه، وهي الأوسط. ومدينة السلط ولها عمل كبير كالزرقا والصويت وجبل بني عوف وجبل بني هلال.

[القدس]

ومن أعمال دمشق وجندها أيضاً البيت المقدّس بمدينة القدس، واسمها بالعبراني أورشليم، يعني دار السلام ومدينة سلم.

وأرضها الأرض المقدسة المبارك حولها، وحدود الأرض المقدسة: طولاً من أذيال جبل السنير وهو جبل الثلج شمالاً عند مرج عيون، وإلى آخر جبل الخليل عليه السلام وأول التيه. وعرضها من الأردن إلى البحر الرومي غرباً.

وأول باني بيت المقدس كان داود عليه السلام فلم يتمّه وأتمّه وزاد فيه كثيراً ولده سليمان عليهما السلام، وشهرة البيت المقدس تغنينا عن ذكره وذكر ما فيه.

---

(185) - قصير ابن معين الدين وهو في منطقة الغور إلى الشرق من سمخ جنوب شرق طبرية

(186) - وردت في النص مدينة والصحيح ما اثبتناه

(187) - وردت في النص غور حمقا والصحيح ما اثبتناه اعتماداً على نصوص اخرى منها نزهة المشتاق للادريسي الذي وصفها بأنها مدينة الغور، والإشارات للهروي الذي قال إنها في غور نابلس، وعمتا مدينة قديمة من مدن الديكا بوليس كانت تسمى اماتا (عماتا)

[الرملة]

ومن مدن الأرض المقدسة مدينة الرملة، بناها سليمان بن عبد الملك بن مروان وجعلها القصبة ثم توالت عليها الزلازل فانتقل منها أهلها إلى البيت المقدس، ثم بنى بعدها مدينة لد على أثر بنائها القديم.

ومن المدن أيضاً مدينة سبسطية، ومنها طالوت وكذلك عين جالود، واسمها عين جالوت.

ولدمشق أيضاً من المدن الساحلية بيروت وصيدا وبهما أعمال متسعات.

ثم مدينة عسقلان، وقيسارية، ويافا، ولهم أعمال كثيرة.

ومما حول القدس: بيت لحم، وبيت جالا، وما معهما، ومن جهة قبلة دمشق، حبراص وعملها، وبأرضها مغارة العجب، وسيأتي ذكرها عند خصائص البلاد.

والسويداء، وحسبان.

ومن مدنها التي في جهة الشرق الرحبة الفراتية[188] على جنب الفرات، [وهي] ثغر تجاه العدوّ وله أعمال كبار، وعرض مدينة كبيرة على سيف البرية وتمر مدينة قديمة عادية فيها آثار سليمانية[189]، وفيها من العجائب ما سنورده في مكانه إن شاء الله تعالى.

والسخنة مدينة لها عمل، وهي على سيف البرية.

[مملكة حمص]

ومن جنود الشام أيضاً حمص وهي مملكة حسنة وبها كرسي الملك ودار الإمارة ونيابة السلطنة قائم الذات وهي أصغر ممالك الشام الثمانية التركية وآخرها رتبة (..)

[مملكة حلب]

والقسم الثالث قسم المملكة الحلبية وجندها وعملها (..)

---

(188) - هي مدينة رحبة مالك على الفرات قرب موقع مدينة الميادين حالياً، وعثر فيها على آثار مدينة دورا أوروبس التي تعود للحقبة التدمرية، وهي من أعظم مدن العرب في ذلك الزمن

(189) - صيغة مبالغة للقدم والعظمة، وهي منسوبة للنبي سليمان، وكل قديم عظيم ينسب له، وهذا ناتج عن تغلغل المفاهيم (التوراتية) في وعي عرب ومسلمي ذلك الزمان

[مملكة حماة]

والمملكة الرابعة من الثمانية حماة حماها الله بها سلطان ملك ونائب مستقل (..)

[مملكة طرابلس]

والقسم الخامس مملكة الساحل وكرسيّها طرابلس المستجدة بعد فتح طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة ملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي رضي الله عنه (..)

[مملكة صفد]

والقسم السادس مملكة صفد ومضافاتها:

وصفد حصن بقنّة جبل كنعان في أرض الجرمق. كانت قرية فبني مكانها حصن سمّيت صفت، ثم قيل صفد. وهو حصن منيع.

وكان بها طائفة من الفرنج يقال لهم الداوية، فحصرهم فيها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي رضي الله عنه، وفتحها وقتل كل من فيها على رأس تل بالقرب منها[190].

[برج صفد الكبير]

ثم رماها [هدمها] وبنى في وسطها برجاً مدوّراً سماه قلّة، ارتفاعه في السماء مائة وعشرون ذراعاً[191]، وقطره سبعون ذراعاً، وإلى سطحه طريقتان.

يصعد في الطريق إلى أعلاه خمسة أفراس صفاً بلا درج في ممشى حلزون، وهو ثلاث طبقات أبنية، ومنافع وقاعات ومخازن. وتحت [هذا] كله بئر للماء من الشتاء، يكفي لأهل الحصن من الحول إلى الحول، [وهو] أشبه بمنارة إسكندرية.

---

(190) - ورد في كتاب اعمال القبارصة أن بيبرس وعد المسيحيين السريان المقيمين في صفد المحاصرة بالإبقاء على حياتهم وانه لم يشأ إلا قتل فرسان المعبد (الداوية)، وعند انسحابهم بعد اتفاق الصلح وجد انهم خالفوا شروط الانسحاب باستصحابهم أسلحة وإخفاءهم اسرى مسلمين بينهم، ولذلك قرر بيبرس أن يجري إعدام هؤلاء الفرسان وعددهم نحو 1500 على تل قريب كان يستخدم موقعاً لإعدام الأسرى المسلمين [أعمال القبارصة، دار التكوين، ص 64]، وفي صفد مغارة مملوءة بهياكل عظمية يقال إنها كانت قبراً جماعياً للفرسان الصليبيين تسمى مغارة عنتر.

(191) - يبلغ طول الذراع حوالي 52.5 سم، وعليه يكون ارتفاع هذا البرج اكثر من 60 متراً، اي ما يعادل ارتفاع 25 طابقاً في زمننا هذا، وهو ارتفاع كبير حتى في مقاييس العصر.

[بئر من عجائب الدنيا]

وبهذا الحصن بئر تسمّى الساتورة[192]، وعمقه ماية وعشرة أذرع، في ستة أذرع بذراع النجار، والدلاء التي لها بتاتي[193] من الخشب، تسع البتية نحو قلّة من الماء، وهما بتيتان في حبل واحد يسمى سرياق[194] كفلظ زند الإنسان، وكلّما وصلت بتية إلى الماء، وصلت الأخرى إلى رأس البئر، وكلما وصلت واحدة إلى رأس البئر، وصلت الأخرى إلى الماء.

وعلى رأس البئر ساعدان من حديد بكفّين وأصابع، تتعلق الأصابع في حافة البتية الملآنة وتجذبها الكفان، فينصب الماء في حوض يجري فيه إلى مقره، فإذا انصب الماء من البتية حصل القصد، والجاذب لهاتين البتيتين مرمّة هندسية بقسيّ ودوائر وحركات، لا يزال ذلك السرياق راكباً على بكرته طرداً وعكساً يمنة ويسرة.

وحول المرمّة بغال معلّمات تدور بذلك، فإذا سمع البغل الدائر خرير الماء وجرّ السلسلة انقلب راجعاً على عقبه، ودار يمشي في مرتبته بخلاف ما كان يمشي، إلى أن يسمع خرير الماء وجرّ السلسلة، فينقلب دائراً إلى خلاف دورته كذلك أبداً.

وهي من أعاجيب الدنيا، فإذا وقف واقف وتكلّم كلمة واحدة في رأس البئر؛ سمع رجع صوته بتلك الكلمة نازلاً نحو لحظة جيدة حتى يبلغ الماء، ثم يعود إليه فيسمعه كما قالها. فإن صاح وغلب سمع دوياً واضطراباً بذلك الصياح كالرعود لبعد الماء وعمقه. والكفّان الحديد مثلهما في وضعهما كهذه الهيئة والله أعلم.

[أعمال صفد]

ومن البلاد والأعمال المضافة إلى صفد ثغر شقيف [أرنون][195]، وهو حصن منيع فتحه الملك الظاهر من الإفرنج. وله عمل واسع. ونهر ليطة[196] يمر تحت جبله.

ومعليا قلعة مليحة جبلية حصينة وبأرض معليا القرين[197]، قلعة مليحة منيعة بين

---

(192) - هذا البئر لايزال في سفح القلعة ويسميه أهل صفد الحاووظ وفيه ماء صالح للشرب

(193) - جمع بتية وهي وعاء خشبي

(194) - السرياق والسرياقات مفردها سرياقة وهي السوط يصنع من جلد فرس النهر

(195) - شقيف أرنون نسبة لبلدة أرنون التي تقع في أسفلها، وأرنون باللغة الآرامية تعني التيس الجبلي واسمها الصليبي (بوفور) تقع على قمة تل يطل على سهل البقاع الموصل لدمشق

(196) - ليطة قرية قديمة مندثرة الآن ويقي اسم النهر الليطاني

(197) - قرية جبلية حصينة تعني العلو بالسريانية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة عكا، و تبعد عنها 25كم، وتحيط بها قرى ترشيحا والقرت وخربة سماح وعرب السمنية في القرية خرائب رونيتا والزاوية والمنحتة وبلاطون والقلعة المقصودة في نص شيخ الربوة تسمى اليوم قلعة القرين

جبلين، كان ثغراً للفرنج فتحه الملك الظاهر رضي الله عنه، وله واد نزه معروف به من أنزه البقاع، وبه من الكمثرى المسكي، المعطر الرائحة الطيب الطعم ما لا بغيره، ومن الأترنج ما تكون الثمرة الواحدة نحو ستة أرطال دمشقية.

وجبل عاملة، عامرة بالكروم والزيتون والخرّوب والبطم، وأهله رافضة إمامية.

وجبل جبع، كذلك أهله رافضة، وهو جبل عال كثير المياه والكروم والفواكه.

وجبل جزين، كثير المياه والفواكه.

وقلعة شقيف تيرون[198]، قلعة حصينة على جبل عال، ولها عمل ولها نائب، ولم يحكم عليها منجنيق.

وجبل تبنين، وله قلعة، ولها أعمال وولاية، وهم رافضة إمامية.

وقلعة هونين، وهي على حجر واحد، ولها أعمال.

والخيط[199]، وهو قطعة من الغور الأعلى، شبيه بأرض العراق في الأرز والطير والماء السخن، والزروع المنجبة.

ومن أعمال صفد مرج عيون.

وأرض الجرمق، وهي مدينة قديمة عادية، كانت بها طائفة من العبرانيين ينسبون إليها يقال لهم الجرامقة.

والكنعانيون بوادي كنعان[200] بن نوح عليه السلام.

ومن عملها جبل بقيمة، وبه قرية يقال لها البقيعة لها أمياه جارية، ولها سفرجل مليح، وبه قرى كثيرة الزيتون والفواكه والكرم.

وجبل الزابود[201] مشرف على صفد، والزابود قرية وبها أيضاً قرى كثيرة. وأهل هذا الجبل دروز وحاكمية وأمرية[202]، وهم قوم دهرية حلولية، يكذبون الرسل، وينكرون الشرائع، ويعتقدون التناسخ، وأن لا بعث ولا نشور، ويأكلون لحم الخنزير والميتة، ولا يصومون ولا يصلون ولا يحجون ولا يزكون، ويعتقدون أن الحاكم ظهر مظهر الإله. تعالى وتقدّس عما يقولون علوا كبيراً.

---

(198) - هي قلعة نيحا في جنوب لبنان وتشرف على صيدا.

(199) - بلاد الخيط هي المنطقة المحصورة بين جسر [بنات] يعقوب وبحيرة طبرية من جهة غرب نهر الشريعة، وهي ارض غاية في الخصوبة

(200) - وادي كنعان هو وادي الأردن من منابعه إلى مصبه في البحر الميت

(201) - يقع هذا الجبل على مسافة كيلو مترات قليلة من صفد بالتجاه الشمال، وعلى سفحه الجنوبي بنيت قرية الفراضية

(202) - نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي يجلونه

[طبرية]

ومـن عملـها طبريـة، وكانـت قـصبة الأردن، وهـي مدينـة مـستطيلة علـى شـاطئ بحيرتها. وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً، وعرضها ستّة أميال، والجبال تكتنفها، ومنها يخرج نهر الشريعة ويصب في بحيرة زغر.

وعلى شاطئ بحيرة طبرية منابع حارة شديدة الحرارة تسمى الحمامات، وماء هذه الينابيع ملحي كبريتي نافع من ترهل البدن، ومن الجرب الرطب، ومن غلبة البلغام وإفراط العبالة. يقال إن في البحيرة قبر سليمان بن داود عليه السلام[203].

وحطين، بها قبر شعيب عليه السلام، وعلى هذه القرية كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج، وكان ملك المسلمين صلاح الدين قد كسر الفرنج على قرن حطين، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر ملوكهم، وبنى على قرن حطين قبة يقال لها قبة النصر.

ومن أعمالها كفركنا، وهي قرية كبيرة بها مقدمو العشائر، ورؤساء الفتن والهوى، يسمون قيس الحمراء.

ولها من الأعمال البطوف، ويسمى مرج الغرق وهي بين جبال محيطة بها من كل مكان، ومياهه الأمطار تجتمع فيها فتصير بحيرة متسعة تشرب مياهها الأرض، وكل ما جف مكان منها زرعه الزراع كما يفعل أهل مصر.

ومن أعمال صفد أيضاً مدينة الناصرة، وهي مدينة عبرانية تسمى ساعير، ومنها ظهر المسيح عليه السلام، وموضع البشارة به من الملائكة لأمه مريم عليها السلام معروف، يزوره النصارى وغيرهم. وفي التوراة تسميتها وتسمية مكّة شرّفها الله تعالى لتبين رسالتي المسيح ومحمد ﷺ، وذلك ما ترجمته: جاء الله من سينا يعني موسى بن عمران والتوراة، وأشرق من ساعير وجبال الساعير، يعني المسيح الناصري الذي خرج من الناصرة، وجبال الساعير جبال الناصرة، واستعلن بفاران، وبرية فاران يعني مكة والحجاز، ونبينا محمد صلعم والقرآن. وأهل الناصرة كانوا مفتاح دين النصرانية ومنشأه وأساسه وذلك في زمن قسطنطين، وسنقص القصة في مكانها إن شاء الله تعالى[204].

ومن أعمال صفد مدينة اللجون، وهي مضافة إلى العشير والهوى. واليمن أهل الناصرة، كما أهل كفركنا قيس، ولهذا القسم أيضاً جينين، وهي مدينة صغيرة ولها عمل.

---

[203] - خرافات

[204] - مقتبس عن الهروي بمعناه ونصه تقريباً

[عكا وصور]

ومن أعمال صفد عكا وصور وأعمالهما، وصيدا وأعمالها، وهي مدن قديمة ولها أعمال كبار.

ويقال إن الإسكندر نزل صور فلم يصل إليها من سهامه سهم، ولا من حجارة مجانيقه حجر، فأرسل من أهله خفية من أهلها، ورجع فأخبره أن قوماً قد صرفوا هممهم إلى صرف ما ترمونهم به، فاجتمع رأي من مع الإسكندر في وضع الكوسات[205]، وأن يضربوا عليها في وقت واحد عند السحر، ويزحفوا مع الضرب لها. ففعلوا وفتحوها حين اشتغلت قلوب أولئك، وتشوشت خواطرهم ففاتهم.

ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان، وغلبت عليها النصارى، ثم فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو الملك الناصر، لم يفتح صور صلاح الدين يوسف، فغلبت عليها النصارى، ففتحها صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور وأخربها، وفتح بفتحها عثليث، وحيفا، وإسكندرونة، وصور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وأنفة، والبثرون، وصرفند في مدة سبعة وأربعين يوماً، وكان فتحاً مبيناً وثغراً غزيراً.

[مملكة الكرك]

القسم السابع مملكة الكرك:

وهو حصن منيع عال، على قنّة[206] جبل، خندقه أودية بعيدة السفل، يقال إنه كان ديراً للروم، فبني حصناً.

ومن جنده حصن الشويك[207]، مدينة خصبة، ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة.

ومعان، مدينة صغيرة على سيف البرية، عمرها طائفة من بني أمية وسكنوها ثم ذهبوا، وهي اليوم منزلة للحجاج يقام بها سوق في غدوهم ورواحهم.

وإقليم الجبال، ومدينة الشراة، ومدينة قاب على اثني عشر ميلاً منها قرية مؤتة.

ومن جند الكرك اللجون[208]، والحسما[209] والأزرق، والسلط، ووادي موسى، وادي

---

[205] - الكوسات: صنج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص

[206] - وردت قبة والصحيح ما اثبتناه

[207] - وردت الشويك حصن

[208] - اللجون قرية من قرى الضفة الغربية وتتبع محافظة جنين تقع على الروابي المحيطة بوادي اللجون بين مرج ابن عامر وجبل الكرمل، على بعد 16 كم شمال غرب جنين وحوالي 5 كم شمال أم الفحم في المثلث وإلى الشمال الشرقي منها تقع آثار مجدّو وقلعتها الشهيرة على تل المتسلم

بني نمير، وجبل الضباب، وجبل بني مهدي، وقلمة السلع، وأرض مدين، وأرض القلزم، وأرض الريان. والغور[210]، والزرقا، والأزرق، والجفار، والتيه، وزغر وهي مدينة بالغور، ومعها السافية، وبها رطب شبيه بالبرني والأزاد بالعراق.

ومدينة عمّان التي لم تبق إلا دمنتها وعملها.

وأرض البلقا.

وحصن الكرك خزانة الأتراك[211] ومعقلهم، وبه أبداً نائب مأمون عندهم.

[مملكة غزة]

والقسم الثامن مملكة غزة:

وتعرف قديماً بغزة هاشم، وهي مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود لجيش الإسلام في أبواب الرمل، ولكل صادر ووارد إلى الديار المصرية والشامية.

ومن مدنها الساحلية: عسقلان مدينة عظيمة، كانت لإفرنج وأخربها المسلمون. ويافا وقيسارية وأرسوف والداروم والعريش.

ومن أعمالها البرية: تيه بني إسرائيل، فيه من المدن الإسرائيلية: قدس، وحويرق، والخلصة، والخلوص، و[بئر] السبع، والمدرة، وهذا تيه بني إسرائيل[212].

ومن أعمالها المتوسطة بين الجبل والساحل: تل جار، وتل الصافية، وقَرَتيا، وبيت جبرئيل، ومدينة الخليل عليه السلام، وبيت المقدس.

وكل واحد من هؤلاء عليها نائب، ولها أعمال كثيرة.

وبيافا من العجائب حجر قديم في البحر، قريب الساحل، له أوان يحتجّ إليه أصناف الأسماك، حتى إنه لا يبقى صنف إلا أتى إلى الحجر المذكور.

فهذه الأقسام الثمانية.

(..)

فأكبر مراكز الشام في عصرنا دمشق الشام، ثم حلب، ثم طرابلس، ثم حماة، ثم صفد، ثم غزة، ثم الكرك، ثم حمص.

---

(209) - وردت الحسا وهو غير صحيح والصحيح حسما او حسمى

(210) - وردت وبالغور، والمعنى لا يستقيم مع الباء

(211) - المقصود المماليك

(212) - اي صحراء سيناء

جمال الدين ابن نباتة المصري

تاسيس أدب الرحلات المسجوعة إلى القدس

وصلنا من الحقبة البحرية المملوكية، نص رحلة قام بها الشاعر جمال الدين ابن نباتة المصري فيه توثيق لبعض الخطط والآثار في مدينة القدس، خلال تلك المرحلة المفصلية من تاريخ دولة المماليك التي كانت تنتقل بحكم التقادم من دولة قوية مزدهرة، إلى دولة تتآكلها الخلافات الداخلية، وتعبث بأقدارها أطماع ومطامح الساعين إلى السلطة.

ولد جمال الدين ابن نباته، محمد بن محمد الفارقي الجذامي المصري في القاهرة سنة 686هـ، 1287م، وأصلهُ من ميّافارقين، وهي مدينة في الجزيرة تقع في تركيا الحالية.

سكن ابن نباتة الشام سنة 715هـ، 1315م، وولي نظارة كنيسة القيامة في القدس أيام زيارة النصارى لها، فكان يتوجه فيباشر ذلك ويعود. ورجع إلى القاهرة سنة 761هـ، 1360م، فكان فيها صاحب سرّ السلطان الناصر حسن[213] الذي استدعاه إليه، ولكنه سرعان ما سُرح من وظيفته لكبر السن، وتوفي في شهر صفر سنة 768 هـ شباط 1366م في القاهرة[214].

وكان ابن نباته قد أقام مدة في حماة في رعاية أبي الفداء عماد الدين، إسماعيل بن علي صاحب حماة والمؤرخ والجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان. وعندما توفي أبو الفداء سنة 732هـ، 1332م، مكث ابن نباته مدة قصيرة عند ابنه الملك الأفضل، ولكن

---

(213) - الناصر ابو المعالي حسن بن الناصر محمد بن قلاوون هو السابع من أولاد الناصر محمد بن قلاوون وقد حكم مصر بعد اخيه المظفر حاجي وعمره 13 سنة، وقام بالوصاية عليه الأمير شيخون العمري، ولم يمنعه ذلك من مزاولة الحكم بنفسه، لكنه استبد بأمور الحكم واستولى على املاك بيت المال، بيد انه تم اعتقاله سنة 752 هـ 1351 ميلادياً وخلفه اخوه الصالح صالح ثم اعيد إلى الملك مرة ثانية سنة 755 هـ 1354 مْ وظل متربعاً في سدة السلطنة ست سنين وسبعة اشهر، إلى ان اختفى سنة 762 هـ 1361 مْ وتولى بعده ابن اخيه محمد بن المظفر حاجي

(214) - الأعلام للزركلي، ج7/38.

سرعان ما ساءت العلاقة بينهما، فدعاه الوزير أمين الدين (أو أمين المُلك) عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي إلى دمشق.

وكان أمين الدين قد أسلم على يد بيبرس الجاشنكير، وتولى الوزارة بعد ذلك ثلاث مرات في القاهرة، ثم تولى نظر الدواوين بدمشق سنة 733 هـ،1331م[215]. وتوطدت العلاقة بين الوزير والشاعر وأخذ أمين الدين يصحبه في حله وترحاله، ثم عينه ناظراً لكنيسة القيامة، وعلى حج النصارى وجباية الرسوم من الحجاج. فكان يتردد على القدس من دمشق لهذا الفرض، خاصة في أيام عيد الفصح. وكان أمين الدين يهتم بالقدس اهتماماً خاصاً، فوقف فيها المدرسة المعروفة باسم المدرسة الأمينية، وكان ذلك سنة 730 هـ، 1330م. وتقع هذه المدرسة بباب العتم شمالي الحرم، ومبناها مؤلف من طابقين[216].

وفي سنة 735 هـ، 1334. 35م اعتزم الصاحب (الوزير) أمين الدين أن يزور القدس ويتفقد الأوقاف التي كان مسؤولاً عنها في القدس والخليل والرملة، وغيرها من الأماكن في فلسطين. واصطحب الوزير جمال الدين ابن نباته في رحلته هذه، وطلب منه أن يكتب وصفاً لها. ويقول ابن نباته في مقدمة الرحلة إن الوزير أراد أن يُسرّي عنه بعد فجيعته بولده عبد الرحيم فصحبه معه إلى القدس الشريف.

بدأ الصاحب وابن نباته الرحلة من دمشق، وكان خط سيرهما كما يلي: الكسوة، وهي أول منزلة كانت تنزلها القوافل إذا خرجت من دمشق جنوباً، ثم الصنّمين، وهي قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران، ثم رأس الماء، فالحصين فعجلون. ثم توجه الركب إلى الغور وزار مشهد أبي عبيدة بن الجراح في الغور ثم قطع نهر الأردن إلى جهة بيسان على الأغلب وبعدها اتجه إلى القدس، ومن هناك سار الوزير وصحبُه إلى الخليل وبعدها إلى الرملة حيث أمر أمين الدين بتعمير الجامع الركنيّ (الجامع الأبيض). وغادر الرملة إلى سبسطيه حيث زار مشهد يحيى وزكريا . ثم قطع الغور فزار مشهد معاذ بن جبل (في قرية معاذ بوادي العرب). ثم أجتاز قرية طيبة الاسم في طريق العودة إلى دمشق.

دامت زيارة الوزير وصحبه إلى القدس مدة سبعة أيام. وقد وصل إلى القدس قبيل الفجر. ونزل في الحرم الشريف. وزار باب الرحمة والمسجد الأقصى. وكان المطر ينزل مدراراً. ويبدو أن الوزير وابن نباته قد نزلا في دارة فخمة لشخص يدعى الخلد، واستقبل

---

[215] - ابن حجر، «الدرر الكامنة» ج 2، الطبعة الثانية، القاهرة 1385/1966. ص 357 . 358.

[216] - «الأنس الجليل» 39/2

أفواجاً من الزوار. ثم قاما بزيارة بعض المشاهد، وزارا الصخرة مرة أخرى، والمباني العظيمة المبنية من الرخام بما فيها منشآت المياه التي تجري في الحرم.

ويُفهم من وصف ابن نباته للمدرسة الأمينية أنها كانت مجمّعاً يتألف من زاوية ومدرسة ودار حديث، وخانقاه للصوفية، ورباطاً ومكتباً للأيتام.

ويقول ابن نباته إنْ الصاحب شرع في أثناء هذه الزيارة في بناء رواق على سطح هذه المؤسسة من أحجار الرخام التي أحكم وَضْعها وتزيينها وحوت ألواحها (من الحسن كل شيء). ويبدو أن الزاوية الصّاحبية كانت مؤلفة من طابق واحد فأضيف إليها طابق ثانٍ. وبعد تفقد المدرسة أمر الصاحب فرتب لشيخ المدرسة والصوفية (الفقراء) المقيمين فيها «ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد وأصبح كل أحدٍ وهو للنزول عند ذلك الشيخ مُريد». وينوّه ابن نباته بالصدقات التي أغدقها الوزير على فقراء القدس الذين جاؤوا رجالاً ونساءً والتي شملت الكساوى وثياب الصوف والدراهم التي جاد بها بسخاء، كما أشار إلى الاحتفاظ بختمات القرآن ومجالس التفاسير التي كان يُنْفَق عليها من الأوقاف الصاحبية.

سمّى ابن نباته رحلته هذه (حظيرة الأنس إلى حضرة القدس). وذكر الصلاح الصفدي في موسوعته (الوافي بالوفيات) أن ابن نباتة جمع رحلته وأرّخها في (حظيرة القدس) ثم عاد ففصلها في سفر كبير سماه (التحفة الأنسية في الرحلة القدسية)، وورد اسم الرحلة المفصلة هذه في (كشف الظنون) بعنوان (النحلة الأنسية في الرحلة القدسية)[217].

وتعد رحلة ابن نباتة هذه اللبنة الأولى في فن الرحلات المسجوعة التي انتشرت بشكل كبير في العصر العثماني، فهو أول من استن هذا الأسلوب، وهو واضع أسس هذا الفن وشكله من دون أدنى منازع.

وقد نشر نص هذه الرحلة في كتاب (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي المطبوع على هامش الجزء الأول من كتاب (محاضرات الأدباء) للراغب الأصبفهاني، وكذلك على هامش كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) للأبشيهي. كما نُشر كتاب الثمرات مستقلاً في القاهرة، سنة 1952 بتحقيق أبو الفضل إبراهيم، وقد نقلنا النص عن كتاب الدكتور كامل جميل العسلي (بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين) وهو بدوره كان قد نقله عن كتاب الراغب الأصفهاني، وعلق عليه تعليقات قيمة استفدنا منها في كتابنا هذا.

---

(217) - كشف الظنون، حاجي خليفة، ج2 ص 1934.

حظيرة الأنس إلى حضرة القدس

فلما عزم [الصاحب أمين الدين] بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف، اطلع رأيه الشريف على ما في خاطري، وأمرني بالمسير في ظل ركابه، فسر على الحقيقة سائري، وكاشف ولا ينكر الكشف لمن كثرت زواياه في البلاد، ونظر لحالي ولا ينكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد.

وكان له في استصحابي مقصد، تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابح، وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي، مقيماً بين المقابر إقامة تفت حبة قلبي على قطعة كبدي، ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون، باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون، أطلب قلبي في التراب وانشده، وأطارح صوت الصدأ فينشدني وأنشده.

شعر: [من البسيط]

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا	شوقي إليه ويا شجوي ويا دائي
في شهر كانون وافاه الحمام لقد	أحرقت بالنار يا كانون أحشائي

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في إسداء العوارف، وإبداء عواطف الفضل وفضل العواطف، أن ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس اليأس ويشغلني بمشافهة الأنس القابل؛ ألا هكذا فليصنع الناس، وينهضني بالإنعام من حوادث الزمن، ويقرب مثلي قرباً لا يفطن لمثله إلا مَنْ ومَنْ.

فيا لها سفرة قابلها وجه الإقبال بالسفور، وتلا فضلها الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، ومد فيها الأنعام علي ظلاً ظليلاً، وملأ بيتي وعيني دقيقاً وجليلاً، وأمرني أن أصف له المنازل والطرق وصفاً كقصده الجميل جميلاً، فسرنا وأيدي السعد قد ذللت الطرق بل طوتها، وقدمت وعود الآمال بل أنجزتها، والأرض قد شرعت في لباس حليها وحللها، ومراعي الربيع قد وعدت حتى الشمس بتسمين جملها، والشتاء قد آن أن يقوض الخيام، والأفق قد شمر للانصراف ذيل الغمام، ومبدأ الروض أحق بقول أبي الطيب المتنبي: [من الوافر]

لقد حسنت بك الأيام حتى ... كأنك في فم الدهر ابتسام

الكسوة :

فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثياباً سابغة الذيول، وطفنا منها بكعبة الفضل طوافاً واضح الإقبال والقبول، وقلنا للمقاصد تباشري بالخطوة، ولعيون الإقبال تأملي ما أحسن الكعبة في الكسوة، ومررنا والخيل تجمز جمزاً،[218] وجزنا بالصنمين[219] فهمت أن تفخر بمواطئ خيلنا على اللات والعزى، وصعدنا منزلة رأس الماء[220] فكاد الطرب يهزه هزاً، ورأينا بينها وبين منزلة المغير[221] أرضاً قد اخضر جنابها وطرزت بآثار الطرف ثيابها فأمرت بالقول فقلت: [من الطويل]

سقى الله أرضاً طرقها مثل طرزها ... وسائرها برد من الوشي أخضر

تذكرت أحبابي بمثوى بريدها ... ففيني رأس الما وجسمي المغير

ووافينا الحصين[222] وقد راغت الخيل روغان أبيه، وتلقتنا بالبشر والبشرى وجوه أهليه، وسألونا أن نريح عندهم الركاب من الأين، وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا ينكر تعجيل الفتوح للحصين.

ووجدنا هناك فقيراً مغربياً حسن التلاوة، قد عجز عن المسير، وارتد طرف قصده عن القدس خاسئاً وهو حسير، فأمرت له الصدقات الصاحبية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والإقامة، ولحقه في ذلك فقير عمٍ ينشد لسان حاله بي مثل ما بك يا حمامة. فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق، ولا مثله متصدقاً يجلس لحظة واحدة فيركض نداه في الغرب والشرق.

وعجنا بعجلون[223]، فحشر الناس لدينا ضحى وجاء أهل المدينة يستبشرون، فرحاً وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية، وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمنا وهي ذات عين صافية.

---

(218) - الجمز هو الوثوب من مكان إلى مكان.

(219) - قرية في أول حوران تبعد عن دمشق نحو 40 كم

(220) - من المحتمل أن يكون المقصود رباط خسفين القريب من قرية كفر الما في اقصى جنوب الجولان، نظراً انه قال صعدنا، ومن المحتمل أن يكون القصد ايضاً قرية كفر الماء في شمال اللاردن ايضاً.

(221) - قرية في شمال الأردن في محافظة اربد على طريق فلسطين

(222) - لعلها قرية الحصن التي تقع في الجنوب الشرقي من محافظة اربد الأردنية، وتمتد حتى أراضي بلدة النعيمة على طريق عمان

(223) - عجلون الآن مدينة ومحافظة في شمال الأردن

ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء، تحت قلعتها الفراء[224]، وهي في معارج السحب صاعدة شائدة في الجو كأنها في السحر على عمود الصبح قاعدة مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درتها اليتيمة، جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة[225]. فنظر في المصالح، وميز بالعدل بين الصالح والطالح، وعجل من عجلون المسير، فلم ينظر الغادي الذي هو رائح وأشرفنا على بركات القصد المنجية، واقتحمنا إلى الغور عقبة، سهلها السعد فلا تقل ما أدراك ما العقبة، واستفتحنا المزارات التي نوينا قصدها، وطوينا غورها ونجدها، بمشهد صاحب رسول الله ﷺ وهو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ فترامينا إليه بالعزم الفاخر. وزار أمين هذه الأمة أمينها الآخر، وأجرى أمر مشهده على سنن الصلاح، ونظر في مرتبه بعين العدل وأعانه بيد السماح، وجعل والي الناحية عبيدة وما جعل لشاهدة المعروف بالجراح، وسلكنا جانب الغور الممطور فأعجبنا ريا ورواء، وكنا نظن الماء فيه غورا فوجدنا الغور ماء، وخضنا في حديثه وخاضت الخيل، وتركنا عقباته كالمعلقة وملنا إلى السهل كلَّ الميل، وتلقينا كل ذي قصد ببشر الصباح ولم نقل أهلك والليل، وما زلنا كذلك لا نمر بواد إلا أتت مع الابتهال بطول العمر رماله وأرامله، ولا باد إلا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحلائله..

في القدس :

إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام، وسبقنا إليه طرة الصبح تحت أذيال الظلام، وخفت بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام، وألقينا بباب حرمه عصا السفر، وألقت هناك رحالها ركائب المطر.

وزرنا باب الرحمة من الأرض، وزارنا باب الرحمة من السماء، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء، وحمدنا الأوطان والأقطار، واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجر منها الأنهار، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها، ويسبح فيها بالغدو والآصال سكانها.

وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتاً حسناً، وغمض عينه على الرفاق تغميضاً بيناً، [فقال الصاحب] ما تقول في بيته؟ فقلت ما أقول في جنة الخلد.

---

[224] - قلعة عجلون و تسمى أيضاً قلعة الربض، بناها الأمير صلاح الدين صهر الملك العادل تقع على رأس جبل في مدينة عجلون. كان الهدف من بنائها الحيلولة دون إنتشار القوات الصليبية في منطقة عجلون، و إبقاء الطرق التجارية مع دمشق وشمال سوريا محمية.

[225] - حسب الإخباريين العرب ومنهم المسعودي كان جذيمة الأبرش يلقب بنديم الفرقدين لأنه متكبر.

وشكى قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على ورقتهم اصبروا على ما يفعلون ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[226] [ثم] دخل الناس على الأبواب الصاحبية، أفواجاً وما ترك أحد منهم منهاجاً، ذا ناحية إلا منهاجاً، ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من مدامة غمامه، وحسر عن وجهه للإبصار فضل لثامه، وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت، ونثرنا على مواطئ القدم دموعا عزت بلمسها ولا نقول هانت.

ونظرنا آثاراً قديمة تذهل عيون النظارة، وآثاراً متجددة في هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة، ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها ووقفة في الطريق نصف الزيارة، فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف نستلم كالحجاج أركانه، ونقلب وجوهنا في سماء سقف يكاد يمطر علينا لجينه وعقيانه، ونشاهد رخاماً بلغ في الحسن والمحل الأقصى في الأقصى، وتمت به في بهجة المكان زيادة تخالف قول النحاة إن في الترخيم[227] نقصاً، فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها وتطوف على مواضع المنافع بنفسها، فتلك نعمة مقيمة يكافئ الله عنها في دار المقامة، وحسنه في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة.

أوقاف الصاحب :

ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله نصّاره، وأبقاه سيفاً يقف كل ذي قدر عند حده فلا يجاوز مقداره، من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده، ودار حديث يروى فيروى الأسماع الظامئة مورده، وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل، ورباط ومكتب هما كما قيل ثمال[228] اليتامى عصمة للأرامل. وقلت فيهما : [من الطويل]

بنيت رباطاً للنساء ومكتبا	يدير على الأيتام سحب الفواضل
فلله من هذا وذاك كما ترى	ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف، ولحظنا من الظلال السيفية جنة

---

(226) - سورة السجدة الآية 14.

(227) - هنا تورية فالترخيم عند النحاة حذف حرف من آخر المنادى، والترخيم أيضاً تركيب الرخام على المباني [ملاحظة للدكتور العسلي]

(228) - الثمال، الملجأ والغياث والإطعام

نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف، وشرعت صدقات السر والجهر، وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر، وغص بفقرائهم المكان والطريق، وجاؤوا رجالاً ونساء ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[229] فوضع في مواضعه النوال، وقدرت الكساوى حتى على المستورين والأطفال.

هذا وكم ثياب صوف أعرض إشراقها عن مقال اللاحين، واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل، وقال جودها لحاتم هذي التي لا ناقة لك فيها ولا جمل، (وما قلت في ذلك): [من السريع]

لله كم حال امرئ مقتر	قضيت في القدس بتنفيسه
ودرهم ولي ولكنه	قد أخذ الأجر على كيسه

ثم تليت الختمات على شرف الله تعالى ذكرها، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقاف الصاحبية أجرها، وشرع في بناء الرواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف، وأخذ راقم الرخام في التوشيح والتفويف، فيا لها ألواحاً كتب فيها من الحسن كل شيء، واطرد ماء رونقها؛ فكأن العين منها في ماء وفيء، ويا له رواقاً شاق وصفه وراق، ورفع محله فقال لسان المتصوف حبذا رفاعي الرواق.

ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد، وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مريد.

إلى الخليل :

وبرزنا في اليوم السابع من الإقامة؛ وقد قدمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجلية، وطربنا لتلك المنازل وكيف لا نطرب لها وهي الخليلة. وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا لأنواره الجفون، وتملى عن الزيارة ذو العين بذي النون، ثم نزلنا من محل الخليل على محل القرى، وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السرى، واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً، واستلمنا من ضريح شائد الركن ومن ضرائح أهله أركاناً، وأكلنا من شهي عدسه لوناً ووجدنا من الهناء ألواناً، وقلنا لأنفاس الشوق كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وفرقت الهبات وتليت الختمات وجرت المواعيد على عوائدها المحكمات، فقلت: [من الطويل]

---

[229] - سورة الحج، الآية 27

قصدنا خليل الله في ظل صاحب — جليّ العلى والمكرمات جليل

فهذا لدنيانا وهذا لديننا — فيا حبذا من صاحب وخليل

وسرنا في ظل الصاحب من الخليل، وكادت دمشق تمد أيدي أعطائها لمجاذبة ركابه، ومصر تتضرع بأصابع نيلها طمعاً في اقترابه، وترضع ثدي هرمها داعية إلى الله بعوده إليها وإيابه.

وهم شباك الوزارة أن يتلقى صاحب فتحه، وصدر الخزائن أن يعانق ما اعتاده من رأي عطفه ومنحه، فإنه ما جلس فيه أبهر وأبهى من الطلعة الأمينية بإجماع الآملين المتأملين، والخزائن التي كم قال لها تدبيره إني حفيظ عليم فقال الملك وإنك لدينا مكين أمين.

في الرملة :

ثم عطفنا الأقدار إلى جهة الرملة وجاء الوفود كالرمل، وخفت أكياس دراهم الصلات وثقلت أكياس دراهم الحمل، وأقمنا ثلاثة أيام نكاد ننشد : [من الطويل]

خرجنا على أن المقام ثلاثة — فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرا

ورأينا مسجداً يعرف بالركني، قد غير الزمان محاسنه الأنيقة، وهدم الخراب والموت ركنيه على الحقيقة، فأمر مولانا الصاحب بعمارة ما منه اندثر، ولحظت الآراء حجارته المنقضة فتبين أن السعادة تلحظ الحجر.

ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف ما لا صنع ذو الدهر الطويل مثله، وبنى من المكرمات ما ثبت ولولا إبداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة.

ورحلنا عن الرملة بنية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما السلام، فمررنا في طريقنا بجملة غير معترضة وبنيه، في وجهة القبول مبيضة تحتوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليهما السلام فألحقناه بالزيارة بأخيه، وتوكلنا على الله في القبول توكل أبيه، وتيمنًا بنيامين وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة، فقال النجح عقيب الفاتحة: آمين وسرنا والصدور منشرحة، والطريق إلى خير الدارين متضحة، وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا، وتلا مزارها للقادم إنا نبشرك بيحيى.

بيسان :

وبتنا ليلة طيبة نحييها ونميت النوم ونعصى بالسهر أمره فما له سلطان على أعين القوم وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سروراً والأعين نوراً وقوينا على قصد جنى الجنان، واستقبلنا محاسن بيسان.

وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل ﷺ فأنقذت أنواره القلوب من الهم أي إنقاذ، وكدنا نفتن بالأنس حتى نقول أفتّان أنت يا معاذ؟ وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم، وأوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجح من به يعتصم، وأمر بما يحتاج إليه من تجديد عماره وإنشاء طهارة، والحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة، فإنا لا نفارقه إلا عن إقامة صلاة وصلات، وتجديد آثار يزين به وجه القبول كاتب الحسنات.

ثم نهضنا عن الغور نهوض ليثه الملبد، وجزنا مبتسمين فأبكينا بكاء لبيد يوم فراقه إربد، وانتشقنا من تلقاء طيبة الاسم أطيب العرف، وسلكنا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف، ثم عاودنا المنازل التي قدمنا ذكرها، ورجعنا كما تسترجع منازل الأفق زهرها، وتنسمنا أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها، واستقبلنا الديار على هذا السمي الجليل، وفاصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل، وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً نداؤه [كل ليل للعاشقين طويل][230]، وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخولنا إلى القدس الشريف، سائرين سرى النجوم في الليل، سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل، موفرين لخواطر الملتقين وهيهات، وقد سال منهم السيل نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الأزهار، وجرت أمام ركابنا الأنهار، ولبست من وشي البديع حللاً لها من أوائل ما انعقد من الثمار، إزار فائزين من الثناء والثواب يفوق الإرادة، داعين لمن فضله لنا جامع مترقبين لرتبته باب الزيادة، وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون.

---

[230] - اقتباس من بيت المتنبي الشهير:

ليالي بعد الظاعنين شكول   طوال و ليل العاشقين طويل

رحلة البلوي

عودة الحركة العلمية إلى فلسطين

بعد رحلة ابن نباتة إلى فلسطين بنحو عامين، وصل رحالة عربي من الأندلس إلى بيت المقدس هو القاضي أبو البقاء علم الدين خالد بن عيسى البلوي من أهل قنتورية، فوصفه وذكر العلماء الذين سمع منهم به، كما التقى بابن نباتة شخصياً في القدس وسمع منه وحصلت بين الرجلين مودة مذكورة في متن الرحلة.

وقنتورية التي ولد فيها رحالتنا هي حصن من حصون وادي المنصورة من أعمال ولاية المرية في الأندلس، وتقع على نهر المنصورة. ولد فيها حوالي سنة 713هـ 1313م، وتوفي قبل سنة 780هـ، 1378.

رحل البلوي من بلده إلى غرناطة ثم إلى فاس، حيث أخذ من علمائها ثم رحل إلى المشرق، وهذه الرحلة هي التي ألف فيها كتابه المشهور «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»[231].

بدأ البلوي رحلته إلى المشرق من قنتورية في 18 صفر سنة 736هـ 1336م، فسار إلى المرية ثم إلى مَرْسى هنين، على ساحل المغرب، ثم إلى تلمسان، فبجاية، فقسنطينة، فعنّابة، فتونس. وفي 7 من ربيع الثاني سنة 737هـ 1336م أبحر من تونس إلى مالطة ثم كريت (اقريطش) ثم قبرص. وسافر من قبرص إلى الإسكندرية فوصلها في 13 جمادى الآخرة سنة 737هـ كانون الثاني 1337 ثم غادرها إلى القاهرة وبقي فيها حوالي شهر ونصف. وخرج من القاهرة قاصداً الديار المقدسة في الحجاز في 28 رجب 737هـ، 1337م، فوصل إلى غزة في 7 شعبان وإلى الخليل في 9 شعبان. ووصل بيت المقدس يوم الأربعاء الثاني عشر من شعبان، وبقي فيها حتى شهرين، ثم غادرها إلى المدينة ومكة، ورجع من الحجاز إلى أيلة وواصل السير من أيلة إلى القدس فالرملة فعسقلان فمصر. ومن مصر عاد إلى المغرب ثم الأندلس.

---

[231] - من مقدمة كتاب «تاج المفرق» للحسن السائح، محقق الرحلة

ويدأ البلوي في تدوين رحلته منذ خروجه من بلده وأكملها سنة 1339/740 ـ 1340 ثم فرغ من كتابتها نهائياً سنة 1367/768. وكان يسجل مذكراته بضبط ودقة ولا يعتمد على ذاكرته.

ويعد الباحثون رحلة البلوي من أهم الرحلات الأندلسية والمغاربية، سواء من الناحية التاريخية أو الأدبية والعلمية. وقد احتلت الحركة العلمية في البلدان التي زارها مكانة بارزة في الرحلة. وقد تحدث المقري عن تاج المفرق فقال: (وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد)[232].

كتب البلوي رحلته بلغة زمانه المليئة بالسجع والتكلف، والاستعراض اللغوي، وهو أسلوب انتشر في مشرق العالم العربي الإسلامي ومغربه.

وقد اتهم بعض الأدباء البلوي بانتحال كلام العماد الأصفهاني في (البرق الشامي) لأنه أكثر من الإسجاع على طريقة العماد. ومن هؤلاء لسان الدين بن الخطيب الذي يقول المقري إنه يظن أنه كان منحرفاً عن البلوي[233]. على أن خالداً البلوي لم ينقل معاني كتابه وفحواه عن العماد لاختلاف موضوعي الكتابين، ومع ذلك فيبدو أن البلوي نقل بعض عبارات في وصف المغرب عن بعض ما كتبه أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي في كتابه الاغتباط، وكان ابن عميرة هذا كاتباً للموحدين في الأندلس والمغرب[234].

ومن غريب الأتفاقات أن يرحل البلوي في الفترة نفسها التي رحل فيها ابن بطوطة إلى الشرق، ولكن الفارق بين الرجلين أن البلوي كان يدون ملاحظاته ثم كتب الرحلة بنفسه وبأسلوبه، بينما ترك ابن بطوطة ذلك لشخص آخر.

وقد سلك البلوي الطريق نفسها التي سلكها ابن بطوطة، بل إنهما سافرا معاً، على طريق تلمسان والجزائر وبجاية حتى تونس، حيث افترقا، فسافر البلوي إلى الإسكندرية بحراً، في حين تابع ابن بطوطة رحلته عن طريق البر.

وتشكو الطبعة الوحيدة لرحلة البلوي، وهي التي قام بها (العلامة) الحسن السائح، وصدرت في المغرب في السبعينات، دون تحديد لتاريخ ومكان النشر تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية

---

(232) - نفح الطيب للمقري، ج2 ص 532.

(233) - نفح الطيب ج 2 ص 533.

(234) - مقدمة الحسن السائح للرحلة، ص 109.

المتحدة، تشكو من كثرة الأخطاء المطبعية وغير المطبعية، وهو ما حاولنا أن نتلافاه قدر الإمكان.

وعموماً يعد ما كتبه البلوي عن فلسطين أطول نص يكتبه رحالة مغاربي، وقد استفاض في الحديث عن الخليل والقدس ووصف المشاهد الدينية فيهما بإسهاب وتدقيق، وتعد نقوله للنقوش والكتابات التي أثبتها في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وباقي الأبنية في القدس، من أدق النقولات، وقد قارن الدكتور كامل جميل العسلي بينها وبين ما أثبته الباحثون المعاصرون ووجد تقاطعات كبيرة تدل على دقة الرجل وعلميته.

أما الجانب العلمي من الرحلة، فيعد من أنفس ما كتب عن علماء فلسطين في ذلك الزمن، حيث التقى عبد الرحيم بن بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة خطيب المسجد الأقصى، والمحدث صلاح الدين العلائي، والفقيه والمحدث الكبير علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور وشمس الدين محمد بن علي بن محمد بن مثبت الأندلسي، وجمال الدين بن نباته الذي آثره بمسك الختام، وهو (ملك الكلام وحامل لواء البيان). وكان البلوي معجباً به أيما إعجاب للتشابه بين أسلوبي الرجلين في الكتابة واشتراكهما في صنعة الكتابة المسجوعة، والمزخرفة بألوان البديع والجناس. وكان ابن نباته في حرم القدس أتاه زائراً من دمشق فربطتهما مودة أكيدة وتهاديا الكتب، وأذاع البلوي شعر ابن نباتة فيما بعد في المغرب[235].

نقلنا النص المتعلق بفلسطين المنشور في الجزء الأول من رحلة البلوي المطبوعة بالمغرب، وقد استفدنا من معلومات المحقق الحسن السائح حول مؤلف الرحلة المنشورة في مقدمة الطبعة، كما استهدينا بملحوظات الدكتور كامل جميل العسلي، الذي نشر في كتابه (بيت المقدس في رحلات العرب والمسلمين) الجزء المتعلق بالقدس فقط من هذه الرحلة، وقد أغناه بتصحيحاته وملاحظاته القيمة.

---

[235] - بيت المقدس للعسلي، ص 79.

غزة :

.(ثم) خرجنا منها [أي القاهرة] في صبيحة يوم الاثنين الثامن والعشرين لرجب الفرد من عام سبعة وثلاثين المذكور [3 شباط 1337م] مستقبلين الأرض الصحراء، الجدبة القفراء[236]، حتى تحار فيها القطا، ولا تهتدي إليها الخطا، ويعدم بها الماء، وتضن عليها السماء، ويفنى فيها الزاد، ويعيى بسلوكها المباد، نحدو بالجمال، ونخفض الأقتاب لرفع الرحال، ونقطع بالسير موصول تلك الرمال، حتى أشرفنا على مدينة غزة، فدخلناها ضحوة يوم الثلاثاء، السابع لشعبان المكرم من العام المذكور وقد : [من الطويل]

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ... ودب عذار الظل في صفحة النهر

فزينة الأرض مشهورة، وحلة الروض منشورة، والبسيطة مدت بساطاً مفوفاً، وأهدت من مطارف وشيها وزخارف نورها ألطافاً وتحفاً : [من الكامل]

فالجو رقراق الشعاع مفرق ... والماء فياض الأتي[237] معسجد

والأرض في حلي الربيع كأنما ... قطف الغمائم لؤلؤ وزبرجد

فأرحنا فيها تعب الأبدان، وسرحنا منها في بلد من أحسن تلك البلدان، بلد حسن يفقه من كان بليداً، حتى يعود ـ لبيداً[238].

فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، ما شئت من منظر عجيب، وجانب رحيب، وبسيط خصيب، وساحل قريب، ومكان مؤنس لكل غريب.

---

[236] ـ في النص الجذبة القفراء، والصحيح ما اثبتناه

[237] ـ الأتي هو الماء الجاري او السيل

[238] ـ شاعر جاهلي

يزهر بالحسن المحض، والنور الغض، وناهيك بالشام، شامة الأرض كما قال عرقلة الدمشقي[239]: [من الكامل]

هـذا هـو الـزمن الربيـع المونـق | والعيـشة الرغـد الـتي هـي تعـشق
فعـلام تـصحو والحمـام كأنهـا | سـكرى تغـني تـارة وتـصفق
وتلـوم في حـب الـديار جهالـة | هيهـات يـسلوها فـؤاد شـيق
والـشام شـامة وجنـة الـدنيا كمـا | إنـسان مقلتـها الغضيـضة جلـق
مـن آسـها لـك جنـة لا تنقـضي | ومـن الـشقيق جهـنم لا تحـرق
سـيما وقـد رقـم الربيـع ربوعهـا | وشـيا بـه حـدق البرايـا تحـدق
في روضـة ضـحكت ثغـور أقاحهـا | لمـا بكاهـا العـارض المتـدفق

فبتنا ببعض بساتينها وهناك جريان الأنهار، وحفيف الأشجار، وتغريد الأطيار، ما أذكر قول ابن حصن كاتب المعتمد بن عباد: [من الطويل]

ومـا هـاجني إلا ابـن ورقـاء هـاتف | علـى فـنن بـين الجزيـرة والنـهر
مفـستق طـوق لازوردي وكلكـل | موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
أدار علـى اليـاقوت أجفـان لؤلـؤ | وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر
حديـد شـبا المنقـار داج كأنـه | شـبا قلـم مـن فـضة مـد في حـبر
توسـد مـن فـرع الأراك أريكـه | ومال على طي الجناح من النحر
ولمـا رأى دمعـي مراقـاً أرابـه | بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحـث جناحيـه وصـفق طـائراً | وطـار بقلبي حيث طـار ولا أدري!؟

وأقمنا حتى بدا النور، وتكلم العصفور، وسرنا نحث السرى، ونعاصي الكرى، حتى ذهب الظلام وأشرفنا على مدينة الخليل عليه السلام، وأشرقت لنا تلك الربا والأعلام.

الخليل :

فدخلناها في ضحوة يوم الخميس التاسع من شعبان المذكور، فحللت منها قصراً عظيم البركة ظاهر الرحمة، لائح الأنوار، كريم المآثر والآثار، ينبي عن الشام بطيب أنبائها، وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وجدا جداولها[240]، وجنا جذائلها.

---

[239] - شاعر دمشقي من شعراء صلاح الدين توفي سنة 567، (الأعلام).

[240] - ن، و3 وجلا جداولها (و ن 5) جنادلها.

وتضوع أريج أسحارها، وتنوع بهيج أزهارها[241]، وريا رياضها ورونق جواهرها وأعراضها، وغرة أرضها وصحة هوائها وقلة أمراضها: [من الطويل]

بلاد بها الحصباء درٌ وتربها ... عبير وأنفاس الرياح شمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل

وقدمت والزمان في عنفوانه، والربيع في ريعانه، والروض في حسنه وإحسانه، والزهر في زهره وزهوه، والطير في شوقه، وشدوه، والدوح بالورق بين أوراقه في جدوه، والنوار قد شب وشاب، والهزار قد لب ولاب، والعندليب قد طرب وغنى، والحبيب قد ظرف وتجنى، وللأندية أنداء، وللأدوية أوداء، وللصبا صبابات، وللبيب لبانات، وللشمال شمول، وللقبول قبول، وللعرار شميم، والباهر نسيم، وللنرجس عيون وللورد وجنة. وللكمام أجنة، وللغمام دجنة، وللأقاح ثغور باسمة، وللأغصان قدود ناعمة، وللأفنان فنون، وللحديث شجون، ولجبهة الغدير من حركة النسيم غضون، ولهزة المساري أعطاف يقال لها غضون: [من السريع]

والماء تحت الغصن مطرد ... والغصن فوق الماء منعكس

فآويت إلى إيوان، ونزلت أحسن مكان، وأمكن إحسان، ثم دخلت المسجد الأعظم فرأيت من حسنه عجباً، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهباً.

لا تدرك مبانيه السامية، ولا تلحق آثاره العالية، له أبواب حافلة من الحديد وشباك منه بديع، وبنيان بالرخام، والأحجار العظام العائلة المنحوتة الضخام، عددت في طول الحجر الواحد منها أربعة وثلاثين شبراً، وفيها أكبر من ذلك وأصغر.

قد أسس ذلك المسجد العظيم عليها، وبني ظاهره وباطنه منها، فجاء جامعاً عجيباً واسع الساحة، بديع الصنعة، أحدق بجميعه سور جليل، بناؤه من الصخر الجسيم، قد جمع الحسن والحصانة، والعلو والمتانة، يشرق بياضه على بعد المتأمل.

وكذلك حال المدينة، منازلها وقصورها من الإشراق والبهجة، التي تشوبها خضرة الحدائق الملتفة بها المكتنفة بساحتها.

وداخل المسجد الأعظم موجه القبلة بالرخام المجزع المختلف الألوان، الغريب الترصيع الفائق الحسن، قد أفرغ فيه الذهب المضروب والتبر الخالص إفراغاً، وفي وسط المسجد الكريم، التربة المقدسة تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام، قد جن بها من الشماعات العظام المذهبة، والأستار المكللة المطرزة والمصابيح البديعة المموهة، كل حسن

---

(241) - في النص المطبوع أوهارها.

رائق رائع، وأمامه ضريح زوجه رضوان الله عليها، وتجاه ذلك من الجانب الجوفي قبة أخرى عظيمة القدر متناهية الإتقان، تحتها ضريح النبي يعقوب عليه السلام، وأمامه زوجه رضي الله عنها، وتحتها طبقة وقبة فيها ضريح النبي يوسف الصديق عليه السلام، والأستار المدبجة والرسوم المذهبة بأسمائها المباركة على جميعها، والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك كله.

وما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جداً، فيه في المسجد أيضاً هو مجتمع الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء، والأمراء والكبراء، للضيافة المباركة ضيافة الخليل عليه السلام، في كل يوم بعد صلاة العصر، على توالي أحقاب الدهر، وفيه حضرتها مع جملتهم متبركاً بذلك، ثم اختلفت إلى لقاء الفضلاء، وأخذت عمن بذلك القطر المبارك من العلماء.

منهم: شيخ الوقت سناء وسناً وعلماً وديناً الشيخ العالم الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن كافل الشافعي رضي الله عنه، شيخ العلم والوقار ومحل المناقب المغروسة[242] في أرفع البقاع وأمنع القرار، وأهل المكارم السنية الأنوار السنيّة الآثار، نزيه الأحوال، نبيه القدر زكي الخلال، ما عرى من أثواب عفاف، ولا تعطل من حلي بر وإنصاف.

له الحكم الظاهرة والنباهة الحاضرة[243] والنزاهة التي أذعنت[244] لها الدنيا، وترجى لها الآخرة، فما قيس ابن عاصم منه بأحلم، ولا عبد الرحمن بن القاسم بأعلم، ولا الأغلب ممن سالم بأجل في النفوس وأعظم.

ولي القضاء بعدما أكره عليه، وجذب راغم الأنف إليه، فلم يعلق به طبع، ولا زال من الزهد والورع بمرئي ومسمع، ثم نبذ الأمر وخلاه، وأسلمه لمن ولاه، وتخلى هو لعبادة مولاه، فهو الآن بذلك المسجد العظيم والمقام النيّر الكريم، لا يفتر من العبادة، ولا يدخل منزله إلا للعادة. الله أكبر حين تسأله، وحي على الفلاح.

سمعت من لفظه هناك بين المنبر والمحراب أجزاء غير واحدة، واستفدت في مجلسه غير ما فائدة، وسألته عن أشياخه فأخبرني أنهم جماعة كبيرة منهم: الشيخ الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الرقي الشافعي نزيل دمشق، رحمه الله تعالى سمع عليه كثيراً، وأنشدني لنفسه: [من البسيط]

---

(242) - في النص المفرسة

(243) - في النص الحاصرة

(244) - في النص ادهنت

وصل الحبيب لسم الهجر ترياق وقربه لا سير السبين إطلاق

أما السلو فدين لا أدين به وكيف يسلو عن الأحباب عشاق

أم كيف يجمل في سلوى جمالكم وبيننا في الهوى عهد وميثاق

قلبي القريح عليكم حشوه حرق ولوعة وصبابات وأشواق

لا غرو إن كان قلبي شيقاً قلقاً قلب المحب إلى الأحباب تواق

إن أبعدوني فأهل للبعاد وإن هم قربوني فإن القلب مشتاق

أنشدينها عن ناظمها المذكور، وكتبتها من إملائه وصححتها بعد قراءتي عليه.

ومن شيوخه أيضاً الشيخ أبو الحسن علي الواسطي، قال لي وكان رحمه الله ما انقطع عن الحج والزيارة مدة حياته فسأله أهله أن يقيم معهم ويدع الحج سنة واحدة، فلما عزم على ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له: يا على عزمت على الإقامة عنا.

فقال سألني الأهل في ذلك، فقال له: إن أقمت عنا أقمنا غيرك مقامك، فلما استيقظ عزم على الحج والزيارة في ساعته، وسأل الله تعالى أن يجعل قبره ما بين الحرمين الشريفين، فتوفي ما بين بدر وحنين رحمه الله تعالى، وقد سمعت عليه أبعاض كتب كثيرة، وتناولتها من يده وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه.

ومنهم علم الأعلام، والإمام السلام، الشيخ العالم الراوية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الأموي القرشي، هو الإمام الذي رفعه العلم قبل شبابه، وعرفه بركات مؤمله الحميد وطلابه، ومهد له من السعد في نيل القصد رحيب مغناه وفسيح جنابه، وسهل له آراباً وأوطاراً، ولم يزل مترسماً من أشرف الأفعال، وأعرق الأقوال، من معالم المآثر ومآثر المعالم، وأعيان ذوي الأقدار والأخطار أعلاها مقداراً، متسنماً من مراتب الصفات وصفات المراتب أقصاها منالاً، وأسماها مناراً.

مترسماً من أخلاق المجد ومجد الأخلاق أزهاها نظارة وأنضرها أزهاراً، متحلياً من الشيم الفاضلة بأنفسها داراً، ومتحلياً في سعودها الشارقة بدراً متجنباً عن كل ما يعقب الإقبال على السعادات إدباراً. محرزاً في ميدان طهارة الأردان خصل السباق، متميزاً في عنفوان شبابه بحسن الخلق وإحسان الأخلاق. مثمراً لرأس مال العفاف، ساحباً من حلله الضافية الأفواف، مقبلاً على ما يزيد مجده مآثراً وآثاراً إلى رواية فاز بفريدها الثمين وعلقها، ونام على ليل إهمالها وقام بحقها، ودار حول قطبها، ومرقى مطالع أفقها وأنعم

بها سحاً ومدراراً[245]، إلى علوم حديث اقتصر عليه مع أدواته الثابتة الفضائل الواضحة الدلائل اختصاراً.

وهصر أفنان خمائله الباسقة وقد تناءت مساقاً وتناهت إيراقاً وازهاراً، وكرع في مشارعها السلسبيلية ومناهلها الزلالية، آمناً صدراً وإصداراً.

وعطف على محلها المرفوع، واستند إليها استناد المحمول إلى الموضوع، وأسند من حديثها الحسن الصحيح لا المختلف الموضوع آثاراً وأخباراً، إلى المنصب الذي أحسب مناه والمنسب الذي أراه في المحتد القرشي متمناه والبيت الذي قر على عمد المجد قراراً، متخذاً للورع دثاراً، وللزهد شعاراً، فاشتهرت في الغابر والسالف بفضلها التالد والطارف اشتهاراً، وظهر في الطهارة والنزاهة علماً يحمل نور الإنارة، فعذب في مشارعها مشرباً، وثبت في مناكبها كبكبا، وسرى في منازلها السعود كوكباً سياراً. وإلى مكانه في العلماء معروف قدرها، مشاهد بتصديق خبرها الحسن خبرها، ذائع عرفها ونشرها وجلالة في الحسباء لا تتكر معارفها ولا تخلق برودها الفضفاضة ومطارفها، ولا يتقلص من ظلالها السابغة ممدودها ووارفها، إعظاماً لمحلها الرفيع وإكباراً.

فحين ساغ له هذا المشرب الزلالي العلمي العملي ورد وارتوى، وعلم أنه ظفر من ضالته المنشودة وبغيته المقصودة بما ابتغى ونوى، فألقى عصا التسيار في مناهج لقاء أولي العلم الأخيار، واستقرت بعد النوى استقراراً.

وأقبلت على إفادة العلوم، بين تلك المعاهد الشريفة، والرسوم بساحة سنية ورساخة علمية عالية مناراً، ساطعة أنواراً، متصلة عوائده الدينية، وفوائده العلمية بقاء واستمراراً، فتجلى الشك عن اليقين، وتسفر عن مثل الصبح المبين إسفاراً، فها هوذا محمولٌ من الترفيع والتعظيم، على واجبه مكفول من البر والتكريم، بمزيده ومتعاقبه، قد تجلت له صور الرعاية والمبرة شموساً وأقماراً، وتحلت به من ذلك الأفق المقدس أزماناً وأعصاراً، متصلة الإشراق ومشرقة الاتصال ليلاً ونهاراً: [من المتقارب]

كساها وقد عاث فيها المشيب	برونق أيامها الأوله
فلا سلب الله ثوب البقا	ء عنه وهناه ما خوله

لقيته بالحرم الخليلي الشريف، فسمعت عليه كثيراً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من الأجزاء والكتب في فنون شتى، وأجازني الإجازة التامة، المطلقة

(245) - في النص مداراً.

العامة، وكتب لي بخطه، وأشياخه جماعة كثيرة جداً ومولده رضي الله عنه بحلب المحروسة في سنة بضع وستين وستمائة[246].

خرجنا منها ضحوة يوم الأحد الثاني لشعبان المذكور، عشي ذلك اليوم نفسه دخلنا مدينة بيت المقدس كلأها الله تعالى.

القدس :

هي بلدة الأفق المنير ونجمه، والنجم الذي لا تمتطى صهواته، وصلناها والليل في سن الاكتهال، وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهال.

فوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة، سامية الارتفاع، مشرفة البقاع مباركة الأغوار والتلاع، عذبة المراد، منمنمة الأبراد، ممرعة الجنبات، متنوعة النبات. ممدودة الظلال، مردودة الخلال، مأمولة السعادة مسعودة الآمال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، تشهد لسكانها بالثراء والسناء، قد أخذت من كل المحاسن نصيباً، وفوقت إلى هدف الفضائل سهماً مصيباً، وملئت ظرفاً وأدباً وأوتيت من كل شيء سبباً: [من الطويل]

محل كأن الشمس تخجل كلما نضت ثوبها عن معطفيه مغيبا

تنم رياح الخلد منه لأهله ويطفح تسنيماً[247] ويرشح طيبا

ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه[248] انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياضات تحيي النفوس بنسيمها العليل، تتبرج لناظرها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، فنزلنا منها منزلاً بديعاً قد عذب ماؤه، وراق روضه، ورق صفاؤه وهواؤه، وتفسحت مساحتها، وترجحت أرجاؤه.

ثم قصدت الحرم الشريف، والمسجد العظيم المنيف، الذي بارك الله حوله، وعرفت كل أمة فضله، المسجد الأقصى موضع المعراج والإسراء، وكفى بهذا شرفاً وفخراً، فرأيت بقعة لها نور، وفضل مأثور، وشرف معلوم مذكور، ومسجد له حرمات، ومقام تخطر فيه خطرات، وتعرض مقامات، ومحل تفيض عليه بركات، وتستجاب فيه دعوات، ومكان يمكن فيه الالتفات، وتقصر عنه الصفات، وتكل في تصنيف محاسنه الياءات والألفات. قد جمع شرف المقدار إلى طيب التربة وفضيلة الدار، وشهرت مفاخره، فأية البقاع

---

[246] - ن 2 وسبعمائة وهو خطأ.

[247] - التسنيم قيل عنه: هو ماء في الجنة يتنزل من علو.

[248] - في النص مدانبه، والصحيح مذانبه وهو جمع مذنب أي مسيل الماء ما بين تلعتين (القاموس المحيط).

تفاخره؟ وراقت محاسنه فلا منظر يحاسنه! وفاقت مآثره جميع من يكاثره، وأمتع بكل سليم الود من سلم وحيا، وأطلع نور البشر في أفق المحيا.

وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد الدنيا، طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً، فيكون تكسيره في المراجع المغربية مائة مرجع، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وأبوابه خمسون باباً[249] يطيف به سور سمته ثلاث خطوات، قد أسس بالحجارة العظيمة والواحه الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان ﷺ [!]، والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر باباً كل باب منها له الوجه المنقش المحسن المرقش. فيها باب مصفح بالعقيان واللجين مفمد بهما قد قام على ما راق الأبصار، وأعجب النظار. ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة الشرقية.

وروى المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور﴾[250] أنه سور بيت المقدس الشرقي، له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس. قال كعب: باطنه المسجد، وظاهره وادي جهنم.

وفي الجهة القبلية المسجد الأعظم الحافل بالذي عليه اليوم اسم المسجد الأقصى، فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل إبداع عجيب، واختراع غريب، والمقاصر الذي لا نظير له غرابة صنعة وجودة إنشاء، والسواري المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية، وصفرة فاقعة وبياض ناصع، ومن الجبرية[251] الحالكة الصافية ومن الخبرية المجزعة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص.

وقد قامت بين يد المحراب منتظمة، به قبة عظيمة جليلة منقسمة على أفنان[252] معقودة بأقواس منحنية متراكبة مدخلة على ألوان شتى، وتصنيف غريب، مذهبة ما دخلها في التثمين والتسديس[253] والتربيع بتذهيب مشجر مورق، بالذهب مصنف محكم قد رونق الحسن استتمامها، واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهباً وتستقل عجباً، فيها تواريخ مكتوبة بالذهب في أرض فيروزية وفي

---

(249) - الغريب أن الكثير من الرحالة يتحدثون عن هذا العدد من الأبواب وهو رقم مبالغ فيه جداً فالأبواب المعروفة والمفتوحة والمغلقة وبأسمائها المختلفة عبر العصور لاتصل إلى نصف هذا العدد

(250) - سورة الحديد، الآية رقم 3

(251) - في بعض النسخ الجبرية وباقي النسخ الخبرية والخبر شجر السدر والأراك

(252) - افنان افياء (لد ع)

(253) - في النص التسديد.

أرض حمراء زنجفورية[254] (وبأعلى المحراب) مكتوب بالذهب في أربعة أسطار ما نصه، «أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله أيزاعه شكر هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة»[255].

(وبشرقي) هذا المسجد متصلاً به وداخلاً فيه المسجد المبارك، الذي بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وبجوفه تربيمة خلفها محراب زكريا ﷺ، ومكتوب عليه بالذهب ﴿يا زكريا إنا نبشرك[256] بغلام اسمه يحيى﴾.

وبخارج المسجد الأعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين، يعرف بمسجد عيسى، وفي شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضي تحت الأرض إلى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصور من الحجر الصلد يذكر أنه مهد عيسى ﷺ.

وبغربيه مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة (لأن حارتهم) تلاصقه.

ومن ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمى الفخرية. وبخارج المسجد الأعظم صحن عظيم كبير مثمر بأنواع الثمار والأشجار الكبار المختلفة الأنواع ومن أكثرها الزيتون، وفيه أجباب[257] كثيرة.

ذكر عبد الملك بن حبيب بسنده أن عمر بن الخطاب لما قدم بيت المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقي في جب سليمان، وهو جب في داخل المسجد فخرّت دلوه في الجب، فنزل بها يستخرجها فبينما هو يطوف في الجب إذا أتاه ملكان، فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجملا يسريان به فيها فكان كلما مرا به على شجرة لها ثمر يمد يده إلى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أفنان، فمد يده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان لو ملكت يدك لسرنا بك إلى يوم القيامة، ثم انصرفا به إلى الجب، فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذي كان وضبط يده على الورقة، فقال عمر: اضمم يدك عليها، ثم بعث إلى كعب الأحبار فأتاه فقال يا أبا اسحاق! هل

---

(254) - الزنجفور والزُنجفر معدن احمر يدهن به الحديد ليسلم من الصدأ (لد ع)، ولعله السيرقون في ايامنا.

(255) - ذكر الدكتور العسلي ان هذا النقش مسجل تسجيلاً دقيقاً، وقد سجله فان برشم بنصه هذا في اوائل هذا القرن في كتابه CIA, Jerusolem, II, No. 280 دون اي اختلاف وقد اختفى النقش بعد الحريق المتعمد الذي شب في المسجد الأقصى سنة 1969.

(256) - في النص بشرناك، سورة مريم، الآية

(257) - جمع جب (لد ع)

تجد في علمك أن رجلاً من أمة محمد ﷺ يدخل الجنة ثم يخرج منها، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فهل تسميه؟ فقال نعم، هو شريك بن حباشه[258] النميري، قال: فانظر هل تراه؟ فنظر كعبٌ ملياً ثم قال هو ذا. فقيل لكعب: صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة أشبه شيء بورق الدراقين يعني الخوخ. ففي بيت المقدس اثنا عشر جباً، ليس فيها جب أطيب ولا أعذب ولا أبرد من هذا الجب وهو يسمى بير الورقة انتهى. [والله أعلم]!!

وفي هذا الصحن ساقية ماء تأتي من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الأرض، قطعت لها الجبال وصدعت لها الصخور الجليلة صدعاً بالمال الجسيم والأيدي الشديدة، حتى انصبت منها المياه على المسجد الأقصى فأروت وأغدقت وفاضت وأفضت إلى (خصة) من رخام كبيرة أمام المسجد الأعظم، في وسطها فوارة يجري فيها الماء.

(وفي وسط هذا الصحن) صحن آخر عال مرتفع يصعد إليه بأدراج عالية كثيرة من جهات ثمانية وهو مفروش بالرخام الأبيض.

وفي وسط هذا الصحن الأخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التي كأن محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة في نواحيها فهي من أعاجيب الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل في الفكر (قبة الصخرة الكريمة).

وهي مصنوعة من قبة مثمنة الحائط والأركان من داخلها وخارجها مستوية السقف، أعلاها ذهب مضروب في صفائح عجيبة، وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بألواح الرخام المنثور الملصق إلصاقاً محكماً مخططاً بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الربانية، فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة. وفي وسط هذه القبة[259] المثمنة المستوية السقف قبة أخرى قد بعد في السماء مرتقاها، حتى تساوى ثراها مع ثرياها وجازت الجوزاء سمتاً وعزلت السماك الأعزل سمكاً، وارتقت في الهوى وأسرت إلى السماء النجوى، وانتهت في الحسن إلى الغاية القصوى، فكأنما صورت جنة الخلد وأشربت حبة القلب وأوسعت قرة العين، ونقشت في عرض الأرض، وأبرزت في الإبريز الخالص المحض.

قد اتفق الذكر فيها وضرب المثل بتناهيها، وبلغ الخاصة والعامة خبرها، وبعد فيهم صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرها، وتوافى الناس إليها من البعد والقرب، والشرق

---

(258) - في النص حماشة

(259) - المقصود مسجد القبة (لد ع)

والغرب، متأملين لها متعجبين من مونق مرعاها، ورونق سناها، والتقى رجال برجال قد دخلوا البلدان، واستبدلوا الأوطان، وجالوا في الأمصار، وجابوا في الأقطار، فأقسم كل واحد منهم بجهد قسمه، أنه ما رأى لتمام محاسنها تماماً، ولا تأنق ما انتظمته مطالعها انتظاماً، ولا بعجيب ما تضمنه إبهاؤها، واحتجنته أفناؤها من النقوش السرية، والصنائع السنية، التي لا يبلغها نقوش أهل الهند، ولا تتهيها نمنمة أهل الصين، ولا تدركها رقوم أهل رها، ولا تساميها ديابيج تستر، ولا يقارن بها وشي صنعاء.

ولو لم يكن لها إلا السطح المرد[260] المشرف، على الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف، وفراهة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون[261]، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، أو أعيرت ملمس النضار الدلامس، ونقوش كقطع الحياض، وتشجير كألفات الرياض، يتسنم بين ذلك كله على أنه سنام الدنيا، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبة الأشخاص في خوابي رخام تهد الجبال ضخماً ولا تهتدي الأوهام إلى سبيل الإلفاء بها.

ولقد أخبرني الشيخ العالم القدوة شمس الدين الكركي قال: بلغت زنة الرصاص الذي على سقف قبة الصخرة هذه ثلاثين ألف قنطار بالدمشقي، هو بالمومني مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة.

وذكر عبد الملك بن حبيب رحمه الله أن عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصخرة، وجعل على الجانبة التي أعلى القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب، في كل صفيحة سبعة مثاقيل وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهباً.

وفي وسطها مكتوب بالذهب في أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين وظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الإسلام ابن الشهيد الملك المنصور قلاون تغمده إله برحمته وذلك في شهور سنة ثماني عشرة وسبعمائة»[262].

---

(260) - اجرى الدكتور العسلي كثيراً من التصحيحات في كلمات الأسطر السابقة اعتماد على رحلة الزياني المنقولة حرفياً عن رحلة البلوي هذه

(261) - موضون: منضد.

(262) - ذكر الدكتور العسلي انه لم يجد هذا النقش في قان برهم ولكنه كان موجوداً بفحواه العام في 1957/5/28. وقد سجله المهندس صالح احمد الشواربي المهندس المقيم للمكتب المعماري الهندسي على الوجه التالي: - أمر بتجديد

وتحت هذه القبة العجيبة الصخرة الشريفة التي هي كالجبل الراسي والطود العظيم معلقة وسط الفضاء بين الأرض والسماء لا صعوداً ولا نزولاً [؟]، إنما يمسكها الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا. وقد انصنع بهذه الصخرة الشريف والبنيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تفضي إليها أدراج جملتها خمس عشرة درجة، وفيها سطح مفروش بالرخام المجزع المختلف الألوان البديع الصنعة، وهو موضع مبارك للصلاة.

وفي الطرف القبلي من الصخرة الشريقة أثر قدم النبي ﷺ يتبرك به الناس ويمرغون خدودهم فيه. وقد طاف بالصخرة الشريفة شباك من العود (الخشب) وبعدها شباك آخر من الحديد (فيه)، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع للصلاة. وللقبة المثمنة اربعة أبواب فالباب الجوفي[263] منهما يسمى باب الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة. وبأعلى الباب الثاني منه لوح نحاسي كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا شريك له الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، (محمد) عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، صلى اله على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، مما أمر به الإمام المأمون أطال الله بقاءه في ولاية أخي أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يد صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين في شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين»[264].

وتذهيب هذه القبة مع القبة الفوقانية برصاصها مولانا ظل الله في ارضه القائم بسنته وفرضه السلطان محمد بن الملك المنصور الشهيد قلاون تغمده الله برحمته وذلك سنة ثماني عشرة وسبعمائة] ويعتقد الدكتور العسلي ان الاختلاف في النص يرجع إلى إعادة كتابة النص بعد إصلاحات جرت في القبة في فترة زمنية لاحقة

[263] - الجوفي: الشمالي

[264] - ذكر الدكتور العسلي ان هذا النص سجله عبد الله مخلص في عشرينات هذا القرن العشرين ونشره في مجلة «لغة العرب» ج 23 السنة 6 سنة 1928. ويتبين من مقارنة نص البلوي ونص عبد الله مخلص ان النصين متطابقان إلى حد بعيد، مع وجود اختلافات طفيفة:

في البلوي: ارسله بالهدى

في مخلص: ارسله الله بالهدى

في البلوي: مما امر به الإمام المامون

في مخلص: (وفان برشم) مما امر به عبد الله الإمام المامون

في البلوي: ابي إسحق بن امير المؤمنين الرشيد

في مخلص: كلمة الرشيد غير موجودة وهي موجودة في فان برشم

وبأعلى الباب الثاني من الباب الشرقي لوح آخر من نحاس أيضاً مكتوب هذا النص المذكور بجملته، وأمام باب الجنة المذكورة قبة تفشى النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة التي كان يحكم بها داود ﷺ، وهي قبة عجيبة قامت على (سواري) مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زرعية ونصه: [بسم الله الرحمن الرحيم وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلماً،[265] كمل تجديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهور سنة ست وتسعين وخمسمائة][266]. وفي الركن الغربي من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد[267] فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقربها عهداً وهو.. نصه: [بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وإله وصحبه، أما بعد فما زالت همم ملوك الإسلام تتناصر على إثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائها وإنشاء محاسن يباهون الأمم ببهائها، فيحيون رسوماً طالما نسجت عليها العناكب. ويرقمون على صفحات الأيام من الخيرات رقماً تشرف إليه الكواكب فتظل عيون الأماني بمآثرهم قريرة وأعواد أحبائهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها إلى رفع أقدارهم، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلاً من محاسن آثارهم: [من الكامل]

(فتراهم دون الرجام وذكرهم   باق بها فكأنهم أحياء)

فلله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة، ولما تشعث السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لأحيائه عبد

في البلوي: وجرى على يد صالح

في مخلص: وجرا على يد صالح

في البلوي: ربيع الأخير.

في مخلص: ربيع الأخر.

ومن هذا يتبين ان البلوي كان دقيقاً في نقله على وجه العموم وهذا النقش مسجل في فان برشم CIA, Jerusolem, II, No. 216 وكذلك No. 217

[265] - سورة الأنبياء، اية 78.

[266] - ذكر الدكتور العسلي ان هذا النقش غير موجود في فان برشم وهو غير موجود الآن

[267] - المقصود هو المدرسة النحوية التي انشأها الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة 604، وهي في الطرف الجنوبي الغربي لصحن الصخرة عند الدرج المؤدي إلى الساحة تجاه باب السلسلة ويبدو ان هذا النقش غير موجود في فان برشم (لد ع).

الله الفقير إليه أسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما آل إليه من النظر الشرعي في أوقاف جده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى. وكان الفراغ منه في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم»[268].

وفي الجهة الغربية ثلاث صوامع واسم المئذنة أو المنار أحق من اسم الصومعة لأن . الصومعة هي التي للراهب وهي بفتح الميم.

وفي الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصاراً، منها قبة الركن المشرقي الحافلة، وقبة المعراج، وقبة الميزان الرخامية، وقبة موسى البديعة، وقبة سليمان الرائقة.

وفي كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس، وقبة من تلك القباب إمام عاكف به قائم عليه.

ولقد عددت مواضع الإشفاع وصلاة التراويح بها في شهر رمضان المعظم، فألفيتها نحو الأربعين موضعاً. وفي الجهة الغربية من الصحن الكبير المثمن مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة المياه حافلة الصنعة بابها ملاصق لباب الحرم تسمى الدنقيدية[269]. ويسكنها الصوفية، وقد حف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الأدبية الغريبة والألفاظ البعيدة القريبة كل ما أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب ووجب أن كتب هناك بذوب الذهب، اخترت أخصرها ونقلت أيسرها، فكان الذي ارتضاه الاختيار واقتضاه الاختصار ما قيدته من مباح الطبقة العليا ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رفع لبيت المقدس في سائر الملل ذكراً، وفضله على أكثر البقاع شرفاً وفخراً، وجمع القلوب على محبته تعظيماً لرتبته، وقدراً، وأسرى بخير خلقه إليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه، سبحان الذي أسرى، فيا بشرى لمن بنى لله فيه بيتاً ولو كان شبراً، ويا أسعد من أسدى للناس فيه ثواباً وبراً، لقوله تعالى ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾[270] هو خيراً وأعظم أجراً، فأي خير أعظم من إنشاء هذا المكان وبناء

---

[268] - ذكر الدكتور العسلي أن هذا النقش غير موجود في فان برهم وقد زالت معالمُه

[269] - أي، التنكزية أو الدنكزية نسبة لوالي الشام تنكز الذي بناها سنة 729هـ وكلمة دنكز حيث تلفظ بالجيم المصرية وليس الكاف، تعني البحر بالتركية بدون لفظ الجيم المصرية (انظر تفصيلات عنها في معاهد العلم لكامل جميل العسلي، ص 118 وما بعدها)

[270] - سورة البقرة، الآية 110.

هذا الإيوان، الذي باب الرحمة مفتوحٌ بين يديه، والطور أمامه والشجر تحت قدميه، والجامع الأقصى كالقمر ناظر إليه، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه، وهو كالهلال قد ظهر بين الشمس والقمر. [من البسيط]

ما الشمس ما البدر في لالاء بهجته ... في كل ناحية من وجهه قمر

«أرجو لبانيه، أن يعطى أمانيه، وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل»[271].

وهذا الطور المذكور جبل عظيم منه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء فيما يذكر، وهو بشرقي هذا الحرم العظيم، فيه تلعة مباركة في أعلاها مسجد شريف حافل مؤسس بالسواري الحسنة الضخمة والرخام الأبيض الصافي، والحجر المنجور الجافي، يقصده الناس تبركاً، ودونه بيسير قبة مباركة يفضي إليها أدراج تحتها تربة الصالحة الولية رابعة العدوية[272]، رحمها الله تعالى. ودونها على بعد قبة كبيرة مختلفة فيها تربة مريم عليها السلام تفضي إليها أدراج هابطة إلى التربة الكريمة عددت فيها ثمانياً وأربعين درجة.

وفي هذه المدينة الكريمة بقاع طاهرة عليها بركات ظاهرة، وبها قبور الأنبياء صلوات الله عليهم وآثارهم نفع الله بالقصد والنية في زيارتها برحمته.

وما هذا الذي ذكرت من وصف تلك المشاهد الشريفة الذكر، والمساجد العظيمة القدر، والمعاهد الكريمة الفخر، إلا كالنقطة الواقعة في البحر، والذرة الساقطة في القفر، والشرارة من الجمر.

ولما لاحت نيرات هذه الأنوار، وفاحت نسيمات الأسحار، وشاهدت أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد إلاّ إليها الرحال، وعاينت الحرم الشريف حقيقة قد أحلني لديه الترحال، اخترت مجاورته وآثرت ملازمته، وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة وموضع محشر الأمة، ومحل تفريج الكربة والغمة.

حدثني الشيخ الفقيه القاضي شمس الدين عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكناني الغزي الشافعي[273] قاضي مدينة بيت المقدس حرسها الله تعالى سماعاً مني عليه، بحرم المسجد الأقصى الشريف بقراءة شقيقة الشيخ الإمام الأوحد، علم الدين أبي الربيع سليمان[274] ويقصد الرواية عنهما ومن أصله نقلت، قالا: حدثنا الشيخ الإمام

---

(271) - ذكر الدكتور العصلي ان هذه الكتابة اختفت الآن

(272) - مر تصحيح هذه المعلومة في غير موضع من الفصول السابقة

(273) - قال في الأنس الجليل (2/124 . 125)؛ كان متولياً في سنة 729، وتوفي سنة بضع وخمسين وسبعمائة

(274) - ولي قضاء غزة ثم قضاء الخليل، وتوفي 764. الأنس 2/125.

المحدث علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود العطار رحمه الله، قال الأول منهما، سماعا عليه في رجب سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وقال الثاني قراءة عليه في يوم الجمعة الثاني من صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة بدمشق المحروسة يرفعه إلى أبي هريرة ﷺ قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى، رواه البخاري ومسلم.

ولمسلم قال: إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: الكعبة ومسجدي ومسجد إيلياء. وبهذا السند إلى أبي العطار يرفعه إلى ذي الأصابع رجل من أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم، قال: قلنا: يا رسول الله أرأيت إن ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا، فقال عليك ببيت المقدس، فعسى الله أن ينشئ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون.

وبه عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال، من زار بيت المقدس محتسباً لله عز وجل حرم الله لحمه وجسمه على النار، وبه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: فضل صلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة وفي مسجدي ألف صلاة وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة.

وبه عن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله الصلاة هاهنا أفضل أم الصلاة في بيت المقدس، قال صلاة في مسجدي خير من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر.

وبه عن يزيد بن عبد الله رحمه الله قال: من خرج إلى بيت المقدس بغير حاجة إلا الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صبحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه.

ولو تتبعت الأحاديث المأثورة والأخبار المشهورة لأملأت ورويت ورويت. هذا إلى ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء، وامتنع عن صدور الأولياء، الذين وردوا على طاهر تلك البقاع، وقصدوا إلى العبادة فيها والانقطاع، فسن الله إليّ البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم.

ولما كثر علي تعدادهم، وقل علي نظراؤهم وأندادهم، انتقيت منهم هاهنا خمسة يتبرك بذكرهم، وتعطر الأندية بشكرهم (فأولهم) في الحلبة وأولاهم بالتقديم على هذه العصبة الشيخ الخطيب العالم زين الدين أبو البركات عبد الرحيم[275] بن

---

[275] - وهو ابن القاضي بدر الدين محمد الذي تولى قضاء الديار المصرية والذي مر ذكره في الحديث عن رحلة العبدري، وهو الجد الأعلى للشيخ عبد الغني النابلسي قطب الصوفية في العصر العثماني

بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي الفضل بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الشافعي سليل العلماء العالمين وقليل النظراء في عباد الله الصالحين، تجلى من مراقب الفضائل والمعارف وتحلى بالمجد التليد والطارف قصرت الأوهام عند كنه فضله ونقصت الأحلام عن رجاحة عقله وعجزت الأقلام عن وصف مثله، كنز من كنوز الكرم لا ينفد على النفقة ولا يسأم من الصلة والصدقة. فيا له من رجل ما زادته الرفعة إلا تواضعاً عجباً، ولا أبقت له المعلومات في العجب أربا . برع بأحسن صورة، ورفع من المجد أرفع سورة، وجمع جمال سمات وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشريف ومحرابه، وعين للإمامة فيه والخطابة، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه، فجلس على الكرسي الأكبر ورقى ذروة المنبر.. [من الطويل]

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليه المنبر

خطة ورثها من الفاضل أبيه، ورتبة ما برح يتوخى فيها السنن الرضى ويقتفيه، ولو لم يكن لديه إلا اقتفاء سير أسلافه الصالحين والرواية عنهم وعن والده قاضي القضاة بدر الدين رضي الله عنهم أجمعين.

لقيته بالمسجد الأقصى عمره الله تعالى بالذكر، وضاعف لمجاوره جزيل الأجر، فأدخلني إلى منزله الكريم الذي التصق بابه بمحراب ذلك المسجد العظيم، فرأيت منزلاً جليل القدر، سامي الخطر، مكلل الجوانب مرصع الأزر[276]، فذهلت في نقشه وخجلت من وطء فرشه، ثم ذكرت ما أعده الله تعالى لأوليائه في دار كرامته من النعيم المقيم وتلوت: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[277]... والله ذو الفضل العظيم﴾[278]. وقد سفرت في زوايا مجالسه خدود الورد الغض، وتراكمت سحائبه بعضها فوق بعض، فعجبت من ظهوره في غير أيامه، وأكببت على انتشاقه والتثامه..

ولم أزل أتردد إليه وأسمع منه، وأقرأ عليه حتى تحصلت لي منه جمل مفيدة، ومقيدات عديدة. ومما قرأت عليه بمنزله المذكور جميع الجزء الذي ألفه وخرّجه عن شيوخه في أحاديث نبوية، وفوائد جمة، وجميع الجزء المسمى بتنقيح المناظرة، في تصحيح المخابرة، وجميع كتاب المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، وهو اختصار كتاب ابن

---

[276] - يرجح من الوصف انه كان يسكن في الزاوية الختنية الملاصقة للمسجد الأقصى من جهة الجنوب (الد ع).

[277] - سورة آل عمران، الآية رقم 73.

[278] - سورة البقرة، الآية رقم 105.

الصلاح رحمه الله تعالى، وجميع الخطب المختصرة من خطب ابن نباتة[279] رحمه الله تعالى.

ومما سمعت بلفظه بعض كتاب غرر التبيان لمن لم يسم من القرآن، وبعض كتاب تجنيد الأجناد في وجهات الجهاد، وبعض كتاب مستند الأجناد في آلات الجهاد، وكلها من تأليف والده، سوى الجزء الأول، وتناولت ما لم يكمل في سماعه عن يده المباركة وأخبرني بذلك سماعاً عن المؤلف والده المذكور، وقرأت عليه وسمعت منه غيرها حسبما كتب لي لذلك وأجازني إجازة تامة.

والثاني أعوذه بالمعوذتين والسبع المثاني الشيخ العالم الإمام الحافظ مفتي المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلدي[280] بن عبد الله العلائي الشافعي الدمشقي[281] نزيل بيت المقدس نفع الله تعالى به، رجل من أكبر كبار المشرق. واستقل بالإمامة في جميع فنون العلم ولما يشب له سواد المفرق، واستقر بالنيرين، نور علمه ونور جبينه المشرق، فجلى من حسن الصورة بما قصرت عنه مخدرات القصور، وأتى من الشجاعة ما يرعد به مفارق ومفاصل الليث الهصور، ومنح من الكرم ما تخلى عنه أسخياء هذه الأزمنة وكرماء هذه العصور.

ولما أكمل تعالى عليه نعمته في كمال خلقته واعتدال قامته وبنيته، أحب أن يزيد كمال حلاه البدنية، وصفاته بكمال نفسه السنية، وذاته البهية، فجمع في صدره ما تشتت من فنون العلم، وألقى عليه سكينة الوقار والتقى والحلم، وألبس أديم الحسن ناعم ذلك الجسم، فلم تر عيني على عظيم ما رأيت من مخلوقات الله تبارك وتعالى رجلاً أتم حسناً، ولا أكمل معنى، ولا أنبل تحصيلاً، ولا أفضل جملة وتفضيلاً، منه في صورته وسيرته وعمله، ولبسه وعقله وفضله، واعتداله وكماله، وجزالته وبسالته، وشجاعته وبراعته، ودهائه وحيائه وحبائه، وكرمه وكلمه، وحفظه ولفظه، وفصاحته وسماحته، وذكائه ونباهته ونزاهته وزهادته، وورعه ودينه، وإخلاصه ويقينه، وحركاته وسكونه، وتصرفاته في جميع فنونه.

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت   تلك الفضائل في لحم ولا عصب

---

[279] - هذه إشارة إلى أن صياغة الرحلة تمت بعد وفاة ابن نباتة الذي التقاه في بيت المقدس كما سيمر معنا.

[280] - الكيكلدي، محدث كبير ترجم له ابن السبكي في الطبقات وهو غير الذي شرح لامية العجم المشهور بالصفدي الشامي

[281] سبق ذكره في رحلة ابن بطوطة (لد ع).

يميناً بآياته السافرة، وآياته السائرة إن الأحبار لفي حيرة بإفادته كالمحابر والمنابر، بإجادته، وإن أوضح الملفوظات ما تلقاه فألقاه، وأصح المحفوظات، ما أحرزه فأبرزه. ببصيرته يحتذي البصري، وبكفايته يقتدي الكوفي، وبنكتته يستصحب الصاحب[282] وعلى إنشائه يعتمد ابن العميد.

وأما الآثار فعليه مدارها ولديه ينفق عندها وبندارها[283] لا جرم أن ذا التحصيل والرأي الأصيل، من طاف بسدة سيادته، وجنح لمعلم علمه فاستمدى الرشاد والسداد واستملى[284] المتن والإسناد ليسعد جده بالحمل على الجادة، ويتحقق في كل صورة ومادة، بين الصبح لذي عينين، وما قلت إلا بالذي علم سعد، لقد حضرت مجالس تدريسه التي هي منتدى الأعلام، ومنتهى جهد الأسماء الأعلام، وميدان فرسان الطروس والأقلام، وقلائد أعناق مدارس الإسلام. فكان كل من حضرها من علماء الأمصار يحلف أنه ما سمع بمثلها من مثله في هذه الأعصار، وأن الله أخلصه بخالصة ذكرى الدار، وجعله من أولى الأيدي والأبصار.

ولقد حل أول شهر رمضان معتكفاً بالمسجد الأعظم لالتزام الأوراد والأذكار، والتسبيح والاستغفار، فما كان يبرز منه إلا للإفطار، وقضاء ما خف من الأوطار. ولقد شاهدته بطول الشهر المذكور وقد اختص به واحتل بمنزلة من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الأربعين رجلاً سوى عائلته، والجميع من عنده يأكلون وإليه ينضمون ويأوون. فسألت [عن] ذلك فقيل لي ذلك دأبه وعادته في رمضان كل سنة على تعاقب الدهور والأزمنة. وهذه نبذ من عظام فضائله، ولمع من حسان فعائله، فلنقف عندها، وهي تدل على ما بعدها، ثم نذكر بعض ما سمعت من لفظه ونقلت من خطه أو حفظت. فمن ذلك كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ) للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله تعالى، سمعت جميعه من لفظه بالمسجد الأقصى الشريف وحدثني به بسند المكتتب بخطه في إجازته لي، وقرأت بلفظه جميع كتاب الشفاء هذا، وسمعته بلفظ غيره على جماعة كثيرة من أهل الأندلس غرب العدوة وأثبت سندهم فيه في برامج روايتي، وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن الحجاج ﵁ وجميع الجزء الذي صنفه في تقرير

---

(282) - الصاحب بن عباد.

(283) - البندار: التاجر الذي يلزم المعادن، شبه طلبة العلم الذين ينفقون وقتهم لدى هذا العالم بتجار المعادن الثمينة الذين يعرفون أين يضعون أموالهم

(284) - ن 1 و2 واستملا وهو خطأ لأن استملا الدين جعله في الأغنياء الثقة ومعنى استملى في النص أخذ العلم عن هذا العالم إملاءً

الوحدانية لله تعالى، يشتمل على تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ﴾[285] الآية. وجميع (بغية الملتمس في عوالي حديث مالك بن أنس) من تخريجه أيضاً، وهو ستة أجزاء خرجها من كتاب الموطأ. وقرأت وسمعت عليه غير ذلك مما هو مثبت بخطه كذلك.

وله شعر رائق ونثر فائق أسمعني من ذلك جملة وأنشدني. ومن خطه نقلت لشيخه الإمام العلامة فريد دهره ووحيد عصره قس الفصاحة ملك البلاغة شهاب الدين بن أبي الثناء محمود سليمان الحلبي[286] كاتب السلطان بدمشق كل فريدة غيداء، وحديقة غناء، رائقة النظم والرصف، فائقة الوسم والوصف، مالكة القلب والطرف. [من الطويل]

يقود عنان السمع حسن نشيدها ... فتزرى بألحان الغريض ومعبد

وأنا أول من جلب شعر شهاب الدين هذا فأدخله بلاد الغرب وقصيدته اللامية الحافلة التي استوفت كثيراً من معجزات النبي ﷺ، وهي من القصائد العجيبة والقلائد الغريبة وأولها:

هذا اللقاء وما شفيت غليلاً ... كيف احتيالي إن عزمت رحيلا

يا دار من أهوى وحقك لم أجب ... داعي التفرق لو وجدت سبيلا

وعددها مائة بيت وواحد وثمانون بيتاً.

والثالث أكبرهم سنا، وأكثرهم بالمعاني الأدبية معنى، الشيخ الفقيه المحدث الأديب علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشافعي[287]، ابقى الله بركته، شيخ النظم والنثر، وإمام الحديث في ذلك القطر، خطب حسناء الأدب سنين، وانعقد النكاح بينهما بالرفاء والبنين، واعتنى بالرواية فأخذ عن جلة من الشيوخ الغابرين. قطع في ذلك زمنه، وأطار فيه وسنه، ولم يثن لغير العلم همته، ولا جر في سواه رسنه، فروى وقيد وشيد من مباني العلم ما شيد، فهو اليوم، وإن قرب من الفوت رحله، هذا الوقت له سبلة منسدلة يروق إيماضها ويفوق السواد بياضها، على وقار وسكينة وجلالة مكينة

---

[285] - سورة النساء، الآية 171.

[286] - محمود بن سليمان الحلبي ثم الدمشقي شهاب الدين (644 . 725/1247 . 1325) ولي ديوان الإنشاء بمصر والشام نحو 50 عاماً. ثم ولي كتابة السر بدمشق كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره (الأعلام 172/7) (الد ع).

[287] - تولى مشيخة الصلاحية سنة 726 وتوفي 748 عني بمختلف العلوم الإسلامية، مجير الدين 106/2 الدرر الكامنة 99/3، ابن كثير 123/14 شذرات الذهب 153/6.

وحصاة رزينة وهيئة زينت بأحسن زينة، ينصب مجالسه المباركة لعلوم الحديث، فيملوها منه الصدق، ويغتنمها لديه الخلق، ويطرق إليها من أقاصي البلاد، فيلحق فيها الأصاغر بالأكابر والآباء بالأولاد.

سمعت عليه بمجلسه من المسجد الأقصى الشريف، جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ﷺ، بعد أن كنت سمعت عليه جميع الثلاثيات المخرجة منه، وحدثني به عن الشيخ الإمام تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري[288]، وعن الشيخ الحافظ شرف الدين الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني[289] قراءة منه على كل واحد منها بجميعه بدمشق المحروسة قالا: أخبرنا الشيخ الصدوق أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن الزبيد أخبرنا الشيخ الثقة أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن الشجري أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الداوردي أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسي، أخبرنا أبو عبد الله البخاري.

وقد كنت قرأت عليه بلفظه جميع صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري بالمسجد الأعظم في مدينة مالقة، حرسها الله عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الصالح الولي لله تعالى أبي عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي الطنجالي، وسنده فيه مشهور لجودته، وسمعت على شيخي هذا بالمسجد الأقصى الشريف، جميع أحاديث الرباعيات المروية عن مسلم ﷺ، وجميع الجزء الذي فيه التساعيات من شيخه ابن البخاري، وجميع الجزء الذي فيه ثمانية وثمانون حديثاً من مشيخته أيضاً، وجميع جزء الأنصاري وجميع الثمانية عشر حديثاً وحديثين عن ثمانية عشر شيخاً، وشيخين لابن الطاهر، وأسانيد هذه الأجزاء كلها مستوفاة في برنامج روايتي، وسمعت عليه بحيث ذكر جميع قصيدتيه الرائيتين اللتين نظمهما في فضائل المسجد الأقصى شرفه الله تعالى، وأجازني بالإجازة التامة وكتب لي بخطه.

ومولده يؤخذ من قوله فيما كتب لي به في استدعاء وأنشدنيها بلفظه ﷺ: [من الطويل]

---

[288] - عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري البدري ابو محمد تاج الدين (624 . 690/1227 . 1291) مؤرخ من علماء الشافعية، مصري الأصل، دمشقي الإقامة والوفاة، وهو والد برهان الدين إبراهيم مؤلف كتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس (والأعلام 293/3).

[289] - محمد بن احمد اليونيني (572 . 658/1176 . 1260) من حفاظ الحديث، حنبلي وهو ابو قطب الدين موسى المؤرخ (الأعلام 322/5).

(أجـازهم المسئول فيـه بـشرطه   علي بن أيوب بن منصور بالقدس)

(ومولـده مـا بـين سـتين حجـه   وسـبعين بعـد السـتمائة بالحـدس)

ورابعهم في التعداد، العديم الأقران والأنداد، الشيخ الفقيه المقري الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي محمد بن مثبت الخولاني الأندلسي[290]، أحد العباد الموفقين، والعباد المتقين، يذكرك سيره السلف الصالح، بعمله الموهوب وعقله الراجح، ما تراه أو تلقاه إلا يروعك دينه وتقاه، ولا تبصر مجلسه أو ممشاه، إلا وتهابه وتخشاه، اشتغل بما يعنيه، واشتمل دهره أما على علم ينجيه، أو إلى عمل يجنيه، قد عزل عن الناس نفسه، وجعل بالله وبكتابه أنسه، فليس له هم إلا في إقراء القرآن، وإيراده عند إغفاء الأجفان، أو في إطعام كبد جائع، وإغاثة ملهوف مغترب شافع، فهو مأوى الغرباء وجنان الفقراء ومظان قضاء حوائج الإخوان والأولياء: [من الخفيف]

قبـة في الـسماح يجتمـع الـسا   بـق في فـضلها مـع المـسبوق

رحل عن الأندلس فتى غرًا فجرعه البين كأسه مرا، وإلى هلم جرا. يذكر أوطانه فتفيض دموعه حمرا، ويهب له منها نسيم فيذكي ضلوعه جمرا، لا جرم أن الزمان أخذ بيده، فبلغه أسنى مقصده، وانجزه أكرم موعده، فوعى وفهم، وعمل بما علم، واستفاد وأفاد، ورزق المال والأولاد، فهو الآن بذلك الحرم الشريف من خيار المدرسين وكبار الرؤساء لا المرؤوسين، كثيراً ما كنت أحضر مجالسه العلية وفوائده العلمية ودروسه الفقهية والنحوية فأغبط من حضر والتقط الدرر: [من البسيط]

وأمـنح الطـرس مـن ألفاظـه نبـذا   وأخلـط العنـبر الـوردي بـالعفر

ومما قصدت روايته لعلوه فيه، كتاب عوارف المعارف تأليف الإمام شهاب الدين أبي حفص السهروردي[291] رحمه الله تعالى سمعت أكثره بلفظه وتناولته من يده، فحدثني

---

(290) - سيمر ذكره في رحلة ابن بطوطة.

(291) - غالباً ما يتم الخلط بين أبي حفص السهروردي وبين أبو الفتوح السهروردي الذي قتل بداعي الزندقة في حلب اواخر سنة 586 هـ فالمقتول على الزندقة هو ابو الفتوح يحيى بن حبش بن اميرك، الملقب شهاب الدين، السهروردي اما صاحب العوارف فهو ابو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله، البكري الملقب ايضا كشهاب الدين السهروردي نسبه إلى ابي بكر الصديق، رضي الله عنه قال ابن خلكان: كان فقيهاً شافعي المذهب شيخاً صالحاً ورعاً كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله، وصحب عمه أبا النجيب وعنه اخذ التصوف والوعظ، والشيخ ابا محمد عبد القادر بن ابي صالح الجيلي وغيرهما، وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ ابي محمد ابن عبد، ورأى غيرهم من الشيوخ، وحصل طرفاً صالحاً من الفقه والخلاف، وقرا الأدب، وعقد مجلس الوعظ سنين وكان شيخ الشيوخ ببغداد توفي سنة 632 هـ

به عن الشيخ كمال الدين عمر بن إلياس المرعي سماعاً عليه بجميعه حدثه به عن الشيخ الإمام قطب الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد القسطلاني[292] قراءة عليه من المؤلف شهاب الدين المذكور سماعاً عليه من لفظه أيضاً، أكثر رسالة الشيخ أبي القاسم القشيري رحمه الله وناولني إياها، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن إسماعيل بن جهبل قراءة منه عليه لجميعها، حدثه بها عن الشيخ شرف الدين بن هبة الله بن عساكر سماعاً عليه، عن الشيخ أبي محمد عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي سماعاً، عن المؤلف المذكور وسمعت من لفظه جميع الأحاديث التي خرجها الشيخ الإمام فخر الدين أبو الحسن علي السعدي المقدسي الحنبلي، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن جهبل المذكور، قراءة عليه حدثه بها عن مخرجها فخر الدين المذكور سماعاً، وسمعت غير ذلك وأجازني إجازة تامة وكتب لي بخطه[293].

(وأوترهم) بل أوثرهم بمسك الختام، وملك الكلام وخامس الأربعة الكرام، وحامل لواء البيان بين صناديد مصر وفحول الشام، الشيخ الفقيه الأديب الأبرع جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم بن نباتة، المصنف صاحب الخطب الشهيرة أبرع خلق الله إذا نظم أو كتب، ومن جمع الله له الأدب والحسب، ورحب في تلك الطباع، أملح الانطباع وأمد الباع إن تغزل أو نسب، الذي مد أرض البلاغة ودخلها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، يستخرج من بحره اللؤلؤ المنظوم والمنثور فيسحر الحور ويفتن الحور[294] ويطمع المهارق ويوئس النحور، فرفقاً يا درة النفس ومهلاً يا مرجانه المسطور، غازلت الغزلان، وبدرت البدور، وعلمتنا نبذ المباسم ونسى الثغور فنحن في روضة مدبجة نخرج من زهرة إلى زهرة.

ولما ملكه الله تعالى ملاك هذه الطريقة الأدبية وقوامها وحطت لديه هذه الصناعة السنية رحلها وزمامها ومدت له في الأدب غاية كبا دونها أهل الآداب، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب، تنافست ملوك الشام في لقائه وتهافتت على اصطفائه وارتقائه فخولته مقاصد وقصوراً ووهبته ولداناً وحوراً، وأنالته نعيماً وملكاً كبيراً، فانضوى إليهم زماناً، وتلقى منى وأمانا فزهت في يمينه الأقلام، ونهت وأمرت بين يديه الليالي والأيام: [من المتقارب]

---

[292] - 614 . 686، عالم بالحديث ورجاله، أصله من توزر بإفريقيا، ومولده بمصر، تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى ان توفي له كتب كثيرة في الحديث والتفسير تجد بعضها في (الأعلام 323/5).

[293] - شاذياخ من قرى بلخ، (معجم البلدان 305/3) وشاذياخ أيضاً مدينة نيسابور (المصدر نفسه).

[294] - الحور في الكلمة الأولى جمع أحور وفي الكلمة الثانية جمع حوراء.

وزف إلـــيهم بنـــات النـــهى فـأمهر نقـدا ولم يخـش نقـدا
ونظمهـــا بجـــبين العلـــى فزانـت كما زيـن الجيـد عقـدا

خطب حسناء المعالي فلم يغله المهر، ونهى وأمر فامتثل إليه النهى والأمر، وأنيل أمله النظم والنثر، وحلل سحرهما وقد حرم السحر، فقرط وشنف، ودبج وفوف، وألف وصنف، وعنى ببنات فكره القلوب ممنى عنى وعنف، وسحرتني ألفاظه، ولقد كنت بعيداً من أن أصاب بسحر، إلا أنه اليوم قد آثر الراحة من حراسهم وحجابهم، واستغنى بباب الله عن الوقوف إلى أبوابهم، فما يطأ لهم نادياً، ولا يلبي منهم منادياً، بل اقبل على ما يعنيه، وأعرض عما كان يتعبه ويعنيه، بهمة تشرق فهي الشمس أو تسمو إلى الغايات فهي زحل.

لقيته بحرم المقدس أتاه من دمشق زائراً، وخرج من بيته مهاجراً، وقد كان عرف أني في الطريقة من أنسابه، وعلى الحقيقة من المتعلقين بأهدابه، فحين رآني أسرع في القيام، وبادر إلى اللقاء وإلى السلام، فخجلت من فعله وعجبت من فضله واستنشدني من شعري، فأنشدته لي ولغيري، وتحصل بيني وبينه ذمام أكيد، وعهد بفضل الله حميد، ثم سألته في تقييد شيء من شعره، فأخرج لي ما ارتضاه منه واختاره في نسخة تغار عليها حبات القلوب إذا تبديها، وتود الأحداق إذا رمقتها لو تبديها بياضها ببياضها وسوادها بسوادها، فاستعرتها منه، وكتبتها عنه، فلما رمق ما كتبته أحب افتناءه تجديداً للعهد وحفظاً للود فاستوهبه مني محتشماً، وأسعفته فيه فقبله وقبلت ضاحكاً مبتسماً، ووهبني أصله وأكمل لدي طوله وفضله، فأنا أول من جلب ذلك الدر النفيس من بحره، وتقلد في جيده ونحره، وفاز بشرفه وفخره. ولما قرأت عليه أخذ القلم بمحضري وكتب على ظهر الأصل ما نصه (الله الموفق قرأ عليّ الشيخ الإمام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد البلوى الأندلسي شكر الله بره المغدق وأصله المعرق، وحرس شخصه الذي تقول المحاسن: أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق أكثر هذا النبذ من شعري، والرسالة من إنشائي قراءة ملأ بها سمعاً وذهناً، وأريح بها للشعر نقداً ووزناً، وفضها سبط حلى، فهو إما يقلد عنقاً وإما يقرظ أذناً وأحكمها ببيانه وصوته، فما سمعت أطيب من حالته إعراباً ولحناً، وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لي روايته معترفاً بفوائده الممتازة، عالماً أنه كان يجب أن أجيز من الجائزة لا من الإجازة، متطوقاً عوارفه التي عز بها الجيد ولا كرامة للدر ولا عزازة، ونحلته هذه النسخة. وسألته إصلاحها بعد أن تعرضت عنها بنسخة من خطه الذي يتنافس فيه البصر والسمع، وقطرات أقلامه التي إذا نافستها أقلام الفضلاء تولوا

وأعينهم تفيض من الدمع والله تعالى يرحم أسلافه، ويبقى منه على كرمه الطاهر ما أبقى الكرم من السلافة، قال ذلك وكتبه محمد بن الخطيب بن نباته العبشهى المصري ثم الشافعي وذلك في شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بحرمة القدس الشريف.

ثم تألف بتلك المدينة الركب، واشتاق إلى البقاع الكريمة القلب، فأعددت الزاد. وشددت الأقتاب والأقتاد[295]، وخرجت من مدينة القدس الشريف. في عشي يوم الأربعاء الثاني عشر لشوال من العام المذكور. وقد تضمخ حبي الأصيل بالعبير، وكادت الشمس تسقط من الغرب على شفير، فبتنا بقرب سورها، وأخذنا من الأمور بميسورها، وودعت بمنزلنا ذلك أخي محمد المذكور المتقدم الذكر وداعا استولى على الفكر، فشغلت مقل بالدموع، وأكباد بالجمر، وطالت النوى لوجدان الأسى وعدم الصبر: [من الطويل]

ومدت أكف للوداع وصافحت وكادت عيون للفراق تسيل

ولابد للإلفين من دمع لوعة إذا ما خليل بان منه خليل

ولما غاض نهر المجرة، وابتسمت[296] أسنان الكواكب المفترة، سرنا إلى أن خيمنا بظلال روضات الغهور، وقد استل سيوف الجداول وتوشح خمائل النور، فمدت حينئذ في صفة الشمراء: [من الكامل]

وتحدث الماء الزلال مع الحصا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى

وكأن فوق الماء وشياً ظاهراً وكأن تحت الماء درا مضمرا

فترامينا على تلك المياه بين تلك الظلال مستقين وأنشدتهم لكاتب ميافارقين: [من الوافر]

وقانا وقدة الرمضاء ظل وقاه مضاعف الظل العميم

يراعي الشمس أنى قابلتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

وسقانا على ظمأ زلالاً ألذ من المدامة للنديم

تروع حصاه حالية الغواني فتلمس جانب العقد النظيم

ثم عبرنا واديه الكبير، بعد أن لقينا الجهد الكثير، وسرنا سيراً مجداً، لم نأل فيه جهداً، إلى أن اجتمعنا بالركب الصفدي بخارج حسبان. وصلناها والأصيل قد ولى، وعامل الظلال قد تولى، فبتنا جميعاً بها ولم نفرق بين ظهور المطي وقتبها حتى عبث

---

(295) - القتب: رحل صغير والقتد خشب الرحل

(296) - ن 3 وهتمت: أي سقطت

الابتسام بالوجوم، وفاض مهر المجرة على حصباء النجوم، فنبهنا أيدي المطي على سنة الكون، وحركنا منها ما كان مبنياً على السكون، وسرنا إلى أن وافينا مدينة (الكرك)[297] المحروسة العليا، التي هي من أمنع معقل، في الدنيا، فوصولنا إليها في ضحوة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال المذكور، فرأيت مدينة عظيمة الجرم، سامية الرسم، كأنها على مرقب النجم...

(297) - ن1 و2 مدينة الكرك قلعة بنواحي البلقاء.

ابن بطوطة في فلسطين

يعد الكثير من الباحثين أن ابن بطوطة هو الرحالة العربي الأعظم في العالمين العربي والإسلامي، بل هناك من يضعه في مصاف أعظم رحالي البشرية، وقد طاف هذا الرحالة العجيب بلدان العالم القديم أجمع ومر على فلسطين متخذاً طريق مصر وقدم لنا شهادة ثمينة عن بعض أحوالها في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وكانت فلسطين ضمن المملكة الشامية التي كان كافلها آنذاك الأمير تنكز. وكانت فلسطين في ذلك الوقت تمر بأزهى عهودها بعد خروج الصليبيين من أرضها نهائياً.

ولد محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي في طنجة بالمغرب سنة 703 هـ،1304م، لعائلة عرف عنها عملها في القضاء. وفي فتوته درس الشريعة وقرر عام 1325م، وهو ابن 21 عاماً، أن يخرج حاجاً. كما أمل من سفره أن يتعلم المزيد عن ممارسة الشريعة في أنحاء بلاد العرب.

وخرج ابن بطوطة من طنجة سنة 725 هـ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام وفلسطين و الحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين و تركستان وما وراء النهر وبعض الهند و الصين والجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم، واستعان بهباتهم على أسفاره.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، و قد استغرق في مجموعها نحو تسع وعشرين سنة، و كان أطولها الرحلة الاولى التي زار خلالها معظم نواحي المغرب و المشرق، وكانت أطول إقامة له في بلاد الهند حيث تولى القضاء سنتين، ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصف السنة، وفي هذه الفترة وصف كل ما شاهده وعاينه فيهما و ذكر كل من عرفه من سلاطين ورجال ونساء، ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم، وما حدث في أثناء إقامته من حوادث و حروب و غزو و فتك بالسلاطين والأمراء ورجال الدين.

وكان ابن بطوطة في خلال إقامته هذه مندفعاً بعاطفته الدينية إلى لزوم المساجد والزوايا، فلم يدع زاوية إلا وزارها ونزل ضيفاً عليها.

وفي فاس، أعجب سلطان المغرب ابن عنان [1348– 1358 تقريباً] جداً بأوصاف البلاد التي قصها عليه ابن بطوطة، وأمره بأن يلزم فاس ويضع هذه القصص في كتاب. وفعلاً، بمساعدة كاتب طموح هو محمد بن جزي الكلبي (1321– 1356 تقريباً)، ألف ابن بطوطة كتابه الشهير (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) في أربعة أجزاء منفصلة. بعد انتهائه من كتاب الرحلات. لم يخرج ابن بطوطة، الذي تقدم في السن، بأي رحلة مطولة لا إلى الصحاري ولا إلى غيرها. بل أخذ يعمل في القضاء ويواصل نشر ما اكتسبه من حكمة خلال أسفاره. وعلى الرغم من عدم توفر معلومات وافية عن السنوات الأخيرة من عمره، إلا أننا نعرف أنه توفي عن عمر 65 عاماً. وبعد سنين طويلة من وفاته ظل ابن بطوطة صاحب أطول أسفار في العالم[298].

وربما كان ابن الجزي قد أضاف للكتاب قليلاً من العنصر القصصي بين الحين والآخر بهدف التشويق وسهولة التواصل مع القراء، لكن يعتقد عموماً أنه التزم إلى حد كبير بما سرده ابن بطوطة عليه. وقد نبه الحافظ ابن حجر العسقلاني إلى أن ابن بطوطة لم يكتب تفاصيل رحلته وإنما الذي كتبها وجمعها هو أبو عبدالله بن جزي الكلبي وهو من نمقها، وكان البلفيقي يتهمه بالكذب والوضع.

وفي نص الرحلة لا ينكر ابن جزي تصرفه بالنص فها هوذا يقول في المقدمة: (ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمعاني التي اعتمدها)، ويقول في آخر الكتاب: (انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبدالله محمد بن بطوطة).

ومن الأمور التي أثارت جدلاً حول مصداقية بعض ما ورد في الرحلة، هو ما نبه إليه محقق الرحلة الدكتور علي المنتصر الكتاني من أن قصة ابن تيمية هي (محض افتراء على الشيخ رحمه الله، فإنه كان قد سجن بقلعة دمشق قبل مجيء ابن بطوطة إليها بأكثر من شهر، فقد اتفق المؤرخون أنه اعتقل بقلعة دمشق لآخر مرة في اليوم السادس من شعبان سنة 726هـ ولم يخرج من السجن إلا ميتاً، بينما ذكر المؤلف –ابن بطوطة– في الصفحة 102 من كتابه أنه وصل دمشق في التاسع من رمضان). ولكن وعلى الرغم من هذه الملاحظات التي يتحمل مسؤوليتها الجزي، فإن الرحلة تعد واحدة من أعظم نصوص الرحلات في التاريخ البشري، والغريب أن هذه الرحلة لم تكتسب شعبية في الغرب إلا في

---

[298] - رحلة ابن بطوطة طبعة الكتاني تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي دمشق الشام لأحمد إيبش ابن بطوطة، مارتن نلك، مجلة الشندغة، الإمارات العربية المتحدة، العدد 52، مايو يونيو 2003.

القرن التاسع عشر، حينما ازداد التواصل مع أوروبا وقدم الكتاب هناك ليترجم إلى الإنجليزية والفرنسية واللغات الأوروبية الأخرى. ويقدر الباحثون الأوروبيون كتاب ابن بطوطة عالياً باعتباره وثيقة تاريخية مهمة.

وقد صدرت أول طبعة لرحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية لها بأربعة أجزاء على يد المستشرق ديفرمري وسانكونتي عام 1853- 1858م، وطبعت في القاهرة طبعتين منقولتين عن الطبعة المذكورة، وفي أيامنا أعاد نشرها علي المنتصر الكتاني وصدرت عن مؤسسة الرسالة في بيروت عام 1972م.

أما فلسطين التي زارها ابن بطوطة في عام 726 هجري كما هو راجح، فقد كانت الأمور بها هادئة، وثمة ثلاث من مدنها الكبرى قد غدت خراباً بعد الحروب الصليبية، وهي عسقلان وعكا وطبرية، ويمكن عد صور أيضاً مدينة فلسطينية في ذلك الوقت لأنها كانت جزءاً من جند الأردن الذي يشكل شمال فلسطين، وجزءاً من مملكة صفد في زمن ابن بطوطة.

وتكمل الصورة التي يرسمها ابن بطوطة لمدن الجنوب الفلسطيني تلك الصورة التي رسمها قاضي صفد وقبله شيخ الربوة للشمال الفلسطيني.

غزة :

ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار، كثيرة العمارة حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة والأسوار عليها . وكان بها جامع حسن، والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الأمير المعظم الجاولي. وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض.

وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني، ومدرسها علم الدين بن سالم. وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس.

الخليل :

ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً، وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر عجيبة المخبر، في بطن وادٍ، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت.

في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً. ويقال إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس. فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم. ويقابلها قبور ثلاثة، هي قبور أزواجهم. وعن يمين المنبر، بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق، يفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة. ويقال: إنها محاذية لها .

وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك، وهو الآن مسدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازيالي سماه: المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم و إسحاق ويعقوب. أسند فيه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أسري

بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر إبراهيم فقال: انزل فصل ركعتين، فإن هنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مر بي على بيت لحم وقال: انزل فصل ركعتين، فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام. ثم أتى بي الصخرة) وذكر بقية الحديث.

ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبري، أحد الصلحاء المرضيين، والأئمة المشهورين، سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك؟ فقال لي: كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب، على نبينا وعليهم السلام، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه، ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى الغار، ووقف عند قبر سارة؛ فدخل شيخ فقال له: أي هذه القبور هو قبر إبراهيم ؟ فأشار له إلى قبره المعروف، ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له إليه. ثم دخل صبي فسأله أيضاً فأشار له إليه، فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر إبراهيم عليه السلام لا شك. ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد.

وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف عليه السلام. وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام. وهي تل مرتفع، يشرف منه غور الشام. وعلى قبره أبنية حسنة. وهو في بيت من أحسن البناء مبيض ولا ستور عليه. وهنالك بحيرة لوط، وهي أجاج. يقال إنها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمه. وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب، لا يسع إلا مصلياً واحداً، ويقال: إن إبراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط، فتحرك موضع سجوده، وساخ في الأرض قليلاً.

وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع: بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء. وفي رسول الله أسوة. هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه. وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر. وتحت ذلك هذه الأبيات: [من البسيط]

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه	بالرغم مني بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة	بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع	ومن عفاف ومن صون ومن خفر

القدس :

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس. فزرت في طريقي إليه تربة يونس عليه السلام، وعليها أبنية كبيرة ومسجد. وزرت أيضاً بيت لحم، موضع ميلاد عيسى عليه السلام، وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة. والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به. ثم وصلنا إلى بيت المقدس، شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، ومعرجه إلى السماء. والبلدة الكبيرة مبنية بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استتقض الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز[299] امير دمشق.

ذكر المسجد المقدس :

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من شرق إلى غربي سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع الملكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا علم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف في النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقفة.

ذكر قبة الصخرة :

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، وقد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام. ولها أبواب. والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً محكم الصنعة، وكذلك داخلها في ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف. وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلألأ أنواراً، أو تلمع لمعان البرق. يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها.

وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار. فإن النبي صلى الله

---

(299) - والي الشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون

عليه وسلم عرج منها إلى السماء. وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة. وتحتها مغارة مقدار بيت صغير. ارتفاعها نحو قامة أيضاً ينـزل إلها على درج. وهنالك شكل محراب. وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل، يغلقان عليها أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة، والثاني من الخشب.

وفي القبة درقة كبيرة من حديد، معلقة هنالك. والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد، على تل مرتفع هنالك، أبنية يقال: إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء. ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية، منسوبة إلى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها. وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة، يحجها النصارى، وهي التي يكذبون عليها، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها. وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين. وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه. وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به.

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي، بفتح الغين، وهو من أهل غزة وكبرائها. ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي، ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس، ومنها الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم[300]، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي. صحبته ولبست منه خرقة التصوف.

عسقلان :

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان، وهو خراب. قد عاد رسوماً طامسة، وأطلالاً دارسة. وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان إتقاناً

---

(300) - هي ارضروم

وحسن وضع، وأصالة مكان، وجمعاً بين مرافق البر والبحر، وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى القاهرة. وهو مسجد عظيم سامي العلو، فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد، وكتب ذلك على بابه، وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه، وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن، وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها أسطوانة حمراء عجيبة، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم، ثم فقدوها، فوجدت في موضعها بعسقلان.

وفي القبلة من هذا المسجد بئر يعرف ببئر إبراهيم عليه السلام، ينزل إليها في درج متسعة، ويدخل منها إلى بيوت، وفي كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة. ماؤها عذب، وليس بالغزير. ويذكر الناس من فضائلها كثيراً.

وبظاهر عسقلان وادي النمل، ويقال: إنه المذكور في الكتاب العزيز. وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته، أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور. وله جراية يجريها له ملك مصر، ومع ما يصل إليه من صدقات الزوار.

الرملة :

ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهي في فلسطين مدينة كبيرة، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق. وبها الجامع الأبيض، ويقال: إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء، مدفونين عليهم السلام. وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي.

نابلس :

ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتوناً. ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق.

وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها. وكيفية عملها: أن يطبخ الخروب، ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء. ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام.

وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع في نهاية من الإتقان والحسن. وفي وسطه بركة ماء عذب.

عجلون :

ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة)، وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة. ويشقها نهر ماؤه عذب.

الغور :

ثم سافرت منها بقصد اللاذقية، فمررت بالغور، وهو وادٍ بين تلال به قبر أبي عبيدة ابن الجراح أمين هذه الأرض رضي الله عنه، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل.

وبتنا هنالك ليلة، ثم وصلنا إلى القصير[301]، وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه، تبركت أيضاً بزيارته.

عكا :

ثم سافرت على الساحل، فوصلت إلى مدينة عكة، وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى، وبشرقيها عين ماء عذب تعرف بعين البقر يقال: إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام. وينزل إليها في درج. وكان عليها مسجد بقي محرابه. وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام.

صور :

ثم سافرت منها إلى مدينة صور، وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء. فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه، فأخذت عليه في فعله فقال لي: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس. ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة المنعة. لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان أحدهما للبر، والثاني للبحر.

ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت

---

(301) - قصير ابن معين الدين شرقي بحيرة طبرية ويسمى الآن قصير الكلبة

السور وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك، ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل خارج، إلا على علم منهم. وكانت لعكة أيضاً ميناء مثلها، ولكنها لا تحمل إلا السفن الصغار..

صيدا :

ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر.

نزلت عند قاضيها مال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس.

طبرية :

ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية. وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تبنئ عن ضخامتها، وعظم شأنها. وبها الحمامات العجيبة؛ لها بيتان أحدهما للرجال، والثاني للنساء. وماؤها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة، طولها نحو ستة فراسخ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء، فيه قبر شعيب عليه السلام، وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام، وقبر سليمان عليه السلام، وقبر يهودا، وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم. وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام، وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية. والجب كبير عميق، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيّمه أن الماء ينبع منه أيضاً.

العمري

يصف فلسطين وبيت المقدس عام 745هـ 1345م

توضح لنا رحلة ابن فضل الله العمري إلى فلسطين التي قام بها في شهر ذي الحجة من سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة، الموافق لشهر نيسان من سنة 1345م، مآل رحلات الجغرافيين والبلدانيين العرب المشارقة، أيام دولة المماليك البحرية، فهؤلاء أودعوا رحلاتهم في متن نصوصهم الموسوعية الكوزموغرافية، التي انتشرت في ذلك الزمن، ولم ينشروها مفردة على عادة رحالة المغرب العربي لأسباب بينّاها في مقدمة هذا الكتاب.

ونستطيع أن نعثر على معلومات هذه الرحلة وغيرها من الرحلات الاستكشافية التي قام بها العمري إلى فلسطين، في بعض فصول موسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وفي كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف).

ولد شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري بدمشق عام 700 هـ، 1300 م. ينتسب إلى عبد الله بن عمر ولذلك سمي بالعمري. كان أديبا بارعا، يجيد الترسل وينظم شعراً رقيقاً. تلقى علومه في دمشق وتتلمذ على شهاب الدين الحلبي، وعلى برهان الدين بن الفركاح الذي درس جغرافية فلسطين[302].

توجه إلى مصر ودرس في القاهرة والإسكندرية كما ذهب إلى الحجاز وأخذ العلم

---

[302] - قال العثماني قاضي صفد في كتابه رحمة الأمة في اختلاف الأئمة: هو شيخنا برهان الدين بن شيخ الشافعية تاج الدين المعروف بابن الفركاح، ولد في شهر ربيع الأول سنة [660هـ] وسمع على احمد بن عبد الدائم صحيح مسلم ومشيخته، وصحيح البخاري على ثمانية وعشرين شيخاً منهم والده، واحمد بن ابي بكر الحموي، ومظفر بن عمر الجزري، وابو بكر بن عمر المزي، وسمع من ابن ابي اليسر مقامات الحريري، وسمع منه ايضاً فضائل الخليل للقاسم بن عساكر، ومن آخرين، خرج له الحافظ صلاح الدين العلائي مشيخة حدّث بها مراته وسمع منه البرزالي والذهبي، وحدثت عنه عائشة بنت محمد بن عبد الهادي، وهي خاتمة اصحابه في الدنيا، قال ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن العثماني الصفدي: اخذت الفقه قراءةً وتصحيحاً وتعليقاً عن جماعة منهم شيخ الإسلام برهان الدين ابراهيم بن الفركاح، واخذ هو عن والده انتقل الى رحمة ربه سنة تسع وعشرين وسبعمائة [طبقات الفقهاء الكبرى لقاضي صفد، 185-أ] وترجمته ايضاً في الدرر الكامنة 34/1/ وشذرات الذهب 88/6/. ومرآة الجنان لليافعي 279/4/ ومعجم المؤلفين 43/1/ وذيل التقييد 80/1 و 40/2، وذيل تذكرة الحفاظ158/1/[

عن شيوخ هذه البلاد وعاد إلى القاهرة وتولى القضاء فيها، وخلف والده في رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ولم تلبث حدة طباعه أن ساقته إلى الخلاف مع السلطان ذاته، فأمضى أعوامه الأخيرة في دمشق أشبه بالمغضوب عليه، وفيها توفي عن 49 عاما.

قال فيه صديقه الصلاح الصفدي في كتابه الشهير الوافي بالوفيات: (هو الإمام الفاضل البليغ المفوّه الحافظ حجة الكتاب، إمام أهل الآداب. أحد رجالات الزمان كتابة وترسُلاً، وتوصُلاً إلى غايات المعالي وتوسُلاً. وإقداماً على الأسود في غابها، وإرغاماً لأعاديه بمنع رغابها. يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب، ويحدر سيله ذاكرة وحفظاً ويتصبب. ويتدفّق بحره بالجواهر كلاماً، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المتسرّعة نظاماً. ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتندى عبارته انسجاماً وصياغة. وينظر إلى غيب المعاني من ستر رقيق، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار الدُرّ من البحر العميق. استوت بديهته وارتجاله، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله. يكتب من رأس قلمه بديهاً، ما يعجز تروّي القاضي الفاضل أن يدانيه تشبيهاً. وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً، ما يخجل الروض الذي باكره الحيا مزهراً. صرّف الزمان أمراً ونهياً، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً. وصل الأرزاق بقلمه، ورويت تواقيعه وهي إسجالات حكمه وحكمه. لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه).

كما ذكر الصفدي كيفية وفاته فقال: (والظاهر أن مولده سنة إحدى وسبعمائة أو سنة سبعمائة. ولّما وقع الطاعون بدمشق سنة تسع وأربعين وسبعمائة قلق وهمع وزمع وتطاير كثيراً وراعى القواعد الطبية وانجمع عن الناس وانعزل وعزم على الحج واشترى الجمال وبعض الآلات. ثم إنّه بطل ذلك وتوجه بزوجته ابنة عمه إلى القدس الشريف وولديه وصاموا هناك رمضان، فماتت زوجته هناك ودفنها بالقدس في شهر رمضان. وحضر إلى دمشق وهو طائر العقل، فيوم وصوله بَرَدَ[303] وحصل له حمّى رِبْع[304]، وأضعفته إلى أن بحرنت بصرع. وتوفي، رحمه الله وسامحه، يوم عرفة سنة تسع وأربعين وسبعمائة ودفن عند والده وأخيه بدر الدين محمد بالصالحية). وقد رثاه الصفدي بعبارت مؤثرة، ووصفه بما كان فيه.[305]

---

[303] - برد اي اصابته البرداء اي الملاريا.

[304] - اي تسلطت عليه هذه الحمى اربعة ايام ثم تغيب اربعة وتعود.

[305] - الوافي بالوفيات 8 / 252. فوات الوفيات 1 / 12. شذرات الذهب 6 / 160. النجوم الزاهرة 10 / 334 تاريخ الأدب الجغرافي 1 / 410. مقدمة كتاب مسالك الأبصار، فروخ 3 / 762 - الأعلام 1 / 254.

من مصنفاته: (صبابة المشتاق في المدائح النبويه)، و (فواضل السمر في فضائل آل عمر)، و (النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية)، وله كتاب حول الصليبيين، ذكر فيه ممالك الفرنج أيام نور الدين محمود بن زنكي، وأواخر الدولة الفاطمية.

ولعل أهم أثر تركه ابن فضل الله العمري كتابه الموسوعي (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وهو كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان وتقدير المسافات بينها، وهو إلى جانب ذلك يتضمن فصولا مبسوطة في التاريخ والتراجم، وقدراً من الأشعار المختارة للجاهليين والإسلاميين، ومن الكلام على النبات والحيوان وعلى شعوب الأرض، وهو من أضخم وأوسع الموسوعات الجغرافية والكوزموغرافية التي شاعت في العصر المملوكي.

بدأ المجمع الثقافي في (أبو ظبي) نشر أثر العمري الكبير هذا، والبالغ عدد أجزائه 27 مجلداً، نشرة كاملة منذ عام 2005م، غير أن تحقيقه أتى متفاوتاً بين الجودة التي حظيت بها بعض الأسفار، والضعف في أسفار أخرى. وكان قد ظهر السِّفْر الأول من هذه الموسوعة في القاهرة بتحقيق أحمد زكي باشا عام 1924م، ثم ظهرت مقاطع متفرقة منه هنا وهناك، ولكن في عام 1989 م ظهرت طبعة مصورة من مخطوطة (طوبقابو سراي) باسطنبول في 27 جزءاً، وصدرت ضمن منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت الألمانية، قبل أن يتولى المجمع الثقافي في أبو ظبي تحقيق هذه النسخة التي نشرها سيزكين.

أما كتابه (التعريف بالمصلح الشريف) فقد كان الأول في بابه، وربما يلتقي في مضمونه مع كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر. وعنوانه يفصح عن مضمونه، يحدد فيه أصول صياغات دواوين الإنشاء ومراكز البريد والثلج وغيرها. والعلماء الذين درسوا هذا الأثر يقدرونه تقديرا كبيراً في تفاصيله وفي مجموعه، وقد صدرت للكتاب طبعتان الأولى في بيروت عن دار الكتب العلمية عام 1988 ميلادية والتي عني بتحقيقها وضبطها محمد حسين شمس الدين. والثانية في جامعة مؤتة بالأردن حققها الدكتور سمير الدروبي عام 1992 ميلادية.

يمتاز ابن فضل الله العمري بدقة المعلومات التي يعرضها في مصنفيه (مسالك الأبصار) و(التعريف) وأصالتها، واعتمد القلقشندي عليه كثيراً في موسوعته (صبح الأعشى).

وقد رسم العمري خرائط للأقاليم التي تحدث عنها في موسوعته، وكما يقول: (بينته بالتصوير، ليُعرف كيف هو، كأنه قُدَّام عيونهم بالمشاهدة والعِيان).

ويشير العمري إلى انه استند في معلوماته على مارآه (بالمشاهدة)، أما الذي لم يره فقد اعتمد فيه على (النقل ممّن يعرِف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه).

ويؤكد انه لم ينقل (إلا عن أعيان الثقات، من ذوي التدقيق في النظر، والتحقيق للرواية). ويضيف: (واستكثرت ما امكنني من السؤال عن كلّ مملكة، لآمن من تغفُل الفضلاء وتخيُل الجهالات الضالة، وتحريف الأفهام الفاسدة. فإن نقلت عن بعض الكتب المصنّفة في هذا الشأن، فهو من الموثوق به فيما لا بد منه: كتقسيم الأقاليم، وما فيها من أقوال القدماء، واختلاف آراء الحكام، إلى غير ذلك من غرائب وعجائب، وأخبار ملل ودول، وذكر مشاهير أعلام، وتاريخ سنين وشهور وأيام. مما هو مسرح أمل، ومطمح ذي عمل، لأجمّل به كلامي، وأكمّل به نقصي، وأتمّم به بهجة النظر، ورونق الصفحات: كالطراز في الثوب، والخال في الخدّ. لا لأكثّر به حجم الكتاب. ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل، لتكون عهدتها عليه، وتبرأت منها).

أ رحلات العمري إلى فلسطين

تدلنا ترجمة العمري بأنه كان خبيراً بجغرافية فلسطين، التي قبسها عن أستاذه برهان الدين بن الفركاح، ودليلنا على ذلك دقته المتناهية في وصف منابع ومجرى نهر الأردن فيما لم يسبقه أحد إلى ذلك، ولعل وصفه وتحديده لهذه المنابع لم يضاهه وصف حتى عصرنا هذا[306].

كما استوعب العمري في وصفه لبيت المقدس؛ ما جاء في الكتاب الصغير لمعاصره الصاحب تاج الدين أبي الفضل أحمد بن أمين الملك المسمى (سلسلة المسجد، في صفة الصخرة والمسجد)، الذي، على ما يبدو، وضعه سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة هجرية، الموافق لعام 1342– 1343م، وقد نقل منه العمري (ما يليق بهذا الموضع، معتمداً في ذلك على ما حرّره بالذراع)، حسب تعبيره، ولا نعرف مصير هذا الكتاب، الذي ذكره إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون) باسم (المسجد في صفة الصخرة والمسجد) من دون أن يضيف شيئاً إلى ما ذكره العمري.

---

[306] - قام أكثر من مستكشف وبعثة استكشافية في القرن التاسع عشر بدراسة منابع ووادي نهر الأردن، ومنها بعثة الملازم لينش الأميركية في اواسط القرن التاسع عشر، ولم يكتب لهذه البعثة النجاح الكامل، ولم لتوصل لنتائج أكثر من التي سبق لابن فضل الله العمري الوصول إليها.

ويذكر العمري أنه قام بعدة رحلات إلى بيت المقدس وفلسطين، لم يدون أخبارها باستثناء رحلته التي قام بها عام 745 هجري، في أثناء قيامه بأداء فريضة الحج، وقد سجل وقائع زيارته للقدس والخليل في السفر الأول من موسوعة (مسالك الأبصار)، كما أودع السفر الثالث منها وصفاً لمدن صفد والقدس وغزة والرملة، إضافة لوصفة لبعض الأديرة في جبل الطور قرب الناصرة، وفي محيط بيت المقدس. كما روى لنا قصة وقف تميم الداري في الخليل، وتحقيقه لهذه الوثيقة التي تحدث عنها أكثر من رحالة ومؤرخ عبر العصور. أما رحلته الأخيرة إلى القدس فقد كانت قبل وفاته بأيام هرباً من الطاعون الذي كان يجتاح دمشق، حيث فر بعائلته إلى بيت المقدس كما أشار إلى ذلك الصلاح الصفدي في ترجمته.

وقد جمعنا المعلومات التي بثها العمري حول فلسطين من فصول موسوعته الضخمة، مع الإشارة إلى أن اسم فلسطين اختفى من الدواوين في زمن العمري، وحلت محله تسمية أخرى للتعبير عن وسط وجنوبي فلسطين، أي جند فلسطين في المصطلحات القديمة، وهي (البلاد الساحلية القبلية) التابعة لدمشق، في حين ذكر شمالي فلسطين، أي جند الأردن حسب التسميات القديمة، باسم بلاد صفد ناقصاً منها بعض مناطق الغور مثل بيسان وغورها، التي كانت تتبع لبلاد حوران.

ومن الجدير بالذكر أن عز الدين بن شداد قد تجاوز هذه الإشكالية، أي إشكالية التسميات الإدارية، باعتماده التصنيف القديم الذي اعتمد عند الفتح الإسلامي لبلاد الشام أي تقسيمات الأجناد، كما لاحظنا في فصل سابق.

[..]

وأما بلاد صفد فحدها من القبلة الغور حيث جسر الصنبرة من وراء طبرية، ومن الشرق الملاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حولة بانياس، ومن الشام [الشمال] نهر ليطا، ومن الغرب البحر وولايتها الشقيف وهو الشقيف الكبير المسمى بأرنون وهو قلعة منيعة..

أما ما يتشعب من المراكز، من دمشق فمنها إلى صفد إلى بريج الفلوس إلى أرينبا إلى نعران إلى صفد[307].

البلاد الساحلية القبلية وما تبعها [من أعمال دمشق]:

وهي عبارة عن بلاد غزة وعمل قريتا وما جاورها سهلاً ووعراً وهي نسخة أعمال خاصة غزة ثلاثة أعمال وهي: عمل غزة وعمل قريتا، وعمل بيت جبريل. والساحل ثلاثة أعمال وهي: عمل الرملة، وعمل قاقون، وعمل لدّ. والجبل وهو ثلاثة أعمال: عمل نابلس، وعمل القدس الشريف، وعمل بلد الخليل عليه السلام.

فهذه جملة هذه الأعمال والمشاهير منها مذكور في عمله، موصّفة إلا نابلس فإننا نذكرها هنا فنقول: إنها مدينة ممتدة يُحتاج إليها، ولا يحتاج إلى سواها.

والصُّفقة القبلية وهي بلاد حوران والغور وما مع ذلك وهي عشرة أعمال وهي: عمل بيسان. وبيسان لها قليعة من بناء الفرنج، وهي مدينة الغور، وعمل بانياس، وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبيبة [..]

نهر الأردن

ومن ذلك نهر الأرْدُنّ. ولا يسمّى بهذا الاسم إلا حيث خرج من بحيرة طَبَرِيّة. ويسمّى الآن الشريعة. ويشق وادي كنعان شقّاً في الطول حتّى ينتهي إلى بحيرة زُغَر، وهي

---

(307) - التعريف، طبعة عمان، الصفحات 260-261- 272

سَدُوم، دار قوم لوط، وتعرف الآن بالمُنْتِنة؛ والوادي بالغور. وله في كل مكان اسم بحسب ما يضاف إليه من مشاهير القرى التي فيه.

وأصل هذا النهر من مرج عيون والهرماس[308]، وكلاهما تحت الشقيف وتل القاضي. والملاّحة[309]، وهي عين بعيدة العمق جداً، ونهر بانياس.

وتسمّى هذه الأمواه كلها: الشريعة الشمالية. وترمي تحت جسر يعقوب وتجتمع في بحيرة طبرية.

ثم تمدّ فتتلاقى هي والشريعة القبلية بقرية تعرف بالبقارية، وتأتيان جسر الصنّبرة إلى الجسر العادليّ، وهو تحت عَقَبة فيق، قرب الدير الأسود، ثم تأتي جسر شامة المقارب لقرية المجامع.

وتمدّ فيلاقيها نهر الزرقاء، دون دامية. ثم تمدّ فترمي في البحيرة المنتنة[310].

وسنذكر أصل الشريعة القبلية[311]. وهو من دير الهُرَيْر والجولان واليرموك ووادي الأشعري والفوّار والمدأن، مع ما ينضاف إلى ذلك من ينابيع. ويتحصل من البلاد المرتفعة، ويجتمع تحت حمّة جِدر.

حمة جدر

وهي تحت فيق، وعليها قبو معقود ببناء خشن طويل. وبه أحواض. يقال إن كل حوض لعلة من العلل يبرئها، بإذن الله إذا استحمّ منه العليل بها. قالوا: ولم تزل على هذا حتّى أتى بعض قدماء الحكماء فهدم القبو والأحواض وجمع الماء كله إلى مجرى واحد، إلا فرعين تركهما: أحدهما لمن به ريح، والثاني لمن به جَرَب. والماء الغمر لسائر الأسقام. وماء هذه الحمّة عذب. وآثار الأبنية باقية[312].

بحيرة طبرية:

ومن ذلك بحيرة طبرية. وهي عذبة.

---

(308) - للمرة الأولى يذكر رحالة او جغرافي عربي اسم النبع الذي ينبع من لحف تل القاضي وحتى الآن لا احد يعرف اسمه ويسمى اعتباطاً نبع تل القاضي، مع انه بجانب التل

(309) - اسمها ملاحة صفد وهي قرية كانت ماهولة حتى عام 1948م

(310) - اي البحر الميت

(311) - اي وادي اليرموك وجميع التسميات الواردة في هذه الفقرة صحيحة ومستخدمة حتى اليوم

(312) - مسالك الأبصار، الجزء الأول، طبعة القاهرة، الصفحة 82، يسميها العامة الحمة، اما لاحقة جدر.

وبها الحَمّة المعروفة بحمام طبرية. وللناس فيها أكاذيب. وهي صورة تنور الكلس تكون سمته نحو عشرة أذرع تقريبا. يخرج منه ماء يدير حجري رحى. مهما وضع فيه احترق لإفراط حرارته. قد استخرج منه جدول في عرض الجبل يمتدّ نحو ألف ذراع تقريبا، لتقلّ ببُعد المدى حرارته. ثم يأتي بيتين مسقوفين وسقوفهما بالحجر، أحدهما لاستحمام الرجال والآخر لاستحمام النساء، والحمة ماؤها مملوح مكبرت. ومن ذلك بحيرة زُغَر. وهي المخسوف بها، وهي النتنة[313].

صفد

وصفد مدينة في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء يحمل إليها الماء على الدواب من واديها، وبها عين ماء[314] لو أنها دمع لما بلت الآماق، ولا ملت بلى البكاء به الأحداق وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي بها، ولا يرضى حمامات المدينة لقلة مائها، وسوء بنائها، وبها عسكر من الجند والمحلية[315]، وهي على مسافة يومين من دمشق فحكمها حكمها، وكل ما يوجد بدمشق فيها مما هو من صفد وبلادها، ومما هو مجلوب من دمشق إليها، وهي إلى جانب عكا، وقد خربت عكا، وبقيت هي مدينة ذلك الساحل، وقاعدة ذلك، ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه، كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه، ولا تردم السحب إلا من جنب، ولا يطوف عليها سوى الشفق مدام عليه من مواقع النجوم حبب، ولا تجاور الأرض إلا وهي إذا رامت السماء لا يعوقها بسبب، ولما فتحها الملك الظاهر بيبرس، عظم أمرها وهي تستحق التعظيم، وتستوجب الرفعة، بما رفع الله من بنائها العظيم، ولقد ذكرها ابن الواسطي الكاتب فقال: وقلعة صفد بنتها الفرنج، وكانت أولاً تلاً عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم، بنتها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وقال: وهي قلعة حصينة على جبل يحتف به جبال وأودية، ولها أحد عشر عملاً، وهي:

ولاية برُها[316].

وولاية الناصرة: منبع الطائفة النصرانية، وولاية طبرية ذات البحيرة المشهورة

---

[313] - مسالك الأبصار، الجزء الأول، طبعة القاهرة، الصفحة 89، وهي البحر الميت وتسمى أيضاً البحيرة المنتنة

[314] - هي عين العافية تنقط ماءها تنقيطاً، وهي على طريق صفد بيريا بجانب مقبرة صفد

[315] - في الأصل الحلية ولا معنى لها، والمرجح انها المحلية

[316] - اي ولاية بر صفد التي تسمى عند العثماني ولاية الزنار اي الأعمال المحيطة بها.

والحمة العجيبة، وطبرية من سفح جبل مطل على البحيرة، وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً، وحمتها يقصدها المبرودون للاستشفاء ويكاد أن يلصق بها البيض والجدا، وماؤها حلو، ويخرج منها نهر الأردن.

ومن عملها قدس.

وكان معها قديماً السواد وبيسان، ثم خرجا عنها[317].

وولاية تبنين: ومنها هونين وهما حصنان منيمان بناهما الفرنج بعد الخمسمائة، وهما من جبل عاملة بين بانياس وصور.

وولاية عثليث.

وولاية عكا.

وولاية صور: وشهرتهما تغني عن ذكرهما.

وولاية الشاغور.

وولاية الإقليم.

وولاية شقيف أرنون وعلى الشقيف قلعة حصينة، ويقاربها شقيف تيرون، وهو حصن جله مغارة منيمة، وما هي من صفد.

وولاية جنين.

فهذه جملة أعمال صفد.

ومما يذكر فيها حيفا، وهي خراب على الساحل، وقلعة كوكب، وهي قال فيها العماد الأصفهاني، راسية راسخة شماء شامخة، وقلعة الطور وهي مفردة على جبل الطور بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غالبه عليها الفرنج فهدمها[318].

دير الطور[319]:

والطور جبل مستدير، متسع الأسفل، لا يتعلق به شيء من الجبال، وليس له إلا طريق واحد. بين طبريّة واللّجُون. مشرف عى الغور والمرج وطبرية. نَزِهٌ. وفيه عين تنبع بماء غزير. والدير في القبلة، مبنيٌ بالحجر. وحوله كروم كثيرة، يعتصرونها. ويعرف بدير التجلّي. لأنهم بزعمهم أن عيسى تجلّى فيه لتلامذته، بعد أن رُفع حتّى اراهم نفسه وعرفوه.

---

[317] - يقصد ان صفد هي الوارثة لجند الأردن حسب تقسيمات الفتوح المصرية

[318] - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج3، ص 274-275

[319] - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج1 ص 247- 248

وللمهلهل بن يموت بن المُزَرِّع فيه: [من المتقارب]

مَضيتُ إلى الطُّور في فتيةٍ سِراعِ النُّهوضِ إلى ما أُحِبّْ
كِرامِ الجُدودِ حِسانِ الوجوه كُهولِ العقولِ شَبابِ اللَّعِبْ
فأيُّ زمانٍ بهم لا يَسُرّ وأيُّ مكانٍ بهم لم يَطِبْ
أنختُ الرِّكابَ عن دَيْرِه وقَضيْتُ من حَقِّه ما يجبْ
وأنزلتُهم وَسْطَ أعتابِه وأسْقَيتُهُمْ من عصيرِ العنبْ
وأحضرتُهمْ قَمَراً مُشرقاً تَميلُ الغُصُونُ به في الكُثُبْ
نَحُثُّ الكؤوس بأهْزَاجِه ومَرسُومِ أرمالِه بالعَجَبْ
وما بين ذاك حديثٌ يَرُوق وخوضٌ لهمْ في فُنُونِ الأدَبْ
فيا طيبَ ذا العيش لو لم يَزُلْ ويا حُسْنَ ذا السعدِ لو لم يغِبْ

وأنشد له الشابشتيّ في نحو من مثل هذا الأرب، وقد دعا نوّار الربيع إلى شرب ابنة العنب: [من الخفيف]

قد أبانت ليَ الرياضُ من الزَّهْـ ـرِ غريبَ الصُّنوفِ والألوانِ
وبَدَا النَّرجسُ المفتَّحُ يَرْنُو من جُفُونِ الكافورِ بالزَّعفرانِ
وَقَفَ الطَّلُّ في المَحاجِرِ منها ثم مَاسَتْ فانْهَلَّ مثلَ الجُمانِ
يا غُلام اسقِني فَقَدْ ضَحِكَ الوقْـ ـتُ وقد تمَّ طيبُ هذا الزمانِ
أدْنِ منّي الدِّنانَ صُبَّ الأباريـ ـقَ استَحِثَّ الكؤوسَ صُفَّ القَنَاني
بادِرِ الوَقتَ واغتَنِم فُرَصَ العيْـ ـشِ ولا تَكْذِبَنْ فالعُمرُ فانِ

وكذلك أنشد له قوله: [من المتقارب]

زمانُ الرِّياضِ زَمانٌ أنيقٌ وعَيْشُ الخَلاعَةِ عَيْشٌ رَقِيقٌ
بَهارٌ بَهيرٌ به غَيرةٌ على نَرجسٍ وشَقيقٍ شَقيقْ
فهاتيكَ تِبْرٌ وهذي عَقيقٌ مُداهِنُ يَحملنَ طَلَّ النَّدى
فبادِر بنا حادِثاتِ الزَّمان فوجهُ الحوادِثِ وَجْهٌ صَفِيقْ

وقوله في مثله: [من المنسرح]

قد قُدِّمَتْ للسرور أثقالُ وحثَّ شَهر الصيّام شوّالُ

وأقبَلَ الليلُ لابساً حُللاً مِسْكيَّةً ما لهُنَّ أذيَالُ

واهتزَّ عُودٌ وحَنَّ من طَرَبٍ شوقٌ وغَنَّت بالراحِ أرطالُ

فاغتنموا فرصةَ الزَّمان ولا تُفَرِّطوا فالزَّمانُ مُغْتالُ

القدس

والقدس الشريف الأرض المقدسة مشتملة على مدينة القدس وما حوله إلى نهر الأردن المسمى بالشريعة إلى فلسطين المسماة بالرملة طولاً، ومن البحر الشامي إلى مدائن لوط عرضاً، غالبها جبال وأودية إلا ما هو في جنباتها.

وأما مدينة القدس الشريف فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها السور المحيط على الصخرة والمسجد المسمى الآن بالمسجد الأقصى، وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط به السور المذكور، وهي المعروف بالسور السليماني، ويشرف عليها من شرقيها جبل أعلى منها، يفصل بينهما الوادي المعروف بوادي جهنم، ويعرف بالطور وبه إلى الآن بناء جليل رومي يقال إنه منه كان صعود المسيح عليه السلام إلى السماء، وبهذا الوادي عين سلوان وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء مدينة القدس، ويجري في داخل ذلك الجبل أزيَد من علو نشاب تقديراً، ثم يخرج من صدع في الجبل إلى ساحة لطيفة في انفراجه في الجبل لا ترى إلا جدولاً جارياً، والنبع من داخل الصدع، ثم يسرح على وجه الأرض، وترمى إلى الوادي وتسقى المنازل، وماؤها قليل ليس بالكثير.

ومدينة القدس مبنية بالحجر والكلس وغالب حجرها أسود وهي وعرة المسالك وكان بها آثار قلعة قديمة خربة، جددت في أيام هذا السلطان سنة عشرة وسبعمائة على ما يذكر الجوكندار. إذ كان كافل الممالك ووجودها وعدمها سواء، إذ لا نفع بها، ولا تحصين لها.

وبالقدس مدارس وخانقاه وربط وزوايا وترب والمسجد الأقصى بها وقوف كثيرة جارية على مصالحه والمؤذنين به وخدمه وجماعة من العلماء والقراء به.

وقد تقدم القول في هذا الكتاب على أن في القدس لكل الملل معتقداً وإليه توجهاً، وأن اليهود تزوره والنصارى تحج به قمامة [أي: كنيسة القيامة] وتزور كنيسة بيت لحم مكان مولد عيسى عليه السلام.

وقد كانت مدينة القدس بعد تولي أيدي الفرنج عنها؛ تغلب عليها الهدم والخراب؛ إلى هذه المدة القريبة، انصرفت الهمم إلى عمارة أماكن بها، وتوفرت الدواعي عليها، ووفر نائب السلطان بالشام الآن الاهتمام بذلك، وساق إليها قناة بسطها إلى بركة هي مجتمع ترفدها بالماء زمان قلة الماء، وتجري إلى مدينة القدس، وتدخل إلى سور المسجد الأقصى، وتجري به.

وعمر نائب السلطان إلى ما جاوره الرباط[320] المنصوري القلاووني [وهو] مدرسة جليلة، وقفها على مدرسي وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبأعلاها خانقاه مشرفة، ويحضرتها مكتب أيتام حصل له به الأجر التام، وللناس الرفق العام، أثابه الله وتقبل منه.

وعمر بها حمامين جليلين كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية، وأنشأ بها الأسواق والعمائر وأصبحت مدينة القدس ضاحية المواء، آهلة الرحاب، وعادت إلى ما كانت عليه من التمدن بعد أن كانت لا تعد من القرى، ولا يندى في جوانبها الثرى.

فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى، ومكان زيارة لهم أجمعين، وإنما اختلافهم في أماكن الزيارة منه، وما نبهنا على هذا إلا لما فيه من الفائدة لإطباق الجميع على تعظيمه وقصده بالزيارة[321].

المسجد الأقصى

معهَد الأنبياء، ومتعهَّد الأولياء، وتالي البيت الحرام في البناء، وأوّل القبلتين حال الابتداء. شَيَّدَتْ ملوك بني إسرائيل معاهدَه، وشدّت بقباب البروج معاقدَه؛ ثم تدارك بنو أميّة ذَماءه، وصفَّحوا أرضه وسماءه؛ وهذا هو على ما هو عليه من حمل الآلام، واختلاف دول الكفر والإسلام؛ ومن صخرته المقدّسة المعراج، حيث عرج بخاتم الأنبياء (عليه السلام) من حضرة القدس إلى حضرة القدس، وبسط له بساط الأنس؛ ودنا من ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم، ولا وصل إليه مَلَك مقرّب ولا نبيّ كريم؛ وقد أمّ في ذلك المسجد بالنبيين، وصعد منه إلى أعلى عليين. وإلى صفيح تلك البقعة المحشر، وإنها يوم القيامة المَنْشر. والصخرة بها عرش الله الأدنى، ومقام الفخار الأسنى؛ وهي التي تزف إليها عروس الكعبة زفا، وتُقسم الناس لشقاوة وزلفى...... الفضائل التي لا تحصى.

---

(320) - في الأصل: الربط

(321) - مسالك الأبصار طبعة سيزكين ج3، ص276

وقد تقدّم حديث أبي ذرّ: أوّل مسجد وُضع، المسجد الحرام ثم المسجد الأقصى. وبينهما أربعون عاما.

ورُوي عن عليّ بن أبي طالب، قال: كانت الأرض ماء فبعث الله ريحا فمسحت الأرض مسحا، وظهرت على الأرض زَبَدة فقسمت أربع قطع. خلق من قطعة مكة، والثانية المدينة، والثالثة بيت المقدس، والرابعة الكوفة. ذكره أبو الفرج ابن الجوزيّ.

وروى ابن مَنْدَه بسنده، أن كعبا قال: بنى سليمان بن داود بيت المقدس على أساس قديم، كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم.

قال ابن الجوزيّ: سكن الجبّارون في الأرض المقدسة فسُلّط عليهم يُوشَع، ثم سُلطَ الكفار على بيت المقدس فصيروه مزبلة. فأوحى الله (عز وجل) إلى سليمان فبناه. وروي عن سعيد بن المسيّب قال: أمر الله تعالى داود أن يبني مسجد بيت المقدس. قال: ربّ! وأين أبنيه؟ قال: حيث ترى المَلَكَ شاهرا سيفه. قال: فرآه في ذلك المكان. قال: فأخذ داود فأسس قواعده ورفع حائطه. فلما ارتفع انهدم.

فقال داود: يا ربّ! أمرتني أن أبني لك بيتا، فلما ارتفع هدمتَه. فقال: يا داود إنما جعلتك خليفتي في خلقي، لمَ أخذتَه من صاحبه بغير ثمن؟ إنه يبنيه رجل من ولدك. فلما كان سليمان ساوم صاحب الأرض، فقال: هي بقنطار. فقال سليمان: قد استوجَبْتُها: فقال له صاحب الأرض: هي خير أو ذاك؟ قال: لا بل هي خير. قال: فإنه قد بدا لي. قال: أو ليس قد أوجبتها؟ قال: بلى، ولكن البيعين بالخيار ما لم يتفرّقا. (قال عبد الله بن المبارك، هذا أصل الخيار). فلم يزل يرادّه،ويقول له مثل قوله الأوّل، حتى استوجبها منه بسبعة قناطير. فبناه سلمان حتّى فرغ منه. وتغلّقت أبوابه. فعالجها سليمان أن يفتحها، حتّى قال في دعائه: بصلوات أبي داودَ إلا تفتّحت الأبواب! ففُتّحت الأبواب.

قال: ففرّغ له سليمان عشرة آلاف من قُراء بني إسرائيل: خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار.

لا تأتي ساعة من ليل ولا نهار، إلا والله عز وجل يُعبَد فيه.

وقال أبو عمرو الشّيبانيّ: أوحى الله إلى داود: إنك لن تتمم بناء بيت المقدس. قال: أيْ ربّ! ولمَ؟ قال: لأنك غمرت يدك في الدم. قال: أيْ ربّ! أوَلَمْ يكن في طاعتك. قال: بلى وإن كان.

وقال كعب: أوحى الله تعالى إلى سليمان أن ابنِ بيت المقدس. فجمع حكماء الإنس وعفاريت الجنّ وعظماء الشياطين. ثم فرّق الشياطين، فجعل منهم فريقا يبنون، وفريقا

يقطعون الصخور، وفريقا يقطعون العُمُد من معادن الرُخَام، وفريقا يغوصون في البحر فيخرجون منه الدرّ والمرجان. وأخذ من بناء المسجد، فلم يثبت البناء. وكان عليه حَيِّزٌ بناه داود . فأمر بهدمه. ثم حفر الأرض حتّى بلغ الماء.

فقال: أسّسوا على الماء. فألقوا فيه الحجارة. وكان الماء يلفظ الحجارة، فاستشار في ذلك، فاشاروا عليه أن يتخذ قِلالا من نحاس، ثم يملأها حجارة، ثم يكتب عليها ما على خاتمه من ذكر التوحيد، ثم يلقيها في الماء لتكون أساس البناء. ففعل، فثبت وبنى. عمل بيت المقدس عملا لا يوصف، وزينه بالذهب والفضة وألوان الجوهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجُدُره. ثم جمع الناس وأخبرهم أنه مسجد الله، وأنه هو الذي أمر ببنائه، وأنه من انتقصه أو شيئا منه، فقد ضادّ الله، وأنه كان قد عهد إلى داود في ذلك، ثم أوصى سليمان بذلك من بعده. ثم اتخذ طعاما وجمع الناس.

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص في قوله تعالى: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) قال: هو سور بيت المقدس الشرقي. وقد أضربنا عن كثير مما ورد في البِناء السليَمانيّ والعجائب التي كانت فيه، لعدم صحته بالنقل.

وأما ما ورد في فضله.

فمنه حديث أنس. قال: (قال رسول الله) صلى الله عليه وسلم (: صلاة الرجل في بيته بصلاة واحدة، وصلاته في مسجد القبائل بستّ وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يُجَمَّع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.

وعن أبي ذرّ قال: قيل: يا رسول الله! صلاة في بيت المقدس أفضل، أم صلاة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ قال: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه. ولنعم المُصلّى! هو أرض المحشر والمنشر، ولَيأتيَنَّ على الناس زمان، ولَبَسْطةُ قوس من حيث يُرى بيت لمقدس، أفضل وخير من الدنيا جميعا!) وصحّ عن موسى (عليه السلام) أنه لما احتُضر قال: يا رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر!.

ونزله أبو ذرّ وأكثر فيه الصلاة. وصلى فيه ابن عمر. ومات فيه عُبادة ابن الصامت، وشدّاد بن أوس، وأبو أُبَيّ بن أمّ حرام، وأبو ريحانة (واسمه شمعون) وذو الأصابع، وأبو محمد النجاريّ. هؤلاء من أهل بيت المقدس ماتوا به. والذي أعقب منهم عُبادة وشدّاد وسلامة بن قيصر وفيروز الدليميّ. والذي لم يعقب منهم أبو ريحانة وأبو محمد النجاريّ وذو الأصابع.

وقال أبو الزاهرية: أتيت بيت المقدس أريد الصلاة. فدخلت المسجد وغَفَلَتْ عني سَدَنَة المسجد، حتّى أطفئت القناديل، وانقطعت الرجل، وغُلّقت الأبواب. فبينا أنا كذلك إذ سمعت حفيفا له جناحان، قد أقبل وهو يقول: (سبحان الدائم القائم! سبحان القائم الدائم! سبحان الحيّ القيُوم! سبحان الملك القُدّوس! سبحان رب الملائكة والروح! سبحان الله وبحمده! سبحان العليّ الأعلى! سبحانه وتعالى). ثم أقبل حفيف يتلوه، يقول ذلك. ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها، حتّى امتلأ المسجد. فإذا بعضهم قريب مني. فقال آدميُّ؟ فقلت: نعم. فقال: لا رَوع عليك، هذه الملائكة! قلت: سألتك بالذي قوّاكم على ما أرى! مَن الأوّل؟ قال: جبريل؛ قلت: ثم الذي يتلوه؟ قال: ميكائيل. قلت: من يتلوهم بعد ذلك؟ قال: الملائكة. قلت: سألتك بالذي قوّاكم على ما أرى. ما لقائلها من الثواب؟ قال: مَن قالها مرة في كل يوم، لم يمت حتّى يرى مقعده من الجنة، أو يُرى له.

وروى عبد الله بن باكُويَهْ، بسنده إلى محمد بن أحمد الصوفيْ، قال: قال لي أستاذي أبو عبد الله بن أبي شيبة: (كنت ببيت المقدس. وكنت أُحبُ أن أبيتَ في المسجد، وما كنت أترك. فلما كان في بعض الأيام، بصُرتُ في الرواق بحُصُر قائمة. فلما أن صليت العتمة وراء الإمام، أتيتُ الحُصُر، فاختبأت وراءها. وانصرف الناس والقُوام. ثم خرجت إلى الصخرة. فلما سمعت غلق الأبواب، وقعت عيني على المحراب وقد انشق ودخل منه رجل ثم رجل إلى أن تم سبعة. واصطفّ القوم. ولم أزل واقفا شاخصا زائل العقل إلى أن انفجر الصبح. فخرج القوم على الطريق الذي دخلوا).

وبه إلى ذي النون قال: بينا أنا في بعض جبال بيت المقدس، سمعت صوتا يقول: ذهبت الآلام عن أبدان الخُدّام، ولَهَتْ بالطاعة عن الشراب والطعام، وألِفَتْ قلوبهم طول القيام، بين يدي الملك العلام! فتبعتُ الصوت. فإذا أمردُ مصفرُ الوجه، يميل ميل الغصن إذا حركته الريح، عليه شملة قد اتّزر بها، وأخرى قد اتّشح بها. فلما رآني، توارى عني بالشجر. فقلت: ليس الجفاء من أخلاق المؤمنين.

فكلّمنـي وأوّصـني. فخرّ ساجدا، وجعل يقول: هذا مقام من لاذ بك واستجار بمعرفتك وألِفَ محبتك! فيا إله القلوب، احجبني عن القاطعين لي عنك! قال: فغاب عنّي ولم أره.

ورُويَ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[322] قال: من صخرة بيت المقدس.

---

[322] - سورة ق، الآية 41.

وقال يزيد بن جابر في الآية: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فينفخ في الصور، فيقول: أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة، إن الله تعالى أمرك أن تجتمعي للحساب! وروى ابن منده بسنده عن أنس بن مالك قال: إن الجنة لتحنّ شوقًا إلى بيت المقدس. وبيت المقدس من جنة الفردوس، وهي سرة الأرض. (يعني الصخرة).

وبه عن أبي إدريس الخولانيّ قال: يحوّل الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماوات والأرض. ثم ينصبُ عليها عرشه. ثم يقضي بين عباده، يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[323] قال: من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[324] قالوا: هو إسرافيل. يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس، هلُمّوا إلى الحساب! إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء! (وهذه هي النفخة الأخيرة. والمكان القريب صخرة بيت المقدس).

قال كعب ومقاتل: هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا. وقال ابن السائب: باثني عشر ميلا.

ورُوِيَ أن كعبا قدم إيليا فَرَشَا (حبرا) من أحبار يهود بضعة عشر دينارا على أن دله على الصخرة التي قام عليها سليمان بن داود لما فرغ من بناء المسجد. وصلّى مما يلي ناحية باب أسباط. فقال كعب: قام سليمان بن داود على هذه الصخرة ثم استقبل بيت المقدس كله. فدعا الله عز وجل بثلاث. فأراه تعجيل إجابته في دعوتين، وأرجو أن يستجيب في الثالثة. فقال: (اللهم هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهاب) فأعطاه الله (عز وجل). وقال: (اللهم هب لي ملكا وحكما يوافق حكمك). ففعل الله (عز وجل) ذلك به. ثم قال: (اللهم لا يأتي هذا المسجد أحد يريد الصلاة فيه، إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمّه). هذه نبذة يسيرة من ابتداء وضعه.

وأما ما يتعلق بفتح بيت المقدس في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) واستيلاء الفرنج عليه، ثم فتحه على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ وتسليمه إلى الفرنج بعد ذلك في أيام الملك الكامل، ثم استنقاذه منهم بعد ذلك على يد

---

[323] - سورة الأنبياء 71.

[324] - سورة ق، الآية 41.

الناصر داود بن المعظم، فليس هذا موضعه. وسيأتي إن شاء الله تعالى في التاريخ التلويح بذلك والإشارة إليه. فهناك ذكره أنسب.

ولنذكر الآن ما يتعلق بصفة المسجد الأقصى، وما اشتمل عليه من المزارات، على ما استقر عليه بناؤه إلى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

وقد ألف في ذلك الصاحب تاج الدين أبو الفضل أحمد بن أمين الملك تأليفا صغيرا أسماه (سلسلة المسجد، في صفة الصخرة والمسجد). نقلتُ منه ما يليق بهذا الموضع، معتمدا في ذلك على ما حرّره بالذراع.

وصف الحرم القدسي

ونبتدئ بذكر الصخرة الشريفة والبناء المحيط بها، فنقول: أما البناء المبارك من وجه الصحن المفروش بالبلاط المصقول، فارتفاعه ثمانية عشر ذراعا، يعلو ذلك كرسيّ القبة، وارتفاعه عشرة أذرع وربع.

ودوره مائة وثلاثة اذرع وثلثا ذراع. وفي دوره ست عشرة طاقة زجاج مذهبة، بظاهرها شبابيك، وهي مثمنة الأركان. كل تثمينة تسعة وعشرون ذراعا وثلثا ذراع. والبناء من ظاهره مكسوّ منه ارتفاع سبعة أذرع بالرخام الأبيض المشجَّر المختلف. ومن أعلاه سبعة أذرع إلى الميازيب بالفصّ المُذهب المشجَّر المختلف. وتحتوي على تثمينة على سبع طاقات: اثنان في الطرفين مسدودتان، والخمسة مركّب عليها الزجاج، ومن ظاهرها الشبابيك الحديد. ومن أعلى الميازيب حائط ارتفاعه أربعة أذرع. مكسوّ بالفص بالصفة المذكورة، مشخص في كل تثمينة منه ثلاثة عشر محرابا.

أبواب القبة:

ولها أبواب أربعة: فالقبليّ ارتفاعه ستة أذرع وربع، وعرضه ثلاثة أذرع ونصف وثمن. وأمامه من خارج رواق مفروش بالرخام الأبيض المشجَّر وطوله من الشرق للغرب أحد وعشرون ذراعا ونصف، وعرضه أربعة. سقفه بسط مدهون. والوسط أمام الباب قنطرة بالفص المذهب، محمول على ثمانية أعمدة من الرُخام: منها غُرابيٌ اثنان في طرفيه، وخُضر مرسينيٌ تلوهما أربعة و (شحم ولحم) بين الأعمدة الغُرابيُ والخُضرِ هَنابُ رخام منقوش الظاهر سمته ذراعان وثلث. تنزل فيه المياه المنحدرة من المزاريب. ويُعلّق على الباب المذكور مصراعان من الأبواب ملبسة من النحاس الأصفر المنقوش.

وعلى يَمْنة الداخل ويَسْرته درابزين خشب ارتفاع ثلثي ذراع، في رؤوس التثمينة الأوّلة خاصة. ويُقاس من عتبة هذا الباب من داخل إلى وجه الأعمدة الآتي ذكرها ثمانية أذرع وثلثا ذراع، بأعلاها سقف بسط مدهون بأنواع الدهان، ارتفاعه خمسة عشر ذراعا، محمول على حائط الصخرة. والأعمدة والحائط من باطن التثمينة مُلبّس جميعه بالرخام بغير فص بامبِذاريه رخام منقوشة تقدير ذراع مذهبة.

كل تثمينة من هذا السقف محمولة على ساريتين ملبسة بالرخام المشجّر والملوّن البديع. دور كل سارية أحد عشر ذراعا وثلثا ذراع. وطولها ثمانية أذرع وثلثا ذراع، وجهها الذي يلي الصخرة بقُرنتين. ومع السارية عمودان: أحدهما (شحم ولحم) والآخر أخضر مرسينيّ. بين كل عمود لأخيه خمسة أذرع. ودوره ذراعان وثلثا ذراع. وارتفاعه خارجا عن القواعد ستة ونصف يعلوها (بساتل) ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب فوق نقشه. يعلو (البساتل) قناطر بالفص المذهب البديع.

بهذه التثمينة الأولى، ثمانية سَوَار وستة عشر عمودا: منها أبيض وأزرق عشرة، وأخضر مرسينيّ ثلاثة، و (شحم ولحم) ثلاثة.

السقف الثاني :

وتقيس من واجهة هذه العمد عشرة أذرع لتثمينة ثانية عليها سقف (مقالي) مُذهَبٌ، ارتفاعه ارتفاع السقف الأوّل. و (مقاليه) مركبة بغير تسمير لأجل كنس السقف. والسقف الذي يعلوه الرصاص خمسة أذرع من الباطن. وبآخر هذه التثمينة الدائرة الدرابزين المحيط بدور القبة. والحامل للقبة أربعة سوار مربعة ملبسة بالرخام مثل الأولى. بين كل سارية وسارية ثلاثة أعمدة من الرخام (الشحم واللحم) والأخضر المرسينيّ. يعلو ذلك قناطر من الوجهين: فصٌ مُذهَب، والباطن رخام أبيض وأسود. جملة الأعمدة الحاملة للقبة اثنا عشر عمودا: منها أخضر مرسينيّ سبعة، و (شحم ولحم) خمسة.

قال: ولقد قست عمودا منها (شحما ولحما) فكان دوره ثلاثة أذرع ونصفا وارتفاعه خارجا عن القواعد سبعة أذرع وثلثي ذراع.

وارتفاع هذه القبة الخشب المذهبة من قطبها إلى ظاهر الصخرة الشريفة سبعة وأربعون ذراعا؛ ومن ظهر الصخرة لباطن أرض المغارة ستة أذرع؛ ومن ظاهر القبة الخشب إلى القبة الثانية المكسوّة بالرصاص ذراع ونصف.

قال: ولقد قست الدور الحامل للقبّة بالأعمدة والسواري فكان مائة وثلاثة اذرع.

وصفة الشباك الحديد الذي بين هذه الأعمدة والسواري، له أربعة أبواب: الشماليّ منها مغلق، والثلاثة مفتوحة. فأما القبليّ فيُصعد إليه بدرجتين. ومن حد عتبته من داخل إلى صدر الصخرة أربعة أذرع ونصف وربع. وحجر الصخرة من هذه الجهة ملبس بالرخام الملوّن ارتفاع ذراعين. ويحيط بحجر الصخرة من تتمة أقطاره درابزين من الخشب المنقوش، دوره أربعة وسبعون ذراعا. وبآخر هذه الصخرة المرخمة من غرب إلى جهة الشمال حجر صغير محمول على ستة أعمدة صغار. قيل إنه اثر قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة المعراج. وقُبالة القدم المشار إليه مرآة من سبعة المعادن يسمونها (درقة حمزة) محمولة على ثلاثة أعمدة لطاف: منهن اثنان (روحان في جسد).

وارتفاع الشباك الحديد أربعة أذرع وثلثا ذراع، تعلوه شرفة خشب مدهونة. وبأعلى الشرفة شمعدانات حديد.

المحراب والمغارة :

والمحراب الذي يصلي به إمام الصخرة على يمين الداخل من الباب القبليّ داخل الدرابزين الخشب المقدم الذكر. وتجاه المحراب باب مغارة للصخرة الشريفة، معقود قنطرة بالرخام الغريب، على عمودين (شمعية) يُنزل إلى باطنها بأربع عشرة درجة. طول باطن المغارة من الشرق للغرب عشرة أذرع، وعرضها سبعة ونصف من القبلة للشمال. وجميع باطن أرض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام.

وبباطن المغارة المذكورة محرابان على اليمين واليسار. كل محراب على عمودي رخام لطاف. وأمام المحراب الأيمن صُفّة تُسمّى (مقام الخَضِر). طولها من الشرق للغرب ذراع وثلثا ذراع، ومن القبلة للشمال ذراعان وربع. يواجهها عمود رخام قائم للسقف، وعمودٌ راقدٌ مَرْدٌ لها. وبالركن الشماليّ من المغارة صُفّة نقر في الصخرة يسمونها (مقام الخليل). عمقها من القبلة للشمال ذراع ونصف، ومن الشرق للغرب ذراع وربع.

وأما الباب الشرقيّ من بناء الصخرة، فهما بابان: أحدهما داخل الآخر. جُعل الباب الخارج وقاية للداخل من الأمطار والثلوج. ملبس بالرخام. رحاب ما بين البابين عرض أربعة أذرع وربع، وطول خرجته اثنا عشر ذراعا ونصف.

وعلى يمنة الخارج بيت للبوّاب. وبه محراب محمول على ثلاثة أعمدة لطاف، وعلى يَسرته بيت للقناديل محمول على أربعة أعمدة خضر مرسينيّ وزرق.

وعقد ما بين البابين بالفص المُذهَب. ومن عتبة الباب الثاني منهما إلى العمد سبعة أذرع وثلثان وهو الحامل للسقف البسط.

ومن واجهة العمد للشباك الحديد أحد عشر ذراعا . ومن باطن الشباك الحديد إلى الدرابزين الخشب الساتر للصخرة أربعة أذرع وربع. ومن حدّ هذا الباب إلى الشرقيّ، على يسرة الداخل منه طالبا للقبلة على مسافة تسعة أذرع، عمودان مرسينيّ أخضر بأعلاهما دُقَيْسيّ مُذهَب يطلع من باطنه إلى ظهر سقف الصخرة والقبة.

وأما الباب الشماليّ، ويسمى باب الجنة، فله خرجة كالتي في الباب الشرقي وصفتها وحليتها.

وفيما بين العمودين اللذين أمام الباب (داخل درابزين خشب مذهب به محراب لطيف) إشارة إلى الرخامة السوداء التي يصلي الناس عندها . وفُقدت هذه الرخامة من مُدّة زمانية، وعمل مكانها رخامة خضراء. والناس يصلون ويدعون عندها .

وأما الباب الغربيّ فله خرجة كالباب الشرقيّ والشماليّ.

وسعة ما بين تثامين الصخرة من داخل مثل الباب الشماليّ خلا السعة من الشباك الحديد لدرابزين لصخرة فإنه ستة أذرع وثلثا ذراع.

هذا ما يتعلق بصفة الصخرة والبناء المثمن المحيط بها .

صحن المسجد ومساحته :

وأما الصحن المحيط بها، فجميعه مفروش بالبلاط الجليل المصقول.

وذرعه من القبلة للشمال مائتا ذراع وتسعة وعشرون ذراعا؛ ومن الشرق للغرب مائتا ذراع وثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع.

وذرع ما بين الرواق الذي قبليّ الباب القبليّ من أبواب الصخرة إلى رأس السلالم الموصلة للجامع، ثلاثة وخمسون ذراعا ومن رأس السلالم إلى عتبة الجامع مائة وخمسون ذراعا ونصف وربع.

وبأعلى هذه السلالم أربعة قناطر محمولة على ثلاثة أعمدة وركنين من البناء: منها عمودان صوّان أحمر، والوسطانيّ رخام أبيض فيه نقر مربع.

ذكروا في التواريخ أن الدعاء عنده مستجاب.

وشرقيّ هذه القناطر على مسافة أربعين ذراعا قناطر مثلها . أعمدتها اثنان أخضر مرسينيّ. وفيما بين هاتين القنطرتين في سُفل الحرم صُفّة كبيرة تسمّى صفة السبّع دَرَج. يقال إنها مأوى الصالحين والسيُّاح في الليل، وعليها يركمون.

وبجانب القنطرة المذكورة أوّلا، مدهون صورة محراب، بخدّيه عمودا رخام لطاف. وفي ركنها الغربيّ قبتان من رخام، واحدة تعلو الأخرى: كل منهما قطعة واحدة، تسمى قبة الميزان، محمولة على اثني عشر عمودا من الرخام (الشحم واللحم) بقواعد (شمعية). والقبة التي عليها كمثل ارتفاع القبة المذكورة بكمالها: ثمانية أذرع وثلثان. وارتفاع العمد السُفلي ذراعان وسدس؛ وارتفاع العمد الفوقاني ذراع ونصف وربع. وتُعرف أيضا بقبة النجو.

المدرسة المعظمية :

وبالقرنة القبلية من جهة غربيّ الصحن موضع يُعرف بالمدرسة المعظميّة، طولها من ظاهرها أربعة وثلاثون ذراعا، وعرضها من القبلة للشمال سبعة أذرع. لها بابان يُفتحان للشمال، بخدّهما ثلاثة أعمدة من الرخام، كل عمود به أربعة في جسد واحد، ملفوفة (مثمنة). وتِلْو ذلك عمودان لطيفان.

وارتفاع بنائها تسعة أذرع من أرض صحن الصخرة.

ويُدْخَل من البابين المذكورين لرواق طوله ثمانية عشر ذراعا ونصف في عرض ستة، بسقف شاميّ مذهب ثلاثة عشر مربعا. بصدره القبليّ ثلاث طاقات مطلة على الحرم وأبواب الجامع.

وبالجهة الغربية منه قبة معقودة. بكل جهة من جهاتها القبليّة والشماليّة والغربية ثلاث طاقات. ولجهتها الغربيّة باب للدخول إليها من الرواق المذكور، وطاقة تطلّ على الرواق المذكور.

قبة الملك المعظم :

وبالجهة الشرقية من الرواق المذكور قبة ألطف من هذه. سكنُ الإمام، وقيّم المكان، وحاصل الزيت.

ورتب الملك المعظم لها إماماً مفرداً يصلي الصلوات الخمس. ورتب بها خمسة وعشرين نفرا من طلبة النحو وشيخاً لهم، وشرط أن يكونوا حنفية من جملة طلبة مدرسته التي خارج الحرم. ووقف على ذلك قرية تسمّى بيت لقيا، من عمل القدس الشريف. وعلى سقفها مكتوب أنه اهتمّ بعمارة ذلك في سنة ثمان وستمائة [هجرية، 1211م].

وأمام الشبابيك الشماليّة التي بالقبة الغربيّة من هذا الرواق، على تقدير خمسة أذرع، ممشاة معقودة عدتها سبع عشرة درجة، عرض كل درجة ذراع، يتوصل منهنّ إلى سفل الحرم.

مزوالة القبة :

وأمام القبة الشرقيّة من هذا الرواق صُفّة عليها رخامة منقوشة مزولة لإخراج ساعات النهار، طولها من الشرق للغرب ذراعان وثلثان، وعرضها ذراع وثلث، وارتفاعها ذراع ونصف.

ويقابل هذه المدرسة في القُرنة الشرقيّة من هذا الصحن قبة لطيفة مكسوّة من ظاهرها بالبياض، خلوة لبعض المتصدّرين بالحرم الشريف، يفتح بابها للشمال. وتتمة جهاتها الثلاث بكل منهنّ طاقة مطلة على الحرم.

وفي حائطي هذا الصحن الغربية والشمالية مسطبتان تعلو إحداهما قبة من جهة الغرب والأخرى في الشمال سقف على عمودين رخام، يصلي عليها الملّقون في الصلوات الخمس.

وذرع ما بين عتبة الباب الشرقيّ إلى حدّ الدرج، نهاية صحن الصخرة المبلط من جهة الشرق، ستة وسبعون ذراعا .

بأعلى هذا الدرج خمس قناطر معقودة على أربعة أعمدة وساريتين، بخدّهنّ القبليّ والشماليّ خلوتان للفقراء المجاورين بالحرم. وارتفاع عقد هذه القناطر عشرة أذرع، أسوة ارتفاع القناطر التي على سائر السلالم. وبقي ثلاث قناطر منهنّ مفتوحة، يُخرج منهنّ إلى هذه الدرج المسماة بدرج البراق.

وعدّتهن ست وثلاثون درجة.

وذرع ما بين أوّل درجه من هذا الدرج إلى حدّ السور الشرقيّ مائة وستة وخمسون ذراعا وثلث.

وذرع ما بين الباب الشرقيّ البرّانيّ وقبة السلسلة خمسة أذرع ونصف وربع.

وهذه القبة محمولة على اثني عشر عمودا أخضر مرسينيّ و(شحم ولحم). طول كل عمود، خارجا عن قواعده، ثلاثة أذرع وثلث وربع وثمن؛ وارتفاع سقفها البسط الملبس بالرصاص ثمانية أذرع.

جميع ما بين الأعمدة محروق. وما بين العمود والعمود مُتّكَايَة من الحجر الصوّان

المنحوت المجليّ، تقدير شبر لا غير. طول كل قطعة من هؤلاء أربعة أذرع ونصف. وعرض ما بين عمودي المحراب خمسة أذرع مسدود بالرخام الملوّن بخدّي المحراب عمودان رخام أبيض. وبأعلى هذه الأعمدة قناطر ملبسة بالفص المذهب والأخضر المختلف الألوان. ارتفاع القناطر ذراعان وربع، وسعتها من المحراب لآخرها ثمانية عشر ذراعا. وبباطن هذه القبة قبة محمولة على ستة أعمدة أخضر مرسينيّ و (شحم ولحم). ما بين العمود والعمود أربعة أذرع سعتها ثمانية أذرع ونصف. بأعلى الأعمدة قناطر ملبسة بالفص، طول أربعة أذرع ونصف. والقبة الخشب من أعلى ذلك.

السلسلة المعلقة :

روى أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المقدسيّ الخطيب، بسنده إلى أبي مالك بن ثعلبة، قال: سمعت إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله يحدِّث عن أبيه عن جدّه (يرفعه) (أن سليمان بن داود جعل سلسلة معلّقة من السماء إلى الأرض ليتبيَّن المحقُّ من المبطل، فالمحق ينالها والمبطل لا ينالها؛ وأن يهوديا استُودِع مائة دينار فجحدها. فجاؤوا إلى السلسلة) وقد سبك اليهوديّ الذهب في عصا (وناولها صاحب المال وحلف: لقد أعطيته دنانيره. وحلف الآخر أنه لم يأخذ. فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم).

ويقال أن السلسلة كانت موضع القبة المذكورة. والله تعالى أعلم.

وذرع ما بين الباب الشماليّ من أبواب الصخرة (المسمى بباب الجنة) إلى منتهى الصحن المحيط بها إلى القناطر الثلاث المعقودة على عمودي رخام وساريتين مائة وثمانية أذرع.

ويُنزل من هذه القناطر في ثمان درج[325] إلى الحرم الشريف. وأمام الدرج ممشاة مستطيلة مفروشة بالبلاط، عرضها خمسة أذرع وربع وينتهي متشاملا إلى باب الحرم المعروف بباب شرف الأنبياء؛ وطول هذه المشاة مائة ذراع وثمانية وسبعون ذراعا. وسيأتي (إن شاء الله) ذكر هذا الباب عند ذكر أبواب الحرم.

وعن يمين الداخل من هذه القناطر ويسراه في منتهى شماليّ الصحن مسطبتان. طول كلّ منهما ثمانية أذرع ونصف، من الشرق إلى الغرب، وعرضها من القبلة للشمال ذراعان وثلثا ذراع. يصلي الناس عليهما.

ومن هذا الباب الشمالي على مسافة اثنين وأربعين ذراعا طالبا للغرب عمل

(325) - الصواب ثماني درجات

مسطبة ارتفاعها عن الصحن المبلط ثلث ذراع، وطولها من الشرق للغرب ثلاثة عشر ذراعا وثلث، وعرضها من القبلة للشمال عشرة أذرع. بُني عليها قبة مثمنة، تسمّى قبة المعراج. بابها يُفتح للشمال، سعته ذراع وثلث، وطوله ذراعان وثلث. بظاهر القبة المذكورة حاملا لأركانه من الأعمدة الرخام الأبيض ثلاثون عمودا. طول كل عمود، خارجا عن القواعد، ذراعان وثلثا ذراع.

والتثمينة التي بين الأعمدة ملبسة ألواح رخام ملكيْ مشجرة بأزرق. يُصعد إلى بابها بثلاث درج[326] رخام. ثم ينزل إلى داخلها بمثلهنّ.

أرضها مفروشة بالرخام الأبيض، وحيطانها من داخل كذلك، مثل الظاهر. بباطنها من الأعمدة أيضا ثمانية عشر عموداً. وبأعلى الرخام المذكور طاقات نصاص شبه الجبس (المكندج) ثلاثة، وزجاج أربعة. وبأعلى الطاقات كرسيّ القبة. وعرضها من الشرق للغرب سبعة أذرع، ومن القبلة للشمال ستة أذرع وربع. سعة محرابها ذراع وثلثا ذراع؛ وهو بأوّل المسطبة لجهة القبلة. والباب والسلالم بآخرها لجهة الشمال. وتتمة المصطبة يصلي عليها الناس.

ومن قطب القبة لأرضها ارتفاع ستة عشر ذراعا. وبظاهرها في أعلاها قبة لطيفة مكان الهلال، محمولة على ستة أعمدة صغار رخام شمعية؛ طول كل واحد منها تقدير ذراع.

وذرع ما بين الباب الغربيّ إلى راس القناطر التي أمامه بآخر صحن الصخرة من جهة الغرب ثمانية عشر ذراعا وثلثا ذراع. وهي أربع قناطر معقودة على ثلاثة أعمدة مكتّبة بالأزرق وساريتين. وينزل من هذه القناطر بأربع وعشرين درجة إلى الحرم. ومن حدّ هذه الدرج إلى السور الغربيّ (وهو الذي فيه الباب الجديد المعروف الآن بباب القيسارية، وفيه باب الميضأة وسائر الأبواب الغربية الآتي ذكرها إن شاء الله عند ذكر أبواب الحرم) خمسة وثمانون ذراعا وثلث ذراع.

الآبار والصهاريج في صحن الحرم :

وبظاهر هذا الصحن من الصهاريج المركّب على فُوّهة كل منهنّ خرزة رخام أو حجر منحوت سبعة، لهنّ تسعة أبواب. منها بالجهة القبلية بئر يعرف بالرُمّانة له بابان: هذا الباب الذي في الصحن، وباب بسُفل الحرم أمام الجامع؛ وبالجهة الشرقية بئران،

---

[326] - الصواب: بثلاث درجات

يُعرف أحدهما بالشوك، ويعرف الآخر بئر الورد، له بابان جميعهما من صحن الصخرة الشريفة. وبالجهة الشمالية بئر يُعرف بباب الجنة. وبالجهة الغربية ثلاث آبار: إحداها يُعرف بالكاس لأن على فُوْهته كأس رخام طويل، والآخر له بابان من الصحن، والآخر بفرد فم.

وإذ ذكرنا ما في هذا الصحن من الصهاريج، فلنذكر ما في سُفل الحرم من الصهاريج، فنقول: في سُفل الحرم من الصهاريج خمسة عشر صهريجا.

بالجهة القبلية ستة: بالقرب من الزاوية الفخرية واحد؛ وبباب الجامع واحد؛ وداخل باب الجامع الشرقيّ واحد، ويُسمّى ببئر الورقة، وله بابان أحدهما هذا الذي داخل باب الجامع، والآخر في مكان يعمل فيه نجارة الحرم؛ والبئر الأسود، وله ثلاثة أبواب: أحدهما يُنزل إليه بدرج، وبئر يُعرف بالبحيرة، له بابان؛ وبئر في الحاكورة التي عند الباب الشرقيّ، وله بابان: واحد في الحاكورة، وباب خارج عنها.

وبالجهة الشرقية ثلاثة آبار: منها بالقرب من باب الرحمة واحد، له بابان.

وبالجهة الشمالية ثلاثة آبار: بئر بركة بني إسرائيل؛ وبئر بباب شرف الأنبياء؛ وبئر بالرواق الحامل للزاوية المعروفة باللاوي وخانقاه الإسعرديّ.

وبالجهة الغربية ثلاثة: أحدها بباب الغوانمة؛ والآخر عند باب الرباط المنصوريّ، وله بابان: باب في الحاكورة، وباب خارج عنها، يعرف بابن عروة؛ وبئر عند باب الحديد مغطًى بحصر الأروقة.

وهذه الآبار الاثنان والعشرون معمرة بالمياه.

وهناك أيضا غيرها ثلاثة صهاريج خَرِبة مُعطلة. واحد عند درج الميزان، والثاني عند محراب عمر والثالث تحت الزيتون بالجهة الشرقية من الحرم.

وقد استوعبنا الآن صفة صحن الصخرة وما اشتمل عليه.

فلنذكر ما بباطن الحرم من المساجد والمزارات والأبنية وغير ذلك.

ونبتدئ أوّلا بذكر السور المحيط بذلك جميعه:

صفة السور القبلي

صفة السور القبلي وما صاقبه من المساجد وغيرها

وأوّل هذا السور من جهة الغرب مسطبة طولها من المحراب للشمال ستة أذرع وعرضها ستة ونصف.

ويصدرها محراب. ويتلوها من جهة شرقها باب الزاوية الفخرية، ويتلو باب الزاوية الفخرية من الشرق صُفّة عشرة أذرع وربع، وعرضها ثلاثة ونصف.

جامع المغاربة :

ويتلو هذه المسطبة باب جامع المغاربة. وطول جامع المغاربة من محرابه لرأس دهليزه واحدٌ وثلاثون ذراعا ونصف، وعرضه أحد عشر ذراعا ونصف. ومحرابه لطيف، مركب على عمودي رخام لطاف[327].

ومن ظاهر حائط هذا المحراب إلى حائط جامع النساء خرجة في الزاوية الفخرية التي إلى جانبه؛ وطول دهليزه أحد عشر ذراعا وثلثا ذراع، وعرضه أربعة أذرع وثلثا ذراع.

وفي باطن سوره الشرقيّ مسطبة لطيفة؛ عرضها ذراع ونصف، وطولها ثمانية أذرع ونصف وربع وثمن.

وفي ثخائن السور خزائن لطاف للقناديل وحوائج القَوَمة به. وله باب واحد يُفتح للشمال. سَعَته أربعة أذرع وارتفاعه خمسة أذرع.

وقلنا جامع المغاربة، لغلبة هذا الاسم على ألسنة الجمهور. ولو قلنا مسجد المغاربة، لما علم الجمهور بالقدس. وكذلك جامع النساء. كل ذلك ليس بجوامع تقام فيها خطبة وإنما لكل منها إمام مفرد، يصلي فيه الصلوات الخمس لا غيره.

جامع النساء :

ويتلو جامع المغاربة فضوة كبيرة يتلوها جامع النساء. وطوله من الشرق للغرب اثنان وستون ذراعا ونصف ذراع، وعرضه من القبلة للشمال اثنان وعشرون ذراعا وثلثا ذراع، وهو رواقان سقفهما اثنا عشر عقدا: كل رواق ستة عقود محمولة في الوسط على ست عضائد. ويصدره من الشبابيك خمسة:

عرض الشباك الأوّل منها ذراعان ونصف، وعمقه في السور ثلاثة أذرع، وهو عرض السور جميعه في هذه البقعة، وارتفاعه ثلاثة أذرع وثلثا ذراع. وتتمة الشبابيك دون هذا المقدار.

ويحائطه الغربيّ شباك مطلّ على حارة المغاربة.

وباب هذا الجامع يُفتح للشمال. وبكل خدّ أربعة أعمدة رخام أبيض في جسد

---

[327] - الصواب: لطيفين

واحد. طولها خارج عن القواعد ذراعان إلا ربعاً. وأمامه شجرتان عظيمتان من الجوز، تحتهما مسطبة يصلي الناس عليها.

ويدخل من الباب المذكور وينزل بخمس درج [درجات] إلى الأروقة المذكورة. ومن باب جامع النساء على مُضيّ سبعة وعشرين ذراعا من جهة الشرق، الباب الغربيّ من أبواب الجامع المسمّى الآن بالمسجد الأقصى.

صفة السور الشرقي :

تقدّم في قُرفة السور القبليّ مهد عيسى، عليه السلام، وشماليّه رواق معقود على ستة عقود قد خربت مساطبه من العمائر القديمة. وبعض أرضه مبسوطة بالفص. طوله ثلاثة وأربعون ذراعا، ومن جانبه للقبلة كشف إلى حدّ مهد عيسى.

شماليّ هذا الرواق، على مضيّ ثلاثمائة ذراع، مسجد باب الرحمة. وطوله من الشرق للغرب ثلاثون ذراعا، وعرضه قبلة وشمالا أربعة عشر ذراعا ونصف. وسعة محرابه ثلاثة أذرع وربع. يصلي فيه إمام مفرد. وهو معقود بالحجر المنحوت ستّ قباب: اثنان مرتفعتان، وأربعة منبسطة على عمودين صوّان بيض[328] في الوسط وساريتين في الوسط طول كل عمود أحد عشر ذراعا ودورته أربعة أذرع ونصف.

وهذا المسجد متخذ باطن البابين المسميين بباب الرحمة.

وهما بابان قديمان قد سُدّا. على كل منهما مصراعان من خشب مصفح من خارج بالحديد. طول كل منهما أحد عشر ذراعا، وعرضه ستة ونصف. خلف كل منهما بابان بالصفة المذكورة إلا أنهما مصفحان بالنحاس الأصفر المنقوش. وقد سُمّر وأحكم غلقهما. قيل أنهما من بقايا العمائر السليمانية، سُمّيا بأبواب الرحمة.

ومنتهى السور الشرقيّ رواق طوله من القبلة للشمال ستة عشر ذراعا ونصف. ومن الشرق للغرب سبعة أذرع وثلث، ويعقبه في أوّل السور الشماليّ باب أسباط. وسيأتي ذكره، إن شاء الله.

وليس في هذا السور الشرقيّ الآن باب يُسلك منه للحرم الشريف. ولم يكن له في الزمن القديم سوى البابين المذكورين.

ويقال أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) غلقهما لما فتح القدس. لم يُفتحا إلى الآن.

---

(328) - الصواب: على عمودي صوّان ابيضان

وقد اتخذ الناس ظاهر هذا السور مقبرة يدفنون فيها موتاهم. وفيها قبر شدأد بن أوس.

وتلو المقبرة المذكورة واد عميق يُعرف بوادي جهنم، يزرع. وفيه كروم وبساتين. ومنه يُتطرَّق إلى عين (ماء). وفيه أبنية عجيبة وآثار غريبة ونقوش ومعابد قديمة. وهو وقف على المدرسة الصلاحية.

حدّ هذا الوادي من الشرق طور زَيتا الذي يُقال إن الله رفع عيسى عليه السلام منه. وبه قبر رابعة العدوية، يُزار قصدا. وفيما بين السور الشرقيّ وصحن الصخرة الشريفة أشجار من الزيتون والميس والتوت والتين. تقدير عدّتها مائة شجرة، يستظلّ الناس تحتها ويصلون.

الحرم القدسي والفصول الأربعة :

قال الصاحب تاج الدين أحمد بن أمين الملك: (ولقد مضى لي في مجاورة هذا الحرم الشريف الفصول الأربع، فرأيت له في كل فصل محاسن في غيره لم تُجمع، وهو أنه من مبدإ فصل الربيع تبدو فيه الأزاهر المختلفة الألوان ما يستوقف بحسنه لبّ الذكي الأروع. وكلّ أحد ممن له معرفة بالأعشاب يأتي إليه، ويأخذ من تلك الأزاهر ما علم منفعته ومضرته).

قال: (وأما ما شاهدته بالعيان، أنني جلست وقتا في بقعة منه تكللت بأزاهر من الشقائق والبهار والأقحوان، وإلى جانبي فقير عليه أطمار رثّة يبدي تبسُماً، وتارة يعلن صوته بالتسبيح والتكبير ترنُما، ويقول: سبحان من جمع فيك المحاسن وكساك هذه الحلل الفاخرة، وجعلك تحتوي على كنوز الدنيا والآخرة! فقلت له يا سيدي! أما فضله وبركته، فقد صدّق العيان فيها الخبر، وقام بها الدليل والبرهان وتواتر بها الأثر، لكن ما كنوز الدنيا؟ فقال: ما من زهرة تراها إلا ولها في النفع والضرّ خواصّ، يعرفها أهل الاختصاص! فقلتُ: لعلّك تُظهر للعيان شيئا مما عرفت يزداد به اليقين تبصرة، وتكون هذه الجلسة معك على صبح النجاح مسفره. فأخذ بيدي ومشى خطوات إلى جهة من جهات الحرم.

ومدّ يده فأخذ قبضة من ذلك الكلإ، وقال: هل معك خاتم أو درهم؟ فقلت نعم. فأخرجت درهما مما معي. فعركه بذلك الكلإ، فعاد كالدينار في صفرته. ثم أخذ حشيشة أخرى، وعركه بها. فعاد أبيض، أنقى مما كان أوّلا. وقال: هذه رموزٌ احتوت على تلك

الكنوز. ولم يترك نبيّ الله سليمان شيئا من المواهب التي منحه الله إياها، والمنافع التي وصلت إليه من الإنس والجنّ على اختلاف صورها ومعناها، إلا وأودعه في هذا الحرم. فأين من يفهم تلك المعاني، أو من كان لها يُعاني؟ ثم أخذ منهجا غير ما كنت أسلكه. فسألته التثبت والتلبث. فقال: الدنيء من صرف نظره إلى العَرَض الأدنى، والسريُ من صرف زمانه بالتهجد في هذا المغنى. أوصيك أن تغتنم الفرصة في ركعات تقدّمها بين يديك، فما سواها فان، ولا تلتفت إلا إلى ما يقرّبك من الرحمن. فقلت: يا سيدي! ومثلك من يفتح لي أبواب الصواب. فقال: ما بعد السنّة والكتاب من باب. ثم فارقني مهرولا، معلنا بصوته ومرتلا.

يقول: سبحانك يا دائم! سبحانك يا قُدُوس! سبحانك يا رحمن! سبحانك يا مُحيي النفوس! فجعلتُ هذا الذكر لي ديدنا، وكلما اشتاقت له مني عين أطربت بذكره أذنا.

صفة السور الشمالي

وفيه عدة أبواب أوّلها، من جهة الشرق باب يُسمّى:

باب أسباط:

وهو تلو الرواق المقدّم ذكره الذي هو نهاية السوق الشرقيّ. وارتفاع هذا الباب خمسة أذرع، وعرضه ثلاثة أذرع ونصف وربع وثمن ذراع.

ويعقب هذا الباب من غربه، رواق معقود على عشر سوارٍ. طوله اثنان وسبعون ذراعا، وعرضه ثمانية أذرع. بصدره أربعة شبابيك مطلّة على بُركة بني إسرائيل. وبعضها كشف، قُصد أن يُبنى به أروقة.

وإلى الآن لم تُكمل. وطولها أربعة وسبعون ذراعا.

المدرسة الكريمية:

ويعقب هذه الأرض المدرسة الكريمية. وجاورت ما أمامها من الأروقة بحائطين: غربية وشرقية.

جعلوا مصيفين قدأمها. وطول هذه المدرسة من الشرق للغرب خمسة وعشرون ذراعا. وجُعل قدأم هذه الأروقة مسطبة يُصعد إليها بأربع درج [درجات] بارزة في الحرم. طولها من القبلة للشمال ستة عشر ذراعا.

وهذه المدرسة بناها كريم الدين عبد الكريم، ناظر الخواص الشريفة السلطانية الناصرية.

باب حطة:

ويعقب هذه المدرسة باب، يسمّى باب حطّة. عرضه أربعة أذرع وثلثا ذراع، وارتفاعه ثمانية أذرع. أمامه ممشاة مفروشة بالبلاط، طولها مائة وثمانية وسبعون ذراعا، وعرضها خمسة أذرع وكسر يُصعد من آخر بدرج إلى ثلاث قناطر معقودة على عمودين رخام وساريتين، يُدخل منهن إلى صحن الصخرة. ويخدّي هذا الباب مسطبتان لطيفتان، عرض كل منهما ذراعان: الشرقية منها لصيقة للمدرسة الكريمية المذكورة، وتلو الغربية رواق، طوله اثنان وسبعون ذراعا في العرض المذكور.

وفي سوره ثلاثة شبابيك للرباط العَلَميّ الدواداريّ. وبأوّله من الشرق بالقرب شباك للتربة الأوحدية، من بني أيوب.

باب شرف الأنبياء:

ثم يتلو هذا الرواق باب يعرف بباب شرف الأنبياء. طوله ثمانية أذرع وعرضه أربعة. وأمامه ممشاة نظير الممشاة المذكورة. وقد تقدّم ذكر هذه أيضا.

ويتلو هذا الباب رواق طوله سبعة وأربعون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع ونصف، معقود على ثماني سَوَارٍ. بأوّله شباكان. أحدهما مفتوح يُتوصل منه إلى زاوية الصاحب أمين الدين، المعروف بأمين الملك. وتلوهما باب يُصعد من باطنه إلى زاوية اللاوي. وتلو الباب مسطبة، فيها صهريج.

ويعقب هذا الرواق من الغرب رواق معقود عقدين على ثلاث سوار. طوله تسعة عشر ذراعا ونصف، وعرضه من الشمال للقبلة تسعة أذرع. ويُصلّي به الآن بعض النسوة، الصلوات الخمس خلف الأئمة.

مدرسة آل ملك وخانقاه الأسعردي

وبأعلاه مدرسة الأمير سيف الدين الحاجّ آل ملك الجوكندار، وخانقاه مجد الدين الإسعرديّ التاجر.

وبأوّله جوار الصهريج المذكور، سُلّم يُصعد منه إلى المدرسة والخانقاه المذكورتين.

ويعقب هذا الرواق كشف ليس به أروقة. وهو صورة مسطبة عالية. وينزل من وسطها بست درج [درجات] إلى الحرم.

مدرسة الجاولي:

وبأقصى ارتفاع هذا السور خمسة شبابيك لمدرسة الأمير علم الدين سنجر

الجاوليّ، رحمه الله. وليس لها استطراق إلى الحرم. ومن حدّ هذا الكشف، طالبا من جهة الغرب، خلوتان لكل مهما باب يُفتح للجهة القبلية من الحرم. وداخلهما كله في باطن السور الشماليّ. وهي من جبل صخر أصمٍ، صفة مغارة. وقيل يُعرف قديما بمغارة إبراهيم. وفي الشرقيّ منها شباك لطيف. وإلى جانب هاتين الخلوتين، خلوة لشيخ الحرم. وبها شباكان على الحرم الشريف. وطولها ستة عشر ذراعا وأمامها مسطبة في الطول المذكور، وعرضها اربعة أذرع وثلث. وبأعلى هذه الخلوة، خلوة يُصعد إليها بسُلَّم، بسبع درج [درجات] في حدّ الباب يُفتح للشرق.

ويتلو ذلك رواق على عقدين طوله من الغرب طالباً للشرق خمسة عشر ذراعا وعرضه تسعة ونصف.

وتلوه سلّم مستطيل جداً، يصعد من أعلاه إلى مئذنة، وإلى دار هناك لبني جماعة. وهذه المئذنة هي أقصى السور الغربيّ، وارتفاعها ثلاثة وخمسون ذراعا. وبأعلاها درابزينات خشب منقوشة. وهي مكللة من العمد الرخام اللطاف بواحد وثلاثين عمودا.

صفة السور الغربيّ

ويشتمل على سبعة أبواب بما فيه من باب الطهارة، فإنه الآن غير نافذ. وأمام كل باب شجرة كبيرة من الميس أو التوت، وتحتها مسطبة يصلّي الناس عليها، ويستظلون؛خلا باب الغوانمة، فليس قدّامه شيء.

ومبدأ السور من المئذنة المذكورة.

وأوّل أبوابه من هذه الجهة، باب الغوانمة. وطوله أربعة اذرع وعرضه ثلاثة أذرع. يُصعد إليه من الحرم الشريف بعشر درجات. ويحدّه الشماليّ خلوة للبوّاب، بارزة في الحرم تقدير خمسة أذرع. ومن حدّ هذه الخلوة إلى المئذنة المذكورة خمسة وثلاثون ذراعاً. ومن الباب المذكور (على مضيّ ثمانية عشر ذراعاً طالباً للقبلة) باب لطيف للخلوة في باطن عرض السور لبعض الفقراء المجاورين. ومن حدّ هذه الخلوة إلى نهاية أربعة وعشرين ذراعا حاكورة بها أشجار وكروم تحت دار وقفها علاء الدين الأعمى.

وكان هذا الرجل من نظار الحرم المتقدّمين، وله تأثيرات حسنة في الحرم من المواعيد والأبنية.

وطول الحاكورة طالبا للشمال خمسة وأربعون ذراعا، في عرض سبعة اذرع وكسر. ومن نهاية الحاكورة إلى أقصى السور وهو المئذنة المذكورة كشف بلا أروقة.

باب الرباط المنصوري:

ولصيق هذه الحاكورة من القبلة باب كبير يُعرف بباب الرباط المنصوريّ. طوله ستة وعرضه خمسة ونصف. وأمامه ممشاة يتوصل بها إلى السُلّم الذي يتوصل منه إلى صحن الصخرة، قبالة الباب الحديد الآتي ذكره.

وبخدّ الباب المذكور إلى جهة الشمال عقد على ساريتين، طوله تسعة أذرع وعرضه عرض الحاكورة وسائر الأروقة المتصلة به. وهذا العقد أوّل العقود في السور الغربيّ.

وعمل في ثخانة الحائط التي في أوّله مع ثخانة السارية خلوة صغيرة للقيّم والبوّاب بالباب المذكور.

وتحت هذا العقد يجلس الناظر والمباشرون يومئذ للنظر في المصالح. وتلو الباب المذكور عرضه عرض الأروقة وطوله مائة وثمانية اذرع، معقود على ست عشرة سارية. وعلى تقدير عشرة اذرع من أوّله شباك القاعة التي هي سكن الناظر على أوقاف الحرم. وهي من وقف الحرم. وفي آخره خلوة لطيفة سكن القيّم وبرسم القناديل.

باب الحديد:

وتلو ذلك الباب المعروف بالحديد. طوله أربعة أذرع ونصف، وعرضه ذراعان وثلثا ذراع. وأمامه ممشاة مبلطة يتوصل منها إلى سُلّم لصحن الصخرة الشريفة. عرضه ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف وعدد درجه إحدى وعشرون درجة. وليس بأعلاه قناطر أسوة بقيّة السلالم.

وتلو هذا الباب رواق على ثماني سَوارٍ طوله ثمانية وخمسون ذراعا وعرضه عرض سائر الأروقة. وبآخره باب لطيف خلوة لبعض الفقراء.

ثم يتلو هذا الرواق باب كبير عمل من قريب واستجدّ فتحه، ينزل إليه بعشر درجات. له مساطب في خدّيه. طول كل منها سبعة أذرع وعرضها [كذا] وثلثا ذراع. قد اتقنت عمارته. وارتفاعه ثمانية أذرع وعرضه خمسة أذرع. وعقده بوجهين، منقوش بالحجر الملوّن. وطراز كتابته بالذهب، نقر في الحجر.

وأبوابه مصفحة بالنحاس المذهب المخرّم، متقن العمارة والزخرفة. ويتوصل منه إلى القيسارية المستجدّة وتشتمل على صفّي حوانيت، بعضها وقف على الحرم، وبعضها وقف على المدرسة والخانقاه اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز، رحمه الله، وسيأتي ذكرها عن كثب. إن شاء الله.

وإلى جانب هذا الباب رواق معقود على ساريتين كبار جداً طوله خمسة عشر

ذراعا، وعرضه إلى خارج الساريتين سبعة أذرع وثلثا ذراع وإلى باطنهما خمسة أذرع ونصف. بصدره شباك لقاعة من وقف الحرم. وبجانب الشباك خلوة لطيفة للقيّم والبوّاب. وإلى جانب هذا الرواق باب الطهارة. وهو يشتمل على طهارتين: إحداهما للنساء، والثانية للرجال. وتشتمل طهارة الرجال على ثلاثة وعشرين بيتا وفسقية كبيرة. وبأعلى طهارة النساء مساكن تُكرى لوقف الحرم.

وباب الطهارة ينزل إليه من أرض الحرم بأربع درجات. وطول الباب أربعة أذرع وثلثا ذراع، وعرضه ثلاثة وثمن. وبعده سبع درجات إلى دهليز مستطيل، يتوصل منه إلى طهارة الرجال وإلى سلّم يتوصل منه إلى علو طهارة النساء. وطهارة النساء في أوائل الدهليز، على يمين الداخل.

ويتلو باب الطهارة رواق طوله ثلاثة وستون ذراعا، وعرضه سبعة ونصف. معقود على تسع سوار.

وفيه من ثخانة السور بابان لخلوتين: أحدهما للقيّم وأخرى برسم الفقير. وفي آخره من جهة القبلة محراب ملاصق للمئذنة، يُصلّى فيه صلاة مفردة بإمام مفرد. وتجاوره المئذنة المختصة بالحرم وارتفاعها ثمانية وأربعون ذراعا. وبأعلاها درابزينان من الخشب. وهي مكللة من العمد الرخام اللطاف بثمانية أعمدة.

باب السلسلة:

ويتلو المئذنة بابان قد غُلّق الشماليُ منها وسمّر والمئذنة إلى جانبه. ويسمّى الباب المفتوح باب السلسلة.

ويُعرف قديما بباب السَحَرَة. سعته خمسة أذرع وثلث، وطوله ثمانية ونصف. وكذلك المغلق. وأمام هذا الباب ممشاة قلع يتوصل منها إلى سلالم صحن الصخرة بعقد قبالة المعظميّة. ذرعها سبعٌ وسبعون ذراعا وربع. ويتلو الباب رواق معقود على عشر سوار طوله سبعة وخمسون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع وربع، وارتفاع عقده عشرة أذرع ونصف. وهو نظير ارتفاع سائر سقوف أروقة الحرم.

وهذا الرواق فيه شباكان للمدرسة التنكزية: أبوابها من الأبنوس والعاج، وداخلهما المدرسة. وظهره حامل للخانقاه التنكزية. وفي آخره باب لطيف يصعد منه إلى أعلى المدرسة وسكن الصوفية. وفي آخر سواريه ستة أعمدة من صوّان كبار. ويتلو هذا الرواق من القبلة مسطبة ارتفاعها ذراع وطولها من الجنوب للشمال ثمانية وثلاثون ذراعا إلا ثمنا، وعرضها عرض الرواق المذكور.

باب حارة المغاربة:

وتقيس في هذه المسطبة ثلاثة وثلاثين ذراعا، تجد باب حارة المغاربة. وسعته ثلاثة أذرع وربع، وطوله أربعة ونصف.

وتلو الباب المذكور على ثلاثة أذرع مسطبة. وهي نهاية السور الغربيّ وأوّل السور القبليّ. وهذه المسطبة مجاورة للزاوية الفخرية التي هي أوّل السور القبليّ من جهة الغرب. وقد تقدّم ذكرها.

◆ ◆ ◆

وإذ قد استوعبنا صفة السور المحيط، فلنذكر الآن ما وعدنا بذكره مما اشتمل عليه سور صحن الصخرة.

الخلاوي والحواصل تحت الصخرة :

ونبدأ بما هو تحت صحن الصخرة، وعدّته تسع خلاوٍ: أحدها جُعل حاصلا لأصناف الحرم.

فمنها بالجهة القبلية ثلاثة: منهنّ ما على أبوابه مساطب ومعرّشات كرم، وفيه أبواب الرواق المعظّميّة التي تحت مدرسته. وهو مُصلّى للحنابلة بإمام مفرد. وبجانبه الشرقيّ حاصلان يجعل فيهما زيت الحرم وأصنافه.

وفي جهة الشرقية من تحت صحن الصخرة أربع خلاوٍ: منها ما عمل قدّام أبوابه حاكورة وغرست أشجارا. والجهة الشمالية خالية من الخلاوي والحواصل.

وبالجهةِ الغربية خلوتان. أحدهما جُعلت حاصلا لأصناف الحرم. وفيه أبواب للرواق المعظميّ. وقبالة أبواب الرواق المعظميّ من الغرب قبّة موسى عليه السلام. وهي أمام باب السلسلة وأمام رواق الحنابلة. بين المسطبة الحاملة لها وبين باب السلسلة ثمانية وعشرون ذراعا. وطول المسطبة من القبلة للشمال أربعة وعشرون ذراعا، وعرضها من الشرق للغرب واحدٌ وعشرون ذراعا ونصف؛ وارتفاعها نصف ذراع. بصدر المسطبة القبليّ القبة المذكورة. طولها من ظاهرها من القبلة إلى الشمال عشرة أذرع، وعرضها من الشرق للغرب مثل ذلك. وارتفاع كرسيّ القبة من ظاهر المسطبة ثمانية أذرع.

تشتمل هذه القبة من باطنها على أرض مفروشة بالرخام.

بابها يفتح للشمال. عرضه ذراع ونصف، وطوله ذراعان وثلثان. وبخدّيه شبّاكا حديد في طول الباب وعرضه. وبكل جهة من جهاتها شبّاك حديد. يغلق على كل شباك، زوج أبواب. وهي محمولة على الأركان. وبين كل حائط وأخيه قوس عقد. وبأعلى كرسيّ القبة كرسيٌ ثان، فيه خمس طاقات زجاج. وبأعلى الكرسيّ الثاني القبة المعقودة. تقدير ارتفاعها على ظهر الكرسيّ الثاني ثمانية أذرع وليس فيها عمد رخام بالجملة الكافية، حتّى ولا في خدّ المحراب.

صفة قبة سليمان عليه السلام

وهذه القبة بالجانب الشماليّ من الحرم. وهي مسامتة للصهريج والسُلّم الذي يُصعد منه إلى الخانقاه الأسعردية والمدرسة السيفية آل ملَك.

ومن واجهة الصهريج إلى باب القبة ثمانية وأربعون ذراعا. وهو يُفتح للشمال. طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع وثمن. بخدّيه عمودا رخام ومسطبتان: يُمنى ويُسرى. طول كل منهما خمسة أذرع وربع، وعرضهما مثل ذلك.

وبخدّي الباب المذكور شباكان مطلان على هاتين المسطبتين. طول كل شباك منهما ذراعان وثلثا ذراع، وعرضه ذراع وثلثان.

يدخل من هذا الباب إلى قبة مثمنة. وتتمة التثمينات مسدودة. بها أربعة وعشرون عمودا من الرخام طول كل عمود (خارجا عن القواعد) ذراعان ونصف. في كل تثمينة من المسدودات أربعة أعمدة حاملة للرخامة التي في عقد القناطر. وبخدّي المحراب عمودان لطيفان طول كل منهما ذراع ونصف.

وفي نهاية العمد (عند نهاية كرسيّ القبة) طاقات زجاج بدائرها. سعة القبة ستة أذرع ونصف، وارتفاعها من قطب القبة للأرض عشرون ذراعا.

صخرة سليمان:

وعلى يُمنة المصلى في المحراب صخرة صغيرة طولها ذراعان وربع، وعرضها من الجهة القبلية ذراع، ومن الشمالية ثلثا ذراع. يدعو الزوّار عندها. ويُقال إنها من الآثار السليمانية، وإن الدعاء عندها مستجاب.

وفي حائط هذه القبة القبليّ، من خارج، عمودان من الرخام. وبهما تكمّل ما بهذه القبة من الأعمدة ثلاثين عمودا.

صفة المجلس الذي بناه سليمان عليه السلام

ويسمّى الآن اصطبل سليمان قال الصاحب تاج الدين: هذا المجلس بناؤه أعجب وأتقن من المسجد الذي أعلاه. وله من داخل الخانقاه الصلاحية (يعني المجاورة المقصورة الخطابة وبها الآن شيخ يُعرف بالختنيّ، وبه تُعرف الآن) سُلّمان: أحدهما ست وثلاثون درجة ينزل منها إلى بعض أقسام المجلس المذكور، والثاني أربع وخمسون درجة ينزل منها إلى بقية أقسام المجلس المذكور.

قال: والمكان في غاية النور لما عمل له من المناور والطاقات المحكمة. وهو رواقات عقودها محمولة على عمد من الصوّان وأركان البناء. وعرض هذه المجالس من القبلة إلى الشّمال: منها ما عرضه ثمانية أذرع، ومنها ما عرضه تسعة أذرع، ومنها ما عرضه عشرة أذرع، وارتفاع عقوده من الأرض التي بها الأبواب النافذة لراس وادي عين سلوان منها ما تقدير ارتفاعه عشرون ذراعا، ومنها ما تقديره خمسة عشر ذراعا.

ويُقال إن أحد هذه الأبواب كان منه دخول الأنبياء عليهم السلام.

وفي إحدى اسطواناته حلقة. يُقال أن البراق رُبط بها ليلة الإسراء.

وهذه الأروقة كلها آخذة من الشرق والغرب. فمنها ما أمكن قياس طوله، الذي أمكن التطرّق إليه.

فكان تقديره ثلاثة وتسعين ذراعا. ومنها ما لم يمكن قياس طوله لكون أطواله قُسمت حيطانا: منها ما هو في وقتنا هذا مملوء بالتراب المهول، ومنها ما هو صفة حواصل، ومنها ما هو مساكن ومرافق لسكان الخانقاه المذكورة.

قال: ونطاق النُطق ضاق عن استيعاب وصف هذا المجلس. لكن الأماكن التي أمكن التطرّق إليها والمشي لما هو نافذ منها دلّت على أن البقعة المسماة بالجامع (يعني المسجد الأقصى) موضع الخطبة الآن، وبقعة جامع النساء وغالب المشاوات التي بالحرم والأشجار المزدرعة: كلها معلقة على هذه العقود والسواري.

قلت: ولقد دخلتُ إلى بعض هذه الأماكن، ورأيتُ من عجائب الأبنية بها ما يملأ العين. وكان دخولي إليها من الزاوية المعروفة بسكن الختنيّ ثم أفضيتُ منها إلى الكروم وظاهر المسجد[329].

---

[329] - هذا الوصف يرد في السفر الأول من (مسالك الأبصار) وقد أخذناه من ثلاثة مراجع طبعة أحمد زكي، وطبعة

دير المُصَلَّبَة[330]:

وهو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب. وهو دير روميٌّ قديم البناء، بالحجر والكلس.

محكم الصنعة. مُونق البقعة. في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين؛ بإزاء قرية، تُجري على الدير بمرسوم السلطان.

وهذا الدير دخلتُ إليه ورأيته. فيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير، وتناسب المقادير.

وصعدتُ إلى سطحه، فرأيت له حُسنَ مُشتَرَف وسَعَة فضاء. ورهبانه من الكُرْج.

وقد كان اتخُذ هذا الدير، وجُعل مسجدا للمسلمين، وأُعلن فيه بالأذان وأُقيمت الصلاة. ثم أُعيد ديرا للنصارى، وضُرب فيه بالناقوس وأُظهرت فيه كلمة الكفر. وتُوُصِّل إلى هذا بكتاب أحضر من ملك الكرج، وأعانه عليه قوم آخرون.

ورأيت عند الحافظ العلاّمة أبي سعيد العلائيّ وعند سائر العلماء والصلحاء ببلاد القدس، من إعادته إلى النصارى ما هو قذى عيونهم إلى أن يتخلّى، وشجى حلوقهم إلى أن يُستردّ.

وعليّ لله نذرٌ إن وصلت يدي إلى هذا لا ردَدْتُها حتّى يُرَدّ! ولهذا القصد شهد الله العظيم، قصدتُه.

وحدثني رهبانه بأن على ديرهم وقوفاً في بلادهم، منها خيول سائمة تُحملُ أثمان نتاجها إليهم، وأنه يجيء منها في كل سنة قدر جليل، وأنها تُنفق في مصالح الدير وابن السبيل.

وفيه يقول أبو عليّ حسن الغزّيّ: [من الكامل]

يا حُسنَ أيامٍ قَطَفْتُ هَنيئَةً	بالدير حيثُ التّين والزَّيتُونُ
دير المُصَلّبَة الرفيعُ بناؤُهُ	تَفْدي عَبيرَ تُرابِه دَارِينُ
في ظلِّ هَيْكَلِه وأسراب الدُّمى	مجلُوّةٌ والمَرْمَرُ المَسْنُونُ
ومُزَنَّرِينَ إذا تَلَوا إنجيلهم	وتَعَطّفُوا فحمائمٌ وغُصُونُ
غِزْلانُ وَجْرَةَ هُمْ وبَينَ جُفُونِهِم	لأسُود بِيشَةَ إن عَرَضْنَ عَرِينُ

المجمع الثقافي في ابو ظبي، ج1 ص180-230 ولكننا اعتمدنا بصورة رئيسية على طبعة سيزكين ج1 ص94-124.

[330] - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج1 ص 248- 249

نزَعُوا القَلانِسَ والمُسُوحَ فَزُخْرِفَتْ — منهن عن غُرَرِ الشُمُوسِ وُجُونُ

وسَقَوْا بكاسات المُدامِ وما دَرَوْا — أنّ للكؤوسِ الدائرَات جُنُونُ

فَقَضَيْتُ بينَهُمْ زَماناً لم يَزَلْ — عندي إلَيْهِ تَشَوّقٌ وحَنينِ

تلك المنازلُ قد سَفَحْنَ مَدَامِعي — لا مِصْرُ قاطِبَةً ولا جَيْرُونُ

دير السِّيق[331]:

قبليُّ البيت المقدّس: على نَشَزٍ عالٍ، مُشرف على الغور، غور أريحا. يُطلُّ على تلك البسائط الخُضر ومجرى الشريعة. وبه رُهبان ظراف أكياس، ولا يأتيهم إلا قاصد لهم أو مارٌّ في مزارع الغور. تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر.. وفي هذا الدير ومُشتَرَفه، وأطلال قلاليِّه وغرفه، قلت: [من الطويل]

أرى حُسنَ دير السِّيق يزدادُ كُلَّما — نَظَرتُ إليه والفضاءُ به نَضْرُ

بَنَوْهُ عَلَى نَجْدٍ على الغَوْرِ مُشْرِفٍ — كَتَخْتِ مَليكٍ تَحْتَهُ بُسُطٌ خُضْرُ

واشرقَ في سُودِ الغَمامِ كأنَّما — تَشَقَّقَ ليلا عن جَلابيبهِ الفجْرُ

وقام على طَوْدٍ عليٍّ كأنَّما — مَصابيحَه تحت الدُجى الأنجُمُ الزُهْرُ

وزُفَّتْ إليه الشمسُ من جَنْبِ خِدْرِها — وناغاه جُنْحَ الليل في أفقه البدرُ

وألقت إليه الريحُ فضلَ عنابِها — وأحنى عَلَيها لا تُبَلُّ له عُذْرُ

ولو كان كالنَّسرَين هَان ارتقاؤُهُ — ولكنّه قد حُطَّ من دونه النَّسْرُ

علا نَهرَ ريحا والمَجَرَّةُ فوقه — فمِن فوقه نَهرٌ ومِن تحته نَهرُ

دير الدَّواكيس[332]:

شرقيّ القدس. وهو دير حسن البناء. له بين النصارى سمعة وذكر. ولا أعرف بانيه، ولا وقفتُ له على اسم، ولا على السبب الذي سُمّي به بهذا الاسم. غير أن له وقفا يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع.

---

(331) - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج1 ص 249- 250

(332) - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج1 ص 250

وقد مررتُ به غير مرة في أسفاري، وخرج إليّ رهبانه بميسور ما عندهم. وفيه قلت: [من البسيط]

أَنِخْ بليلٍ على دير الدَّواكيسِ	وانصتْ إلى قَرْعِ هاتيكَ النَّواقيسِ
واحبِس مع العيسَويِّ الركْبَ في طَرَبٍ	طول الزمان ولا تَرْحَلْ مع العيسِ
وانْظُرْ مع الصُبْح هَاتيكَ الشُموسَ ضُحىً	وخَلِّ عنكَ رِباطاتِ النواميسِ
واسبأ من الدير خَمْراً كُلُّها ذَهَبٌ	كيْلا نَعُدَّك في حِزْبِ المفاليسِ
وخَلِّ كلَّ شحيحٍ كنتَ تَتْبَعُهُ	فَكُرْ تَرَ الكيسَ في الإنفاقِ للكيسِ
وأنْعَمْ وَلَذَّ بما قَضَيْتَ من وَطَرٍ	وَطِرْ سُروراً إلى تلك الطَّواويسِ

وقلت:

دَيرُ الدَّواكيسِ أم ريشُ الطَّواويسِ	أم الشُّمُوسُ سَنَا تلك الشَّمَاميسِ
مأوى المَيَاسيرِ لكنْ بعدَ أوْبَتِهِمْ	منهم يُعَدُّونَ في حزبِ المَفَاليسِ
فانْزِل به وأقِمْ فيما تُريدُ وقُلْ	إملا كُؤوسي وَفَرِّغْ عِندَها كِيسي
واقدح زِنادَ سُرورٍ من مُدامتِه	فهذه النارُ من تلك المَقابِيسِ

الخليل

وأما بلد الخليل عليه السلام، وهي مزرعة إبراهيم فأبهى بلدة غير مسورة، على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد، وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء، ولا في واد، وهي قرية أم عمل، ولولا مكان الخليل عليه السلام بها، لم تذكر فيما يذكر، وإنما عادت عليها بركات ذلك المثوى الكريم، فباهت الأقطار بفضلها وتأهلت الأمصار بأهلها، وأجرى بكتمر الجوكندار قبل أن يكون كافل المماليك إليها عين ماء كانت على بعد منها ولقد شاهدت بها الماء جارياً في طبقة عليه يصعد إليها من نحو عشرين درجة في العلو.

والخليل عليه السلام بها، يحيط به سور هو داخل ذلك السور ولا يصح مكان القبر به على التخصيص، وبه سرداب الخليل المنسوب إليه داخل ذلك السور، يوقد عليه قنديل، ولهذا تقول العامة «صاحب السرداب والقنديل» وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

قبر الخليل عليه الصلاة والسلام

وما جاوره من قبور بنيه والأزواج وكلها داخل ذلك المسوَّر، وفي حدود ذلك المكان المنوَّر روى الحافظ أبو القاسم مكّيّ بن عبد السلام بن الحسين الرُّميليّ المقدسيّ بسنده إلى كعب الأحبار، قال:

أوّل من مات ودُفن بحبرى سارة وذلك إن إبراهيم خرج لما ماتت، يطلب موضعا يقبرها فيه. فقدم على صفوان، وكان على دينه. وكان مسكنه وناحيته حَبْرى. فاشترى منه الموضع بخمسين درهما.

وكان الدرهم ذلك العصر خمسة دراهم. فدُفنت سارة فيه. ثم توفّي إبراهيم فدُفن لصيقها. ثم توفّيت ربْقَة زوجة إسحاق فدُفنت فيه. ثم توفي إسحاق فدُفن لزيقها. ثم توفّي يعقوب فدُفن في الموضع. ثم توفّيت زوجته ليقى فدُفنت معه.

فأقام ذلك الموضع على ذلك إلى زمان سليمان. فلما بعثه الله، أوحى إليه أن ابنِ على قبر خليلي حَيْرا حتّى يكون لمن يأتي بعدك، لكي يُعرَف.

فخرج سليمان وبنو إسرائيل من بيت المقدس، حتّى قدم أرض كنعان. فطاف فلم يصبه. فرجع إلى بيت المقدس. فأوحى الله إليه: يا سليمان، خالفتَ أمري! قال: يا ربٍّ، قد غاب عني الموضع. فأوحى الله إليه: امض فإنك ترى نورا من السماء إلى الأرض، فهو موضع قبر خليلي. فخرج سليمان ثانيا، فنظر فأمر الجنَّ فبنوا على الموضع الذي يُقال له الرامة. فأوحى الله إليه: إن هذا ليس هو الموضع، ولكن إذا رأيت النور قد التزق بأعنان السماء. فخرج سليمان فنظر إلى النور قد التزق بأعنان السماء إلى الأرض. فبنى عليه الحَيْر.

الحير والسرداب:

قلت: ولم يكن لهذا الحَيْر باب. وإنما المسلمون لما افتتحوا البلد، فتحوا له بابا. وبناؤه بناءً محكمً. وفي حائطه حجارة هائلة في كُبر القدر، منها ما طوله سبعة وثلاثون شبرا.

وقد أقيم بهذا الموضع خطبة، ورُتّب به إمام ومؤذنون.

وفي قبلته باب ينزل منه بدرج كثيرة إلى سرداب ضيّق تحت الأرض يأخذ متشاملة إلى فجوة فيها ثلاث نصائب قبور في حائطه، يُقال إنها قبر الخليل وزوجته وإسحاق وهناك طاقة لا يُعرف إلى أين تنتهي، لكن يُقال أنها إلى مغارة تحت أرض الحرم، فيها الموتى. وتلك أمثال القبور من فوق.

ولقد أتيت إلى هذا السرداب ومشيت به زحفا، بضيقه. ولتطأطؤ سقفه لا يقدر أحد على المشي منتصباً به. وهو خطوات يسيرة تنتهي إلى الفجوة المذكورة. وهي نحو أربعة أذرع في مثلها. وهيئة القبور في قبلة المسجد الآن قبران: الأيمن قبر إسحاق والأيسر قبر زوجته. وفي شماليّه مما هو منفصل عن المسجد بقبتين متقابلتين قبران: الأيمن قبر إبراهيم الخليل، والأيسر قبر سارة زوجته. وفي شماليّ الحرم قبة مفردة مسامتة لقبة الخليل. وفيها قبر يقال أنه قبر يعقوب. ولا شكَّ ولا ريب في أن إبراهيم (صلوات الله عليه) ومن ذُكر معه مدفونون داخل هذا المسوَّر. وأما تعيين موضع القبر، فالله أعلم.

قال عليّ بن أبي بكر الهرويّ: حدّثني جماعة من مشايخ بلدة الخليل أنه لما كان في زمن بردويل الملك، أنخسف موضع هذه المغارة. فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقد بَلِيَتْ أكفانهم، وهم مستندون إلى حائط، وعلى رؤوسهم قناديل. وهي مكشوفة.

فجدّد الملك أكفانهم ثم سدّ الموضع. وذلك سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. حكى ذلك شهاب الدين بن الواسطيّ. قال: وقيل أن قبر آدم ونوح وسام في المغارة. قال: والمغارة تحت هذه المغارة التي تُزار الآن. والله أعلم.

ووراء الحرم موضع فيه قبر ينسب إلى يوسف، عليه السلام. يقولون أنه لما بُني المكان، أرادوا أن يجعلوا قبره داخل الحرم. فسمع بانيه وهو سليمان (عليه السلام) قائلا يقول: دعوه خارج الحرم، فعليه خراج مصر!

ويقال إن موسى (عليه السلام) لما خرج من مصر، استصحب معه تابوت يوسف، ودفنه هناك قريبا من آبائه؛ ولم يدفنه عندهم، لما ناله من المُلك. هكذا يقال، والعهد على قائله. والله أعلم.

قلت: وهذا الحرم مؤزّر جُدُرُهُ بالرخام الملوّن والمُذْهَب. وعليه أوقاف جليلة ويُمَدّ في كلّ يوم بعد العصر سِمَاط ويفرّق فيه من الخبز على الواردين بحسبهم على قدر كفايتهم.

سماط الخليل:

ولقد زرت الخليل (صلوات الله عليه وسلامه) في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. فأخبرني جماعة المباشرين أن في بعض ليالي العشر من هذا الشهر في هذه السنة فرقوا زيادة على ثلاثة عشر ألف رغيف؛ وأن غالب أيام العام ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف. ويُفرّق أيضا مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيّب والسُّمّاق. وفي بكرة

النهار يُطبخ أيضا قدر من الدشيش، ويُفرّق على الواردين. وفي بعض أيام الأسبوع، يُطبخ ما هو أفخر من ذلك.

وله خُدّام برسم غربلة القمح وطحنه وعجينه وخبزه. لا يبطلون ليلا ولا نهار.

وأهراء القمح والطاحون والفرن، نافذ بعض ذلك إلى بعض. بحيث إن القمح يُفرّغ في الأهراء ويُخرّج خبزا مخبوزا. ولم يزل على هذا مدى الشهور والأعوام والليالي والأيام، لا ينقطع له مدد، ولا يُحصر بضبط ولا عدد.

ولما استولى الفرنج على بلد الخليل (عليه السلام) أجرَوْا هذا السّماط وزادوا على من كان قبلهم، وبالغوا في صلة هذا المعروف.

ثم زاد ملوك الإسلام في السّماط. وهو معروف يشمل المأمور والأمير، والغنيّ والفقير.

وقلت من قصيد مدحته، عليه الصلاة والسلام. [من الكامل]

هذا خليل الله إبراهيم قد	لاحت لنا أعلامه الشُمُ الذُرى
هذا الذي سنَّ القِرى لضيوفه	كرماً، ولولاه لما سُنَّ القِرى
هذا الذي مَدّ السَماط فما انطوى	ذاك السماط تكرماً، وسَلِي الورى

وقلت من أخرى: [من الخفيف]

هو ذا صاحب السّماط ولكن	صاحب الحوض نجله وذووه
ذو فناء يُقرى به كلُ ضيّف	لم يُخيّب تحت الدُجى طارقوه
مُنعِمٌ سَيّدٌ جوادٌ كَريمٌ	منذُ مدّوا سماطه ما طووه

وقلت في أخرى، حيث زرته في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة: [من الطويل]

خليلُ إله العرش أوّلُ مَن قَرى	ضُيوفا! وها قد جئتُه واستضفتُه
أتيتُ كريما لا تزال رِحابُه	مُطَبّقةً بالوفد حيثُ نظرتُه
دعت نارُه الضّيفانَ في غَسَق الدُجى	وليس سواها بارقا لَمْ شِمتُهُ
فتى الجودِ شيخُ الأنبياء جميعهم	ووالدُهم حقّا، يقيناً علمتُهُ

وقلت عند الوداع في هذه السنة: [من الكامل]

هذا الخليل وهذه أبناؤه	يكفيك بعد فراقه أنباؤهُ

هيهـات لا تُـوفي أقـلُّ حقوقـه	ولـو أن جفنـك لا يجـفُ بكـاؤهُ
فامـسك فـؤادك إن ملكـت عنانـه	هيهـات قـد طـارت بـه أهـواؤهُ
وتعـزّ عـن أهـل الكثيـب وإنمـا	مـن أيـن للـصب الكثيـب عـزاؤهُ

نطلية تميم :

قلت: وكان قدومنا هذه المرّة على الخليل (عليه السلام) يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. فبتنا ليلتنا نتبرّك بما حوت تلك القبور من العِظام العظام، ونعفّر الوجوه في تلك البقعة المُشرَّفة في مواضع أقدام أولئك الأقوام.

ثم أصبحنا وقد حَمدنا السُرى عند الصّباح، وطلبنا حوائجنا عند تلك الوجوه الصِّباح. فلما قضينا من الزيارة الأرب، وهزّتنا من النوبة الخليلية الطرَب، بعثت وراء الصاحب ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن الخليليّ التميميّ الداريّ. وهو بقية هذا البيت الجليل، والمُنتهي إليه النظر على وقف الحبيب سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وبلد أبيه إبراهيم الخليل. والتمسنا منه إحضار الكتاب الشريف النبويّ المكتتب لهم بهذه النُّطية. والمُشرَّف لهم به على سائر البرية. فأنعم بإجابة الملتَمس، وجاء به أقرب من رَجْعِ النَفَس. وهو في خرقة سوداء من مُلحَم قطن وحرير، من كُمّ الحسن أبي محمد المستضيء بالله أمير المؤمنين، وبطانتها من كتّان أبيض على تقدير كل إصبع منه ميلان أسودان، مشقوقان بميل أبيض، جُعل ضمن أكياس يضمها صُندوق من آبنوس يُلَفُ في خرقة من حرير.

والكتاب الشريف في خرقة من خُفٍّ من أدم، أظنّها من ظهر القَدَم. وقد موّه سواد الجلد على الخط، لأنّه أذهبه، وما أخفى من يد كاتبه المشرفة ما كتبه. وهو بالخط الكوفيّ المليح القويّ. فقبّلنا تلك الآثار، وتمتعنا منه بمدد الأنوار. ومعه ورقة كتبها المستضيء بنصه شاهدة لهم بمضمونه، ومزيلة لشكّ الشاكّ المُريب وظنونه: ومضمون ما كتب كهيئته وسطوره:

(نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه)

(لتميم الداريّ وإخوته في سنة تسع من الهجرة بعد منصرَفه)

(من غزوة تبوك في أدم من خف أمير المؤمنين عليّ وبخطه)

(نسخته كهيئته)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم)

(الداريّ وإخوته حبرونَ والمرطومَ)

(وبيتَ عَيْنون وبيت إبراهيم وما فيهنّ)

(نَطيةُ بتُ بذمتهم ونفَّذتُ وسلمتُ ذلك لهم)

(ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم)

(لعنه الله شهد عتيق بن أبو قحافة وعمر بن)

(الخطاب وعثمان بن عفان وكتب عليّ بن)

(بو طالب وشهد)

هذه نسخة الكتاب الشريف.

و (أبو قحافة) ألف وياء وواو ثم (قحافة) و (بو طالب) باء وواو ثم (طالب). وليس في (بو) ألف.

بُيِّن ذلك ليُعرف. و (كتب) في ذكر عليٍّ رضي الله عنه مقدّمة، و (شهد) مؤخرة. بيِّن ذلك أيضا ليعرف.

وقد رأيت ذلك كله بعيني، ومن خط المستضيء نقلت. وهو خطه المعروف المألوف. وقد رأيته وأعرفه معرفة لا أشكُ فيها ولا أرتاب. وقرأتُه من الكتاب النبوي نفسه. وهو موافق لما كتبه المستضيء، نقلا منه، على أن آثاره كانت تتعفّى، وتحتجب عن الناس لفساد الزمان وتتخفّى.

وكان التبرُك برؤية ذلك على ظهر القبو الصغير الشماليّ، في الحرم الخليليّ الملاصق لقبر زوج يعقوب (عليه السلام) المفضى منه إلى المئذنة بحضرة مخزن المدس.

وقد كنت رأيت ذلك مرة متقدّمة بالحصن سكن بني الخليليّ، بظاهر البلد، لما أتيت زائرا بعد العود من الحجّ على الدرب المصريّ في المحرّم سنة تسع وثلاثين وسبعمائة. ولكنّي إذ ذاك لم أنقله.

قبر يُونس بن متّى عليه السلام

بقرية حلحول على يسار الذاهب من بلد القدس إلى بلد الخليل عليه السلام. ويعرّج الزائر إليه. وعليه بناء وقُبّة. وله خادم.

قبر موسى بن عمران عليه السلام

وقبر موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليها الملك الظاهر بيبرس. زُرْتُهُ مرات. وآخر عهدي به في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. وكتبت على جدار القبة بيتين خطرا لي في ذلك الوقت وهما:

قبر موسى بن عمران عليه السلام بالقرب من أريحاء وتعرف القرية بشَيحانْ

رأيت بخط علاء الدين ابن الكلاّس ما صورته: (قال شيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الله بن يونس الأرمويّ عن والده قال: زرت قبر موسى (عليه السلام) الذي بالقرب من أريحاء. قال الشيخ إبراهيم: وكان إذ ذاك لم تُبنَ عليه قُبّةٌ ولا مشهد قال: فقلت في نفسي: اللهم أرني ما أزداد به يقينا في صحة هذا القبر. قال: فبيننا أنا نائم رأيتُ كأنّ القبر انشقّ وخرج منه إنسان طوال قال: فجئت إليه وسلّمت عليه، وقلت له: من أنت؟ قال. موسى بن عمران، وهذا قبري. وأشار إليه. ثم قعدنا. وإذا بالقرب منا رجل يطبخ في قدره لما استوى طعامه، وإذا هي شورباة أرز. فأكل موسى عليه السلام منه ثلاث ملاعق، وأنا ثلاث ملاعق، والرجل ثلاثا. ثم تداولناها بيننا إلى أن فرغت. قال الشيخ عبد الله: وكنت على عزم العود إلى بلاد العجم إلى عند شيخي. فقال لي موسى عليه السلام: أنت لا تسافر إلى شيخك. وكيف تسافر؟ وأنت تريد تتزوّج بامرأة من نسل الرسول وترزق منها أربعة أولاد. وأقام الشيخ إبراهيم أصابع يده اليمنى، وضم الإبهام إلى باطن كفه، يحكيه. قال الشيخ إبراهيم: فكان كما ذكر موسى عليه السلام. فلم يسافر والدي وتزوّج بامرأة شريفة، وهي أمّي. ورزق أربعة أولاد أنا أحدهم. ولما حضرته الوفاة، قلت له: يا سيدي أنت راض عني؟ فقال: كيف لا أرضى عنك، وقد بشرني بك موسى عليه السلام[333].

غزة

وغزة[334] وهي مدينة بين مصر ودمشق، بها دفن هاشم بن عبد مناف وبها ولد الشافعي رحمه الله، وهي مبنية بالحجر والكلس، مونقة البناء، على نشز عالٍ، على نحو ميل عن البحر الشامي، ذات هواء صحيح، وماء مصرفها خم، لا يستلذ، وشرب أهلها من الآبار، ولها مجمع للمطر، يدوم به ماء الشتاء، لكنه يستثقل.

(333) - وصف الخليل وقبري يونس وموسى عليهما السلام يرد في مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج1 ص 125- 132.

(334) - وصف غزة والرملة يرد في - مسالك الأبصار، طبعة سيزكين ج3 ص 280- 286

ولها فواكه كثيرة أجلها العنب والتين وبها مرستان بناه هذا السلطان أثابه الله لحوج ما كانت المارة إليه في مكانه، وبها من المدارس والترب (ما ازدانت به)، وهي نيابة جليلة، وبها طائفة من العسكر والعرب والتركمان.

وهي آخذة من البر والبحر جانبيها متصلة بتيه بني إسرائيل، من قبليها موضع زرع وماشية، وموضع مجمع حاضرة وبادية، وقرارية أهلها عُشر، وإن بعضهم عدو لبعض لولا مهابة الدولة لما خمدت فيها نار، ولا ألم فيها بالجفون غرار، لا يطمئن فيها ساكن، ولا يستقر ظاهر ولا باطن.

فائدة جليلة تتعلق بذكر غزة

قالوا يجوز أن يكون اسمها مأخوذاً من الغز والغز الشّدّقُ وهما غزّان سميت بذلك لأنها في فم الشام مما يلي شقة البحر، ويكون مأخوذاً من قول العرب أغزت البقرة فهي مغز إذا عسر حملها سميت بذلك لعسر السير إليها على الناس والدواب للرمل المتاخم لها، وتعرف في القديم بغزة هاشم، سميت بهاشم ابن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليها كانت رحلة قريش هي إحدى الرحلتين المذكورة في القرآن، رحلة الشتاء والصيف وهي الصفية منها، وكان عليها حصن منيع قد بقيت منه بقية إلى الآن هدمته قيس، لما جاء إليها بعض قبائل اليمن وفيها يقول أبو عامر السلمي في قصيدته المسماة بالذاهبة وهي ثلاثمائة بيت يهجو بها اليمن ويذكر مثالبهم في القرآن والأخبار، ويذكر مناقب قريش: [من الوافر]

ونحــن الموقــدون علــى حــروري ونحــن لحــصن غــزة هادمونــا

وفي غزة قبر هاشم بن عبد مناف، وبذلك قيل لها غزة هاشم، وهاشم أول من مات من بني عبد مناف، وكانوا أربعة أخوة؛ هاشم هذا وقبره بغزة، ثم مات بعده أخوه عبد شمس وقبره بمكة بالحجوان، ثم مات بعده أخوهما نوفل بطريق العراق بموضع يقال لها سلمان وقبره هناك، ثم مات بعده أخوه المطلب بأرض اليمن في موضع يقال له ردمان وقبره هناك، فهؤلاء بنو عبد مناف الأربعة.

تتمة، في ذكر سبب سفرهم الموجب لموت من مات منهم غريباً:

اتفقوا على أنه كان لعبد مناف خمسة بنين وهم سادة قريش كلها هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس، وأبو عمرو مات صبياً ولم يكن له خبر مع إخوته، وكانت العرب

وقريش كلها تسمى بني عبد مناف هؤلاء الأربعة فضاح النضار لشرفهم وجمالهم وبهائهم، وكانت قريش كثيرة التجارة إلا أنهم كانوا لا يخرجون من مكة والحجاز، وكانت الأعاجم تأتيهم بالبضائع فيشترون منهم ويبيعونهم، فأقاموا على ذلك زماناً طويلاً حتى ركب هاشم بن عبد مناف فخرج إلى الشام فنزل بقيصر ملك الروم.

واسم هاشم يومئذٍ عُمر العلي، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنه ثريد ويجعل اللحم عليها أوصالاً، ويدعو من حوله فيأكلون معه، وكان هاشم من أحسن الناس وجهاً، وأكرمهم أخلاقاً، فقيل لقيصر ها هنا رجل قريش يهشم الخبز، ويصب عليه المرق ويجعل عليه اللحم، وإنما كانت العجم تجعل المرق في صحاف واللحم في المرق ويأتدمون بذلك، ولم يكونوا رأوا الثريد فسمى هاشماً بهشيم الثريد، وفيه يقول شاعرهم بمكة: [من الكامل]

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وهذا أول من فعله من العرب والعجم، فدعاه قيصر، فلما رآه وكلمه، أعجبه إعجاباً عظيماً، فقال له هاشم: أيها الملك إن لي قوماً هم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم فيه على أنفسهم وما معهم من المال والبضائع وغير ذلك فإنهم يقدمون عليك بما تستظرفه من أدم الحجاز وثمره وغير ذلك مما يصير إليهم ولا يبلغك من طرف البلاد، فأمر أن يكتب له كتاب جامع للعرب، وأخذه هاشم وسار فصار كلما جاء حياً من أحياء العرب على طريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً، والإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم على أنفسهم وأموالهم، وأخذ هاشم الإيلاف من جميع القبال ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بشيء لم يأتهم بمثله أحد قط فسُروا بذلك سروراً عظيماً، وخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يحوطهم ويؤمنهم ويجمع بينهم وبين رؤساء العرب في جميع طريقهم حتى ورد بهم الشام فأحلهم غزة ومات هاشم في ذلك السفر، فدفن بغزة.

ثم خرج أخوه المطلب إلى اليمن ففعل كفعل هاشم بالشام، وأخذ من ملوك اليمن عهداً لمن يجيء ويسافر إليهم من قريش، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن يمر به من العرب حتى أتى مكة كما فعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفيض لكرمه وهلك عبد المطلب بردمان من أرض اليمن في سفرة سافرها.

وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة فأخذ منه كتاباً وعهداً لمن يجيء من قريش، ورجع يأخذ الإيلاف من كل من مر به من العرب من بلاد الحبشة إلى أن أتى مكة كما فعل هاشم والمطلب، فمات بمكة وقبره بالحجون، وكان أكبر من هاشم.

وخرج نوفل بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان أصغر من إخوته إلى العراق، فأخذ عهداً من كسرى، ثم عاد يأخذ الإيلاف إلى أن أتى مكة، ثم رجع تاجراً إلى العراق، فمات بسلمان في طريق العراق.

تنبيه:

البيت المقدم ذكره اختلف فيه، وأصح الروايات أنه لابن الزيمري، والزيمرى في اللغة التعبير اللازب الكثير شعر الأذنين والرأس، وفيه قصر وغلظ، وهو من قصيدة له في هاشم وإخوته على أقواء في البيت الآخر منها وهي: [من الكامل]

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا مررت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو مررت بدارهم	لجموك من جوع ومن اقراف[335]
المطعمون إذا الرياح تناوحت	والظاعنون لرحلة الإيلاف
والآخذون العهد من أكفافها	والناهشون لمقدم الأضياف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مُسنتون عجاف

الرملة :

قلت: وهذه خاتمة في ذكر الرملة[336]، جر الكلام إليها قربها من غزة، يقال إن الذي أحدثها سليمان بن عبد الملك بن مروان، وأن مدينة فلسطين كانت قبلها له، وأن سليمان وليها من قبل أبيه، وهو صبي، وكان معه من قبل أبيه من يدبره، ويشير عليه، والاسم في الإمارة لسليمان، وكان إلى جانب كنيسة لد بستان، حسن العمارة مليح الموضع، كثير الفواكه، وكان سليمان كثيراً ما يستحسنه، ويجلس فيه، ويستطيبه، فقال يوماً للشيخ الذي يرجع إلى رأيه، وكان يسمى رجاء بن حيوة: أحب أن تشتري لي هذا البستان حتى أنني فيه من الأبنية ما يصلح لثلثا، فكان البستان للقسيس الذي يتولى أمر الكنيسة، وأحضره رجاء وقال له ذلك فقال: سمعاً وطاعةً أحضرني القاضي والشهود حتى أشهد على نفسي بذلك، وأفرغ منه الساعة، فأحضرهم وحضر القسيس فقال لهم جميعاً: ألستم تعلمون أن هذا البستان لي، وفي ملكي ويدي، لا مانع لي ولا معارض لي فيه؟، فقال له القاضي

---

(335) - الأقراف اوعية من جلد مدبوغ يوضع فيه اللحم المطبوخ بالتوابل (القاموس المحيط)

(336) - من المستغرب جداً أن لايعرف محقق هذا الجزء من موسوعة مسالك الأبصار اسم مدينة الرملة عاصمة جند فلسطين، وأن يصر على كتابتها الرحلة بالحاء المهملة، وكأنه لم يسمع بها مطلقاً علماً بأن العبارة واضحة لاشك فيها في المخطوط الذي صوره فؤاد سيزكين، واعتمده المحقق الدكتور عبد القادر الشاذلي

والشهود: نعم؛ يريدون بذلك تصحيح الملك، ليصح البيع، فقال لهم: أشهدوا الآن أنى قد حبسته على الكنيسة حبساً تبتلاً لا رجعة لي ولا مثنوية فيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فسقط في أيديهم وتم مكره، وعظم ذلك على من حضر، وهم سليمان بقتله، فمنعه من ذلك رجاء، ورفق به وشاغله، وقال له: سر بنا نتفرج ونبرم أمراً يكون فيه هلاك الكنيسة وغيرها، فركبا، وأمر سليمان أن لا يتبعهما أحد، فلما فصلا من لدِ رأيا بيتاً من الشعر مضروباً على ربوة من الأرض هي الآن موضع المصلى، وكان الحر قد اشتد.

قال له رجاء أعدل بنا إلى هذا البيت لتنظر من به، ونريح فيه إلى أن يبرد النهار، فقربا من البيت، وسلما على من فيه وهما لا يريان أحداً، فبرزت لهما منه امرأة ذات برقع ردت عليهما السلام بأحسن رد ولفظ، وسألتهما النزول عندها بلسان فصيح وعزم صحيح، فنزلا، وسألتهما أن يتخففا ويستريحا عندها، وأعجبهما فعلها، ونسى سليمان أمر البستان إعجاباً بكرمها وعقلها، وسألاها عن اسمها فقالت: رملة وعرفتهما أن لها بملأ في ماشية اسمه لدّ، وعرضت عليهما الغداء واللبن، وقالت عندي اللبن الحلو واللبن الحامض والخبز الحار والخبز البارد، لأن إيثاري يخالف إيثار بعلي في الطعام، وأنا أعد له ما يؤثر، وأعد لنفسي ما أشتهيه، وقدمت لهما في كل شيء من ذلك، وتردّت[337] لهما، وقد ذهلا من حسنها وجمالها وأدبها وحسن فعلها في جميع ما تحاوله، وأقسمت عليهما ليأكلان، وقالت: لو جاز لي أن آكل معكما لفعلت، والطعام يدعو الكرام إلى نفسه، فأكلا ونظرا إلى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك، فاستحسنا الموضع، وإشرافه على ما حوله من العمارة.

فقال رجاء لسليمان: لو أمرت ببناء ديرها هنا للنصارى ومسجد للمسلمين، وأمرت في النداء بالناس من أحب أن يكون في حمًى من المسلمين والنصارى، فليبن داراً إلى جنب مسجده وديره، لصارت مدينة، ولتعطلت الكنيسة بالدير، وهذا الموضع أحسن من موضع لد، وأعلى، ففعل ذلك، وتبادر الناس من كل حدبٍ من المسلمين والنصارى يحيطون المنازل والقصور على قدر هممهم ونعمهم.

وكان سليمان خط مسجداً صغيراً وداراً للإمارة لطيفة، فقال له رجاء: غيّر هذا فإنها ستكون مدينة عظيمة فخط مسجداً عظيماً كبيراً وداراً واسعة، وهو هذا الجامع، وهذه الدار المعروفة بدار الإمارة.

---

[337] - تردت لهما: أي لبست الرداء المناسب لاستقبالها.

ثم أن سليمان أراد هدم الكنيسة وأخذ رخامها وعمدها للجامع فراجعه رجاء عند ذلك، وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل القسيس من غدره ومكره وما فعلاه من بناء المدينة والجامع، وكتب عبد الملك إلى ملك الروم وكان الإسلام في ذلك الوقت ظاهراً على الروم، فأنقذ ملك الروم إلى عبد الملك من دله على موضع أخرج منه عمداً لم ير مثلها في الاعتدال والحسن، وأخرج معهما رخاماً منشوراً، وغير منشور ما كفى الجامع وفضل عنه.

يقال إنه كان في ضيعة من الداروم، داروم وغزة، يقال لها عمودَ، وكان أكثر ما نال النصارى من ذلك أن ملك الروم ألزمهم نقل العُمد والرخام من عمود إلى الجامع وسميت المدينة الرملة باسم المرأة المقدم ذكرها، وأحسن سليمان إليها وإلى بعلها .

مملكة صفد بعد خروج الداوية

يعد كتاب (تاريخ صفد) الذي صنفه القاضي شمس الدين العثماني المتوفى سنة 780 هـ، 1378، من التراث العربي المفقود، ولم تصلنا منه سوى بضع صفحات، نشرها المستشرق الانكليزي برنارد لويس في مجلة معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية[338]، ولكننا نقرأ اقتباسات مأخوذة عنه في موسوعة (صبح الأعشى) للقلقشندي.

ولكننا سمعنا أخيراً [2008م] أن الدكتور سهيل زكار عثر على مخطوطة الكتاب، وهو عازم على تحقيقها ونشرها خلال عام 2009م، ولعمري إنه خبر يدخل البهجة إلى النفس.

وواضع هذا المصنف هو محمد بن عبد الرحمن الدمشقي العثماني شمس الدين أبو عبد الله الشافعي المعروف بقاضي صفد.

ذكر البابانى في (هدية العارفين) أن من تصانيفه (رحمة الأمة في اختلاف الأئمة) و(طبقات الشافعية) التي فرغ منها سنة 780هـ، 1378م. وذكره ابن قاضي شهبة في ترجمة شقيقه مفتي صفد علي بن عبد الرحمن بن الحسين شرف الدين العثماني الصفدي، حيث قال هو (أخو القاضي شمس الدين العثماني قاضي صفد، وصاحب طبقات الفقهاء المحشوة بالأوهام، وتأريخ صفد وغيرهما).

كما ذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون) كتاب (تاريخ صفد) للقاضي شمس الدين العثماني قاضي صفد، ونقل عن ابن حجي أنه لا ينبغي أن يعتمد على نقله لغفلة فيه[339]. وهذا معظم ما ورد حول ترجمة مؤرخنا.

يلقي كتاب (تاريخ صفد) الضوء على مملكة صفد التي أحدثها الظاهر بيبرس بعد تحريرها عام 664هـ، 1266م من أيدي فرسان الهيكل(الداوية)، حيث شملت عدداً من الأعمال بلغت عشرة، وكانت تضم جميع مناطق شمال فلسطين، الجليل بكل أقسامه بدءاً

---

[338]- B.Lewis, (An Arabic Account of the Province of Safad), Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XV.PP.477-487.

[339] - كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة الشهير بكاتب جلبي، طبعة دار الفكر، دمشق 1982.

من جسر الصنبرة عند ملتقى نهري اليرموك والأردن، امتداداً إلى مرج ابن عامر وحتى قيسارية جنوباً على ساحل البحر المتوسط. وشمالاً صور وجبل عامل ومرجعيون، وغرباً البحر المتوسط، وشرقاً نهر الأردن إضافة إلى الجزء الجنوبي من الجولان أسفل جسر يعقوب وحتى منطقة الزوية الغربية.

وقد أسهب العثماني في وصف هذه الأعمال وتعداد أقسامها، نظراً لكونه عمل قاضياً فيها، ولكننا استطعنا أن نلمس اقتباسات لم يشر إليها في متن نصه من شيخ الربوة، الذي سبقه بنحو نصف قرن.

وعموماً يضيء هذا الجزء من كتاب قاضي صفد جوانب معتمة في تاريخ هذا الجزء من فلسطين، والذي أهمله الرحالة والبلدانيون قبل ذلك.

اعتمدنا في هذا الفصل من الكتاب على قطعة التاريخ التي نشرها برنارد لويس، المشار إليه آنفاً، وقد شرحنا بعض العبارات وصوبنا بعضها الآخر مما لم ينتبه له المستشرق لويس، حيث أبقينا على هوامشه التي وضعها للنص المنشور وهي المعروضة على يسار الصفحة اما هوامشنا فهي على يمن الصفحة.

قطعة من تاريخ صفد للعثماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحكم الوجود وأتقنه، ونقل آدم إلى الأرض وأسكنه، وبثّ ذرّيّته فيها، ونشرهم عليها، فكلّما مضى منهم قرن وذهب، خلفه غيرُه ووقب، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ومن جملة حكم الله تعالى التاريخ الموضوع لحفظ الأمم، ومعرفة من غبر منهم ونجم، وما مرّ من الأعوام، وتصرّم من الأنام[340]، تبصرةً لمن ادكر، وعبرة لمن اعتبر.

أحمده على ما منح من الفضل، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة ادّخرها ليوم الفصل، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله الحاشر العاقب، صلى الله عليه وآله وصحبه الغُرّ أولي المناقب.

أمّا بعد..

فهذه فائدة مستظرفة، وتحفة مستطرفة، تشتمل على تاريخ مدينة صفد، ممّا لم يسبق إلى تدوين ذلك أحد، نقلت بها أموراً مجملة، لعدم الظفر بها مفصّلة، إذا فتح باب في أمر لم يتيسّر لفاتحه الأقلُ من كُثُر، ثُمّ يتتبّعه أهل الفضل، وينمقونه بغرائب النقل.

وكان السببَ في تأليفها، والباعث على تصنيفها، مذاكرةٌ حصلت في ضبط نُوّابها، اقتضت تعليق هذه الفائدة وفتح بابها، بين يدي من جعله الله تعالى في محبّة العلم الشريف وأهله علَماً. ووهبه من فضله سيفاً وقلماً، ومنحه اليمن في آرائه وتدبيره، وقرن السعادة بسفور أساريره، عمّ هذه المملكة بفضله وإنعامه، وزيّنها في المجالس بوجهه؛ كما شرّفها بوطء أقدامه، وأثّر فيها آثاراً محمودة، واستضاء حكامُها في مهمّاتهم بآرائه السعيدة.

سُئل أن ينوب فأناب، فظهر من حسن سيرته ما سرّ أولي الألباب، وكان طول ليله في الحراسة، وجميع نهاره في السياسة، مع المواظبة على أوراده، والملازمة لاجتهاده.

---

(340) - Margin. Text has الأيام

شعر: [من الطويل]

فيا ليت أنّ الله أسعد خلقه فصيّره طولَ الزمان ينوب

المقرّ الأشرف السيفيّ علمدار[341]، بلّغه الله جميع الأوطار.

فذكرت فتحها أوّلا إلى أن فتحت عكّا وتمدّنت صفد، وتوطّن أهلها وزال النصب والنكد، ثمّ أذكر النوّاب على محجّة حسنة، إلى آخر سنة أربع وستّين مدّةً مائة سنة، ثمّ أذكر أرباب الوظائف الدينية على هذا المنوال، من القضاة والخطباء ووكلاء بيت المال، ثمّ أذكر من أرباب الوظائف الديوانية من يفتقر إليه في انتظام الأمور، من كتّاب السرّ ونظر المال والجيش المنصور، من أوّل الفتح إلى آخر المدّة على الولاء.

ولم يتيسّر لي غير ذكر هؤلاء، لكنّي أذكر بعد الفراغ من هؤلاء المذكورين، فصلاً لبيان الأعيان من الصفديين، ثمّ ابتدئ التأريخ مفصّلاً بالسنين، على عادة المؤرخين، من استقبال سنة خمس وستّين، واختصر في مقالي، لاشتغالي بمهمّات أحوالي.

مدينة صفد

أمّا صفد نفسها فحصن منيع بقُنّة جبل كنعان، كان قديماً قريةً، فبنُي مكانها هذا الحصن وهو صفد، ولذلك معنيان أحدهما أنّ الصفد العطيّة، وهذا هو المناسب لتسميتها عند الفرنج لأمرين: أحدهما أنّ ملوك الفرنج[342] أعطوها لطائفة يقال لها الداوية[343] لا يشاركهم فيها أحد فسمّوها لذلك صفد.

الثاني أنّهم سمّوها أيضاً صفت بالتاء، فلما وُصفت بالصفاء، صلحت للعطاء.

المعنى الثاني أنّ الصفد الغلّ [من] قوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[344] أي في الأغلال.

وقد يكون لهذا الاسم مناسبة ما، لأنّ صاحب الغلّ يمتنع من الحركة ويلزم موضعَه، وهذه المدينة كذلك، لأنّها جبل عالٍ وَعْر لا يتمكّن ساكنها من الحركة كلّ وقت، إن ركب تعب، وإن مشى على قدمه، اختلط لحمه بدمه، لصعود الربوة، وهبوط الوهدة،

---

[341] - ذكر ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في أحداث السنة التاسعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر، وهي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة انه توفي بها الأمير مظفر الدين موسى ابن الحاج ارقطاي الناصري نائب صفد وتولى عوضه نيابة صفد الأمير علم دار المحمدي

[342] Margin. Text has الإفرنج .

[343] Q 194 الدموية should be amended.

[344] - سورة إبراهيم، الآية 49

فهي لعلوّها أعظم مشترف، فضياع الحركة فيها من السرف، ويستقرّ ساكنها بأيّ مكان كان، ويقنع فيها بالنظر وشتّان.

واعلم أنها لطيفة الهواء، طيبة الماء، لها منظر بهيج، ومشترف أريج، لاسيما في أيام البيع، فلها رونق بديع، ومن أبيات لشيخنا قاضي القضاة جمال الدين التبريزي[345] رحمه الله تعالى: [مجزوء الكامل]

لما قضى الفرد الصمد ... أنّي أسير إلى صفدْ

فدخلتُها متيمّناً ... فوجدتها نعم البلد

ورأيت منظرها الذي ... يشفي العيون من الرمد

وهواؤها مع مائها ... فاصحّ شيء للجسد

يا حسنها لو لم يكن ... للناس مَوردُها ثمد

والله يعلم ليس لي ... بفراق عجلونٍ جلد

واهَيْلُها في مهجتي ... كلّ أعزّ من الولد

جمر اشتياقي نحوهم ... بشغاف قلبي قد وقد

وفي الجملة فهي أبيات طويلة لا ضرورة إلى إيراد ما بقى منها، وقوله: «موردها ثمد» يشير إلى قلّة مائها، وكان ذلك قديماً في أيّامه، وأمّا الآن فقد كثر ماؤها وتجدّد بها آبار وعيون.

قال القاضي الفاضل شهاب الدين أحمد شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري[346] صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية في تأريخه المسمّى

---

[345] - هو عبد القاهر بن محمد ابن عبد الواحد بن موسى القاضي الأديب الخطيب الشافعي جمال الدين ابو بكر البخاري ثم التبريزي كان ذا شكالة وعمه، وحركات وعمة، ابيض اللحية نقيها، احمر الوجنة وربيها، عليه قبول، وللنفس إليه تشوق وبه ذهول، مغرى بالأدب، موفر الهمة في تحصيله والطلب، يشعر مثل الصبا إذا هبت، والقطر إذا نبت، وينثر الدر من فيه نثراً، ويكتب الرقعة كأن صغرى وكبرى، لم تخرج تبريز مثل كلمة الإبريز. تولى القضاء بسلمية وعجلون، وقضاء القضاة بصفد، وختم ذلك بقضاء دمياط، وأقام بها إلى ان جاءه الأمر الذي لا يدفع بالأعلاط وتوفي رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة اربعين وسبع مئة ومولده بحران سنة ثمان واربعين وست مئة [أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي]

[346] - ابو العباس شهاب الدين احمد بن فضل الله بن يحيى بن احمد العمري ولد في دمشق سنة 700هـ و تلقى بها تعليمه وبرع في الكتابة وفنونها والعلوم، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذهب إلى القاهرة وتقلد رئاسة ديوان الإنشاء وكان له الفضل في الكثير من الدراسات و قد عني العمري بدراسة الجغرافية السياسية، و درس تواريخ الأمم و عجائبها، و درس الفلك، و تجول في البلاد من الشام إلى الحجاز و الأناضول و غيرها من بلاد الأرض و قد تبوأ

مسالك الأبصار، وهو سبعة وعشرون مجلّداً: وصفد مدينة صحيحة الهواء، خفيفة الماء، لها عين لو أنّها دمع لما بلّت الآماق، ولا ملأت الأحداق، ولها حمّامات يأنف أهلها من دخولها لقلّة مائها، وسوء بنائها، ولها قلعة قلّ أن يوجد لها شبيه، كأنّما عليها من الذهب تمويه، لا تروم السحب إلاّ من ضبب، ويطوف عليها من الشفق مدام عليه من مواقع النجوم حبَب، ولا تجاوز الأرض إلاّ وهي إذا رامت السماء لا يعوقها سبب، ولمّا فتحها الملك الظاهر عظّمها وهي تستحقّ التعظيم، وتستوجب الرفعة بما رفع الله من بنائها العظيم، وقد ذكرها ابن الواسطي الكاتب[347] فقال: وقلعة صفد بنتها الفرنج، وكانت أوّلاً تَلاً عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم، بنتها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

[أعمال صفد]

ولصفد عشرة أعمال، لكلّ عمل قاضٍ ووالٍ:

الأول . عمل المدينة :

ويسمّى الزنّار لإحاطته بالمدينة من كلّ جانب، وبهذا العمل الخيط يشبه أرض العراق يزرع فيه الأرز والبطّيخ، ومغلّه جيّد وأرضه مثل العنبر، وبه بحيرة قَدَس، يوجد فيها النيلوفر والسمك المليح والبابير، وهو نبت يُعمل منه الحصُر.

وبه قصر يعقوب عليه السلام وهو بيت الأحزان، وجُبّ يوسف عليه السلام، وبهذا العمل قرية تسمّى ميرون بها نواويس وأحواض في مغارة يرشح فيها[348] الماء قليلاً قليلاً، فإذا كان يوم معلوم من السنة وهو نصف أيار اليهود، اجتمع إليها خلق من اليهود من البلاد القريبة والبعيدة، وأقاموا حول ذلك المكان نهارَهم، ويرشح الماء في ذلك النهار أكثر من عادته، وتحمل اليهود من ذلك الماء إلى البلاد البعيدة.

العمري منزلة عظيمة، و نال حظوة لدى الملك الناصر، حتى وافته المنية في القاهرة سنة 749هـ دون أن يبلغ الخمسين من اشهر مؤلفاته مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، والتعريف بالمصطلح الشريف

[347] - جاء في كتاب السلوك للمقريزي في احداث سنة 706 ان شهاب الدين غازي بن احمد بن الواسطي نقل من نظر الدولة ومعه تاج الدين عبد الرحيم بن السنهوري إلى نظر حلب وهو كاتب الدولة في عهد الناصر محمد بن قلاوون ولكن ما يثير الشكوك في نسبة هذا القول لابن الواسطي المذكور هو وجود هذا النص ربما بحرفيته لدى ابن شداد الذي نشرنا نصه في كتابنا هذا، ومعروف أن ابن شداد معاصر للظاهر بيبرس وللأشرف قلاوون وتوفي عام 684هجري

[348] Thus the text. Margin amends to فيهم.

وبالقرب من صفد بوادي دلبيّة[349] عين الجنّ تفور من الأرض وتجري مقدار ساعة ثمّ تنقطع ويذهب ماؤها، ثمّ تجري حتّى تصير نهراً ثم تنقطع، ثم تجري في النهار مرّات، هذا دأبها دائماً، واعتقاد العوامّ أنّ الماء إذا انقطع وقالوا: «يا مسعود عطشنا» يخرج الماء.

العمل الثاني ، بلاد الشقيف والنحارير ومرج العيون :

وهي أكبر أعمال صفد وأصحّها وأطيبها، وبها قرى عظيمة، وبلادها عامرة، وبها قلعة حصينة لطيفة عامرة حسنة البناء، وبالقرب منها تربة الشرفى من أحسن الأماكن وأنزهها، وهذه القلعة فتحها الملك الظاهر.

ونهر ليطة[350] يمرّ تحت جبلها، وهو من الأنهار العظام، وبهذه المعاملة قلعة هونين على حجر واحد، وببلاد الشقيف أشياء لطيفة: منها العسل ومنها المنّ ومنها البنفسج [؟] ومنها الفخّار ومنها الجوز الفَركة، ومنها الحديد ومنها الخشب الصنوبر والسنديان السواد. وبها[351] تراب الجبر[352] يعمل منه كيزان يُجبّر منها الكسر في الآدميين والخيل والطير إذا شُرب.

وتحمل إلى البلدان البعيدة، وبها قرية ثول بها عين يخرج منها سمك صغار إذا أُخذ منه في شهر شباط واستُعمل الذكر منه. وله علامة. نفع في الباه نفعاً عظيماً، وهذا السمك ذكره الأطباء في كتبهم وعبروا عنه بسمكة صيدا، وقالوا هو بقرية من قراها، ولكن القرية اليوم من عمل الشقيف. قالوا أجود ما يصاد في منتصف[353] شباط[354] قالوا: وهو صنف من صغار السمك يشبه الوزغ، حارّ عظيم في تهييج شهوة الجماع وشدّة الانّعاظ جداً حتى لا يطيق مستعمله الصبر عن الجماع لشدة الشهوة وقوّة توتير القضيب. قالوا: ومقدار ما يؤخذ منه إلى[355] مثقال مدقوق مضروب في عسل.

قال الشيخ فتح الدين في كتاب الجواهر[356]: حكى لي مستعملها أنّه في ليلته لم ينم

---

(349) D 118 دلبية and Q75 دلسة Should be amended.

(350) MS. لطية .

(351) Q 75 وبقرية عياض.

(352) Q 75 الجبر .

(353) Margin. Text has نصف.

(354) Ms. اشباط.

(355) Added in margin.

(356) - جاء في طبقات الأطباء لابن ابي اصيبعة [الباب الرابع عشر طبقات الأطباء المشهورين من اطباء ديار مَصر] ان فتح الدين بن جمال الدين بن ابي الحواقر، كان مثل ابيه جمال الدين في العلم والفضل والنباهة نزيه النفس صائب

لحاجته إلى تكرار الجماع، وأنّه لم يزل يكرّر الفعل إلى أن أنزل الدم عوضاً عن المني، ودام عليه مع ذلك توتير القضيب حتّى كان يحسّ بعروقه تتقطّع لشدة انتصابه.

قال: فعالجته بأقراص الكافور والأغذية المبرّدة كالبطّيخ الأخضر والخيار والخسّ وما شاكلها ثلاثة أيام حتى سكن ما به، وهذا السمك وكيزان الجبر يحمل إلى البلاد، وبها قرية بكوزا يوجد بها عنب كبار في داخل العنبة عنبة، وفيها قرية عدشيت[357] [حدشيت]بها شجرة بلوط توجد البلوطة على الشجرة تصفها[358] حجر إذا أُخذ منه وسحق واستعمل نفع من حصار البول، وبقلعتها ينبت في الحيطان نبات به زهرة حمراء تشبه رأس الكلب وفم الحيّة إذا أكل منها بالعسل أبرأت من الكَلَب ولَدْغ الحيّة، وغالب سكان هذا العمل شيعة، لا جمعة ولا جماعة.

العمل الثالث : بلاد تبنين :

وهي بالقرب من الشقيف في المجاورة والصحّة، وبها آثار حصون عظيمة وهي من أعمر البلاد الصفديّة، بها قرية يقال لها كونين [هونين] [بها] جماعة من التجّار والأغنياء، وبهذا العمل جماعة من مشائخ الشيعة وجميع أهلها شيعة، وبه قرية عشرون[359]، بها جُبن يُعدّ من طُرَف الهدايا.

العمل الرابع : ولاية صُور :

وصور بلد قديم بعضه في البرّ وبعضه في البحر، وبناؤه من أعظم أبنية الدنيا، وبه الكنيسة التي لا نظير لها، وبهذه الكنيسة عامود[360] سماقي رخام عظيم، يُذكَر أنه لا يتملّك أحد من الفرنج حتّى يجلس عليه وهذا أمر مشهور.

وبالقرب من صور قناة عظيمة قديمة لا يُعرف خبرها وهي من عجائب الدنيا بالقرب من البحر المالح وماؤها عذب فرات ينبع من الأرض ثم يرتفع في بناء محكم

الحدس اعلم الناس بمعرفة الأمراض وتحقيق الأسباب والأعراض حسن العلاج والمداواة لطيف التدبير والمدارة عالي الهمة كثير المروءة فصيح اللسان كثير الإحسان وخدم بصناعة الطب الملك الكامل محمد بن ابي بكر بن ايوب وبعد الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل محمد وتوفي رحمه الله في ايامه بالقاهرة [ت خ]

[357] Q 75 صدهيب.

[358] Q 75 حضنها.

[359] - تسمى الآن عيترون

[360] Margin. Text has عمود.

قامات كثيرة بزخم عظيم، فإذا انتهى إلى أعلى البناء خرج في[361] القناة المذكورة نهر عظيم يزرع عليه أرز وقصب وبساتين، ويدور منه طواحين ومعصرة وحمّام، ثم ما فاض منها دخل[362] البحر.

وبها قرية رشمون بها غابة زيتون يضرب بها الأمثال، تسكن بها الوحوش لسعتها وغزارتها، وعلى ذلك كلّه سور محكم من أيّام الروم، وهذا الزيتون مُقطع للجند بأخْبَاز[363] في الحلْقة المنصورة.

العمل الخامس، ولاية عكا:

وعكّا بناها عبد الملك بن مروان ثمّ غلبت النصارى عليها، ثمّ فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ثمّ غلبت عليها النصارى، ثم فتحها الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون، وفتح صور وحيفا وعثليث واسكندرونة[364] وصيدا وبيروت وجبيل، كل ذلك في سبعة وأربعين يوماً.

وعكّا أعظم مدائن الفرنج بالبر والبحر على ما نقل جماعة من الفرنج، وهي عزيزة عليهم يتأسّفون عليها إلى آخر الدهر، بها العمائر العجيبة، منها كنيسة البنات التي يضرب بها الأمثال، وبها عين البقر التي ورد فيها الأثر، جاء أنّ من شرب من أربعة أعين لم تمسّ النار جسده: عين زمزم التي بمكّة، وعين سلوان التي ببيت المقدس، وعين البقر التي بعكّا، وعين الفلوس التي ببيسان، فلا بأس بالشرب منها والاغتسال فيها.

وبعكّا مسجد صالح عليه السلام من المزارات المشهورة، وكذلك الرملة البيضاء، وكذلك الجامع العمري الذي يظهر فيه النور في ليالي الجمع، وبها مقابر الشهداء.

وبعمل عكّا قرية كابول بها مشهد أولاد يعقوب عليه السلام من المزارات المشهورة، وبقرية عانين قبر الإسكندر. والقطن ببلادها يفضل على قطن كثير من البلاد ويُرغَب فيه.

وبعكّا ميناء يقصدها تجار الفرنج بالبضائع . ويُعَبُّون[365] منها القطن . تُضمَّن بخمسين ألف درهم.

---

(361) [sic] l. من?

(362) [sic] l. يدخل?

(363) - جمع خُبُز وهو المكان المنخفض المطمئن من الأرض والمعنى جعلت ارض الزيتون إقطاعات وقسمت بين الجند

(364) Thus D 213. MS. واسكندوريه.

(365) MS. ويعبّوا.

وبِبلاد عكّا الوقف الأشرفي والوقف المنصوري [و] عدّة قُرى وقف على البيمارستان بمصر.

وبِبلاد عكّا أنواع من التين المليح الذي يُرغَب فيه، وبطّيخ أصفر سلطاني.

العمل السادس، ولاية عَثليث:

وهي بلاد مباركة، وبها جبل الكرمل من المزارات وإليه يُنسب العسل الكرملي الذي يُرغَب فيه، وبهذه الولاية بحرة صغيرة بقرب قيسارية يوجد بها التماسيح ويتخوّف الناس منها.

وبها قريتان حسنتان[366]، بهما فواكه وخيرات وهما الطيرة والسوامر، وتتصل بلادها بقاقون وهي آخر البلاد الصفدية طولاً.

العمل السابع، مرج بني عامر:

وبه ولايتان: اللجّون وجنين[367]، فاللجّون بلد قديم، وهو قاعدة المرج وهو من عشير يمن، وكذلك جميع مرج بني عامر، وبه مقام الخليل إبراهيم عليه السلام من المزارات، وبه مصطبة السلطان، وخان سبيل يأوي إليه المسافرون.

وأمّا جنين[368] فبلد قديم أيضاً، وبه خانٌ سبيل عظيم الشأن لا يكاد يوجد مثله في الحسن وكثرة المياه، وبه سوق كبير.

وبالمرج قرى أمهات هي عمدة البلاد الصفدية في الغلات كزَرْعين والفولة [العفولة] ولها قلعة حسنة، وبجنين وجبلها مقام دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنه من المزارات المقصودة، وبجنين مركز بريد درب الشام ومصر لا يكاد يخلو من البريديّة، وفي كلّ يوم يمرّ على جنين[369] من التجار والمسافرين أنواع كثيرة:

العمل الثامن، ولاية الناصرة:

وهي بلاد مباركة وأهلُها منسوبون إلى الخير والدين، والناصرة بلد قديمة عبرانية تسمّى ساعير وهي مذكورة في التوراة، وقال إن المسيح عيسى بن مريم صلى

---

[366] [sic].

[367] MS. جينين.

[368] MS. جينين.

[369] MS. جينين.

الله عليه وسلم ظهر منها ونشأ فيها ونصره الحواريون بها ولذلك سميت بالناصرة، وبها حمّام قديم به جُرن كبير يقال إن عيسى صلى الله عليه وسلم اغتسل منه، والمقام الذي هو موضع البشارة . لأمّه عليها السلام من المَلَك عليه السلام[370] بعيسى عليه السلام . يُقصَد للزيارة، وبه جماعة من الرهبان وعبّاد النصارى يتعبدون فيه، وبالكنيسة التي تحت جامعها عمودان كبيران، وقد عُمل المكان زاوية المقام للفقراء الأحمدية، فإذا حصل به اجتماع وعمل فيه سماع للفقراء عرق العمود حتّى يظهر البلّل فيه.

وللنصارى اعتقاد في ذلك العمود، كلّ من قصده منهم اجتهد أني أخذُ من العمود شيئاً، وأهل الناصرة كانوا في زمن قسطنطين مفتاحَ دين النصرانيّة وأساسَه، وهم في هذا الزمن رأس عشير يمن، كما أنّ أهلَ كفر كنّا رأسُ عشير قيس.

وببلاد الناصرة قرية فرعون بلد روماني[371] قديم لا يعرف له بان[372]، به مغارة مَهُولة معدودة في عجائب الدنيا، حكى الأمير الذكي[373] العارف ناصر الدين ابن العجلوني أنه دخلها وأنه لا يعرف منتهاها طولاً وعرضاً وارتفاعاً، ويُسمَع بحَرّها[374] هدير هواء، وعلى شمال الداخل قبور رومانية[375] نواويس، قيل إنها فوق الألف، وانهم دخلوها بمشاعل نحو ثلاثين فقطعوا نحو ميل ثمّ فزعوا من طفي[376] المشاعل والحيرة بعد ذلك، فرجعوا، وذكروا أنهم وجدوا بها من الوطاويط ما لا يحصر[377] في مقدار الدجاج وأكبر، وقيل إنها تصل إلى تحت مدينة الناصرة، ومقدار ذلك بريد، وللناس عنها حكايات؛ ويدخل إليها من سرداب حَبْواً مقدار ثلاثة أذرع فقط.

وببلاد الناصرة قرية جيدا بها بطّيخ أخضر يضرب به المثل بحسنه وحلاوته وقلّة بزره.

---

(370) [sic].

(371) MS. روياني.

(372) MS. باني.

(373) Margin. Text has الزكي.

(374) Marked لا in text.

(375) MS. رويانيه.

(376) Margin. Text has انطفاء.

(377) [sic.]

وبالناصرة والرينة جماعة يقرؤون القرآن في جماعة على طريقة مستحسنة.

العمل التاسع، ولاية الشاغورين ومعليا:

فشاغور البعنة[378] جبل به قُرًى عامرة كثيرة الخير، والبعنة بها دير عظيم يقصده الناس بمن به جنون فيُبَيّتونه ليلةً على مصطبة فيُشْفَى بقدرة الله تعالى.

وشاغور عرابة[379] به بلاد عامرة وبه زيت كثير، وبقرية كابول مقام أولاد يعقوب عليه السلام من المزارات المشهورة المعظّمة، وأما مَعلّيَا فلها حصن يسكن به القاضي، وبلادها جبال.

وقرية البقيعة منها بها مياه تجري وأشجار سفرجل كثير، ومنها جبل الزابود[380] يُشرف على صفد ويمتدّ حوله قرى كثيرة الفواكه، وبهذه المعاملة قلعة القرَين[381] حصن جيّد فتحه الملك الظاهر، وبوادي القرين بساتين وطواحين وفواكه لطيفة وثمار مختلفة، وأهل هذه البلاد غالبُهم حاكميّة[382] درُوز دهريّة[383]، ينكرون الشرائع ويعتقدون التناسخ ولا يعتقدون صلاة ولا صوماً ولا زكاةً ولا حجّاً ولا بعثاً ولا نشوراً. ويستحلّون المحارم من المنكح والمأكل والمشرب، فيأكلون الميتة ولحم الخنزير ويشربون الخمر وينكحون المحارم ولا يغتسلون من جنابة، ويزرعون الحشيشة المسكرة في قرية يقال لها الزابود، ويعتصرون الخمر حتّى تبقى عندهم مخازن، وفي غالب السنين يُجَهّز إليهم ملك الأمراء. إذا كان ديّناً - من يريق خمورهم ويكتب عليهم القسمة بأن لا يعصروا شيئاً[384] [من] الخمر، إلاّ أن معاملة هؤلاء القوم في البيع والشراء والأخذ والعطاء جيّدة موثوق [بها] لا يكذبون في أيمانهم.

---

(378) Thus the text, and the modern form of the name. In Q 153 the word is unpointed, but the editors quote the reding النعمة from another source. The reading is tacitly accepted by Gaudefroy. Demombynes 122.

(379) Q 154 عرابة.

(380) - يقع هذا الجبل على مسافة كيلو مترات قليلة من صفد وقربه طريق صفد الناصرة، وعلى سفحه الجنوبي بنيت قرية الفراضية

(381) - هي القلعة التي كانت تعرف اثناء الحروب الصليبية باسم قلعة مونت فورت(montfort)

(382) - نسبة للحاكم بامر الله الفاطمي

(383) - دهرية: لا يؤمنون بالبعث والحساب

(384) Added in margin.

العمل العاشر، ولاية طبريّة:

وسوقها الآن كفر كنّا ومملحة البطيحة وكفر عاقب[385]، فأمّا طبريّة فهي من المدُن القديمة العظيمة الشأن، يقال إنّه كان بها ثلاثمائة حمّام، وهي مستطيلة على شاطئ البحيرة المنسوبة إليها، ويقال إنّها أعظم بحرة حلوة في الدنيا، ودورُها نحو يوم وطولُها إثنا عشر ميلاً وهو بريد كامل، وعرضها ستّة أميال، والجبال تكتنفها؛ ومنها يخرج [نهر الشريعة][386] ولا يزال يجري في الأغوار حتّى يصبّ في بحيرة زُغر، وهي المعروفة ببحيرة لوط، ويقال إنّ قبر سليمان بن داود عليهما السلام في بحيرة طبريّة!.

وبطبريّة من الحصون والأبراج والكنائس شيء غريب كثير، وبطبريّة مشهد السيّدة سُكينة بنت علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وبها الحمّامات المعدودة من عجائب الدنيا بها مياه سخنة تنبع من الأرض، تنفع من الريح والبلاغم والدماميل[387] والقروح والجرب والاستسقاء وغير ذلك ومن ترهّل البدن ومن إفراط المبالة، ويقصدها الناس.

وكذلك الحمّة التي بأطراف هذا العمل على الشريعة، وبهذا العمل قرية حطّين بها قبر نبي الله شُعيب عليه السلام، والقرية وقف على مقامه، وله مشائخ وخدّام ومباشرون، وبه سماط للفقراء، خبز ودشيشة دائماً، ومضيف للواردين من البريديّة والأعيان، ويأتي الناس للزيارة من سائر النواحي ولاسيّما يوم الجمعة.

كنت أتوقّف في كون نبي الله شعيب هنا حتّى رأيت[388] كأنّي جئت للزيارة وجلست عند الضريح فانْفَرج فخرج شيخ مهيب حسن فقلت: «أنت نبي الله شعيب؟» فقال: نعم، ثمّ قال «وأنا أعرفك وأحبّك فإنّ خطيبي الخطيب إسماعيل يحضر فيثني ويدعو، فقلت كأنّ خطيب الإنسان له عنده عودة فقلت: وأنا خطيبك أيضاً. فقال: نعم ولكن أنت خطيب النبي صلى الله عليه وسلم»، ثم حدثني بغرائب.

وفي هذا العمل مدينة كفر كنّا لا تخلو من جماعة من الصالحين وأرباب الكشوف،

---

(385) - وردت البطيخة، والصحيح البطيحة وهو سهل في شمال شرق بحيرة طبرة في منطقة الجولان، وكفر عاقب بلدة في السهل نفسه تسمى الآن دوقة كفر عاقب أو الدوقة، وقد ذكرها المتنبي في قصيدة يقول فيها متحدثاً عن محاولة اغتياله من قبل كافور الاخشيدي بعد ان هجاه:

أتاني وعيد الأدعياء وأنهم   أعدوا لي السودان في كفر عاقب

(386) Restored from D 211.

(387) Margin. Text has والدمامل.

(388) - قوله حتى رأيت، أي في الرؤيا وهي الحلم عند النوم

فهي معدن الصالحين وموطن الأولياء، وبكفر كنّا مقام أولاد يونس عليه السلام من المزارات المشهورة، الدعاء فيه مستجاب وخدّامه صالحون. وبكفر كنّا مقدّمو المُشْران[389] أمراء طبلخانات[390]، وهم رأس قيس أهل فتن وأهواء.

وبقربها مكان يُعرف بالبُطّوف به قرى حسانٌ، وبه أرض تعرف بمرج الغرق تجتمع فيها المياه [بمستنقع] وليس لها مخرج، فإن تلك الأرض بين جبال محيطة بها، وفي الشتاء يجتمع فيها من الأمطار ماءً عظيم حتى يصير بحيرة ثم تشربها الأرض قليلاً قليلاً، وكلّما جفّ منها مكان زرعوه كما يفعل أهل مصر.

وبهذا العمل جبل الطور، عليه حصن بديع وبه حصن كوكب، وبالبطّوف مقام العُزير وقبره، وبالرومة قبر روبيل [وهو] مزار يقصده اليهود والمسلمون، وعليه قبّة، ومقام الشيخ علي البكّاء بترعان، وبه قرية البحيرة بها مقام عظيم، عليه مهابة، يقصد للزيارة، والدعاء به مستجاب، فهذه الولايات الصفديّة وأعمالها.

[مناظرة في هجاء ومدح صفد]

وبالجملة فصفد مدينة لا بأس بها، لكنّها ليست على ترتيب المُدن، كان خلاصتها حصنها الغريب ثمّ بُنى عليه ربَض يسير، ثمّ زيد فيه تلفيقاً بلا ترتيب.

قال بعض أهل الظرف في مقام المطايبة واللطف، حين سُئل عنها وقيل له: اشهد لنا بما تعلم منها: صفد، وما أدراك ما صفد، مدينة الحزن والنكد، والفقر والحسد، والهم والكمَد، عيشها غير رغد، وكان سرُّها حصنُها ففسد، لكثرة الصواعق والأمطار، وتواتر الزلازل في الليل والنهار.

أمطارها سيول، وصواعقها تهول، وشتاؤها لا يزول، وساحتها معدن الفضول.

فرجتها ثلاثة: وادٍ في الدرك الأسفل، وميدانٌ كالسماك الأعزل، وحواكير عن عقاربها لا تسأل.

وعجائبها ثلاثة: مئذنة بلا جامع، وحمّام بلا ماء ليس للكلاب عن مصنعه مانع، وأسطحته لا تُتَمَيّز من الشوارع.

---

[389] D 212 العشائر.

[390] - أمير الطبلخاناه هو الذي يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه ويكون أمير أربعين ويتدرج في الزيادة إلى الثمانين، ويعد أمير الطبلخاناه في الدرجة الثانية من الأمراءوقد منحت السلطة المملوكية لأمراء وشيوخ العرب البدو رتباً من هذا القبيل، وكانوا يسمون مقدمو العشير أي العشائر.

خيرها من جلب، ومواشيها سريعة العطب، وكثير فيها الحسد، وقليل فيها الذهب، وجامعها بلا ميضاة للطهارة، ومسلخها يرمي الطير من القذارة، وهي مفرّقة العمارة، في المشرق حارة، وفي المغرب حارة، والمغضوب عليهم يتجهّزون للإقامة في أكنافها، والضالّون من الدروز والرافضة في غالب أطرافها.

أحسن حمّاماتها سفر طويل، من ذهب إليه خجل بالغداة والأصيل، وعند خروجه من حرّه إلى الهواء الوبيل، يقول [هل] إلى مردّ من سبيل، لا مدرسة ولا رباط، ولا محلّ نزهة ولا انبساط، مَن دخلها حزن وضاق صدره، ومن خرج منها فرِح وسرّ قلبه، ويكفي من البرهان، أنّها بيت الأحزان، يعقوب عليه السلام فيها لفرط حزنه ذهب بصره، ويوسف عليه السلام أُلقي في الجبّ فلم يجد من ينصره.

ليس لها باب ولا سور، وغالب بيوتها مبنيّة على القبور، ولا بها ذو مال جزيل، ولا من يعين على نوائب الدهر فصبر جميل، أما سمعت قول ابن حلاوات، في أبياته المشهورات: [من الوافر]

جهنّم أصبَحَت لا شكّ فيها — لها من كلّ ناحية عقاب

فنهض إليه بعض الإخوان، وقال مَهلاً أيها الإنسان، فما تلاطفت ولا أنصفت، ولا خلوت، من تحمّلٍ فيما وصفت، تتفوّه بوصمتها، ولا تنوّه ببهجتها.

أأنسيتَ جامعها الأحمر، وصحنه الأنور، موطنَ الإنابة، ومحلّ الإجابة، ومنهل الأوطار، ومعدن الأخيار؟

هلا ذكرت ميدانها الذي يشفي رمد العين، ويَرى من به مجمعَ البحرين، ويرتع طرفه من أين إلى أين؟

أنسيت هواءها اللطيف، وماءها الخفيف، حتى كان الفرنج من جميع الأنحاء، يُحمَلون إليها لطلب الشفاء؟

هلا ذكرت أقسماها[391] المتّفق عليها، والمُحكى عنها والمشار إليها، تُحمل إلى البلدان، وتُهدى إلى ملوك الزمان؟

هلا ذكرت التين الماروني[392]، والجبن العثروني، والعسل الشقيفي والكرملي، والتفّاح الأحمر الفرعمي؟

---

(391) [sic.]

(392) - ربما هو منسوب لقرية مارون الراس أو الميروني نسبة لقرية ميرون الواقعة قرب صفد.

هلا ذكرت الساتورة[393]، وغرائبها المأثورة، وحلزون[394] البرج الكبير، وكيف الفارس من أسفله إلى أعلاه يسير؟

أنسيت رياض اليلكو[395]، وما عن شقائقها الملوّنة يحكوا[396]، والحواكير وبديع أزهارها، وما يُطرب في السَحر من نغمات أطيارها؟

هلا ذكرت عمارة الخليفة، ومصطبتها اللطيفة، ومنظرها الذي يشرح الصدر، ويَرَى من به البرّ والبحر، حتى يظنّ الغريب، أنّ البحر منه قريب؟

أنسيت بركة الدجاج، وماءها الثجّاج، وسفح القلعة في زمن الربيع، وما يظهر به من الزهر البديع؟

هلا ذكرت مغارة نبي الله يعقوب، التي تُجلي الهموم وتزيل الكروب، وقد شاع بلا ارتياب، أن الدعاء فيها مستجاب؟

أنسيت النابل[؟] وكنعان، وكيف فيهما الأولياء بالعيان؟

هلا ذكرت وادي دلبيّة ونزهته، ومقام الكويس وبهجته، وحمّامها الجديد، وعين الساحة التي هي بيت القصيد؟

أنسيت ما قال شرف الدين حسين بن الكمال: [من المحدث]

صفد وطني وبها وَطري	رَوَّى صفداً وَبْل المطر
بلد ما يَعْدُلُهُ بلد	في طيب هوًى رطب عطر
تغذو الأبدان لصحّتها	ولها نور مثل القمر

فولّى [....][397] وهو يقول: هيهات هيهات، وحقّ منى وعرفات، هذه الأسماء على غير مسمّيات.

[حصن صفد أيام الصليبيين]

كان حصنها من أجلّ حصون الفرنج وأمنعها، وأشدّها ضرراً على المسلمين وأشنعها، وكان بها طائفة يقال لها الداوية، نار موقدة وبليّة، غربان فرسان، مُعَدّون للغارات على البلدان، تَصِل غاراتهم من جهة دمشق إلى داريّا وما يليها.

---

[393] - الساتورة: ركية (بئر عميقة) يستقى منها.

[394] MA. حلوزون.

[395] [sic.]

[396] [sic.]

[397] [sic]

ومن جهة بيت المقدس إلى كرك ونواحيها، فيسَّر الله عزَّ وجلَّ فتحَها على يد السلطان الملك الظاهر بيبرس رحمه الله تعالى في الرابع عشر من شوّال سنة أربعٍ وستّين وستّمائة، بعد أن حصَره مدّة طويلة.

ثمّ بنى على الحصن هذه الباشورة[398] البرّانية، ونصب محراباً في كنيسته وجعلها جامعاً.

والماء بالحصن كثير، في آبار وصهاريج لا يكاد يفرغ، وبه ماء ينبع في مكان يعرف بالساتورة معدودة من عجائب الدنيا، عمقها مائة وعشرة أذرع في عرض ستّة أذرع بالنجار، مركّب عليها مرمّة هندسية من الخشب ببغال[399] يلتفّ عليها حبل سُرّياق[400] مركّب فيه بتّيتان[401] [من] خشب، تسَع كلّ واحدة نحو راوية ماء.

وكلّما وصلت بتّية إلى الماء وصلت الأخرى إلى رأس البئر، وعلى رأس البئر ساعدان من حديد بكفّين وأصابع، تتعلّق الأصابع في حلقة البتّية الملآنة، وتجذبها الكفّان فينصَبُّ الماء إلى حوض. وهذا الماء نبع، ويُذكَر أنّ عمق الماء بها ستّون ذراعاً.

ولمّا تمّ بناء الباشورة، أمر السلطان أن يعمل برج غريب في وسط القلعة يعرف ببرج الظاهر ووصفه بصفات عظيمة، وارتفاع هذا البرج مائة وعشرون ذراعاً، وقطره سبعون ذراعاً، وهو ثلاث طبقات: مساكن ومخازن ومنافع وطاحون يدور بالخيل وبئر ماء جمع يكفي لمن يكون في هذا البرج طول الحول، وله حَلزون بغير درج ممشى يسع ثلاثة فرسان صفّاً، يُصعد منه كذلك إلى سطحه.

---

[398] - الباشورة: هي ان يكون امام كل باب او خلفه بناء ذو عطف حتى لا تهجم عليه العساكر وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة والباشورة كلمة سريانية الأصل تعني الجدار.

[399] MS. تبغال. D 210 – وحول المرمّة بغال ملّمات إلخ.

[400] MS. سرياق. D 210 سرياق should be amended accordingly.

[401] MS. بتيّتين.

الأمير يشبك الدوادار في فلسطين

تزودنا رحلة ابن أجا الحلبي المتوفى سنة 881 هـ، 1476 م، بمعلومات مفيدة عن فلسطين في أواخر العهد المملوكي، ومع أنها تأخذ طابعاً إنشائياً إدارياً نظراً لكثرة ذكر أصحاب المناصب، إلا أنها تؤشر أيضاً إلى الرتب والمناصب والتقاليد الادارية التي كانت سائدة في فلسطين ذلك الزمن.

وابن أجا هو محمد بن محمود بن خليل الشمس الحلبي الحنفي، ولد بحلب عام 820 هجرية/ 1417 ميلادية، ونشأ فيها وطلب العلم على أعيان عصره، ثم تردد إلى القاهرة مراراً وتعرف بالعلماء والأعيان والأمراء، وارتقى لصحبة يشبك بن مهدي الظاهري دوادار العسكر المصري في عهد السلطان الملك الأشرف قايتباي.

أما رحلته الشهيرة، فهي سجل يومي لوقائع الحملة العسكرية التي جردها السلطان قايتباي، وكلف بقيادتها الأمير يشبك الدوادار، لقتال الإمارة الدلفارية الناشئة في مناطق الثغور والعواصم شرقي الأناضول.

نشرت رحلة الأمير يشبك الدوادار في القاهرة بعنوان «تاريخ الأمير يشبك الظاهري» بتحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات، وصدرت عن دار الفكر العربي القاهرية 1973 ميلادية. ثم أعاد نشرها الشيخ محمد أحمد دهمان ضمن كتاب «العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار» الذي صدر عن دار الفكر في سوريا عام 1986 وعن هذه الطبعة أخذنا النص المتعلق بفلسطين.

رحلة الأمير يَشْبَك الدوادار

ثم رحل ونزل بالزعقة[402] وبات بها وأقام إلى ضحوة النهار ومدّ سماطاً وأكل وركب ولاقاه نائب غزة الأمير آرغونشاه وناظر الجيش وكاتب السر بها بالقرب منها.

وتقدموا في خدمته إلى أن وصلوا إلى تل العجول[403] فنزل به وأصبح وطلبَ يوم الخميس إلى غزة ولبس شاشاً. ولاقاه الأمير تمراز الأشرفي أحد الأمراء المقدمين الألوف بالقاهرة. وكذلك الأمير خاير بك ومن في صحبتهما من الأمراء والمماليك السلطانية. ولم يلبس خيوله كما خرج من القاهرة، بل اقتصر على ثلاث طوالات[404] كنبوش[405] ذهب سروجها، وطوالة بقماش مغربي، وطوالة نقوش حربي تقاد أمامه.

ودخل إلى مدينة غزة وكان يوماً. مشهوداً ونزل بالقرب من المصطبة وأجهر النداء لجميع الرعايا والفلاحين بالأمان، وتزايدت أدعيتهم في الصحائف الشريفة زاد الله شرفها.

وفي صبيحة نهار الجمعة جاء المَقَرْ الشرفي الأنصاري وصحبته شيوخ جبل نابلس وأمير جرم. فأكرمهم المَقَر الأشرف باش العساكر الإسلامية غاية الإكرام وقرر معهم الرجال[ة][406] وسرعة إخراجها، وتضرروا من الصرف على المشاة ورسم بأن تصرف لهم [سلع][407] إعانة لإخراج الرجال[ة] وقطع حجتهم حتى لا يتعطل المهم الشريف، وألبسهم تشاريف شريفة وتوجهوا من مخيمه الكريم لإخراج رجال المشاة.

---

(402) - الزعقة: بلدة واقعة قرب الحدود بين مصر والشام (السلوك 1/591)

(403) - تل العجول: تل في جنوب غزة بينهما (5) كلم

(404) طوالة: محرفة عن كلمة (طويلة) بالعربية، استعملت في العهد المملوكي بمعنى إصطبل الخيل والمراد هنا ثلاثة صفوف من الخيل

(405) - الكنبوش: برذعة مزركشة توضع تحت سرج الفرس

(406) - الرجالة: في الأصل الرجال وليس هو المراد، بل المراد الجماعة الذين يمشون على أرجلهم وقد تردد كثيراً في إعلام الورى لابن طولون ذكر المشاة مثل قوله ،وأخرج مشاة، ويريد بهم ما أراده المؤلف هنا وسيأتي بعد أسطر: وعرض عليه يوسف بن الحبوسي مشاته، وستتكرر هذه اللفظة مراراً.

(407) سلع: كتبت بشكل غريب اقرب ما يكون هو ما أثبتناه والسلعة المتاع وجمعها سلع407)

وفيه ألبس المَقَرّ أرغونشاه نائب غزة المحروسة كاملية[408] صموراً[409] طرشاً ومركوباً بقماش ذهب، وأعفاه من المهم الشريف، ورسم له بالإقامة لحفظ الطرقات وأمن السبيل.

وفيه لبس الجناب الزيني ناظر جيش غزة كاملية مفرية[410] صموراً طرشاً وأقام بها الخميس والجمعة والسبت.

وفي صبيحة نهار الأحد رحل ونزل بالقرب من الضريح المنسوب لأبي هريرة رضي الله عنه، وان كان غير واقع لأن أبا هريرة رضي الله عنه مات بالمدينة ودفن فيها.

ثم رحل يوم الثلاثاء ونزل بالقرب من نهر العوجاء[411] وأقام بها الأربعاء والخميس، وعرض عليه يوسف بن الجيوشي مشاته وكذلك غازي بن مشاق فلم يعجبه وردهم. وكان خليل بن إسماعيل شيخ جبل نابلس لما حضر إلى غزة وعده بأنه يعرض مشاته بمنزلة العوجا فحضر وذكر أنه سبق عن ذلك، واستمهل إلى منزلة اللجون[412] فأمهله.

وفيه وصل قاصد المقَر محمود بن بلال بأن مخدومه قبض على جماعة من السوارية[413] فأخلع عليه وأعطاه نفقة تليق به.

وفيه كتب إلى الأبواب الشريفة على يد الساعي بوصول الأمير هابيل الذي كان قبض عليه شاه سواء المخذول في كبسته لأسلماس، وأخلع عليه كاملية مفرية سموراً. وأنعم عليه بفرسين ومائتين أشرفياً وعاد الحبور من المقَر الأشرف نظام الملك الشريف أعز الله أنصاره.

ثم رحل يوم الجمعة من العوجا ونزل بقاقون[414] فلم يحضر غليه غازي بن مشاق. ثم رحل منها ونزل باللجون وبابها. وأصبح يوم الأحد مقيماً منتظراً لعرض الشيخ خليل بن إسماعيل، فأحضر أناساً ملفقين غير ما كان وقع القرار عليه.

---

[408] كاملية: نوع من الملابس الخارجية كالعباءة ولعلها مما أحدثه الملك الكامل الأيوبي من ثياب التشريف

[409] - الصمور: السمور وهو من الحيوانات ذات الفراء.

[410] مفرية: المقصود ان بها فراء.

[411] نهر العوجاء: اكبر انهار فلسطين يصب في البحر المتوسط شمال يافا (انظر المنصور رقم 3)

[412] - خان اللَجون: هو في شمال جبل الكرمل واول مرج ابن عامر بقيت أطلاله الى عهد قريب، وهو على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة منذ القديم، على أحد روافد نهر المقطع (قيشون) الذي يصب شمالي حيفا. وقال ياقوت في معجم البلدان .اللجون بفتح اوله وضم ثانيه وتشديده بلد بالأردن بينه وبين طبريا عشرون ميلاً والى الرملة مدينة فلسطين اربعون ميلاً. وبين جبلي السامرة (نابلس) والكرمل يقع ممر اللجون ذو الأهمية الاستراتيجية

[413] - السَوارية: نسبة إلى سوار الثائر الذي كان سبب هذه الرحلة العسكرية

[414] قاقون: من أمهات قرى قضاء طولكرم وفي منتصف سهل سارونة الساحلي في فلسطين على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة

وكان القاضي شرف الدين الأنصاري من حين وصوله إلى غزة، ومشاهدته إهمال المشايخ في الاهتمام للمهم الشريف، يشير على المقَر الأشرف باش العساكر الإسلامية بالقبض على المشايخ خوفاً على نفسه، لأنه كان سبق منه لدى المقام الشريف خلّد الله ملكه، بأنّ المشاة المتوجهين ليس لهم عاقة، ولا ينتظروا إلا حضور ركاب الباش أعز الله أنصاره. والحال أنّ المقَر الأشرف المشار إليه لم يزل يؤكد عليه وعلى المقام الشريف بأنه يختشي أنّ المشاة يتعسر أمرهم عليه، وأنه بعد أن يتوجّه من القاهرة يوقفه [أمر] في الطريق ويحصل للعسكر لذلك زيادة كلفة وضعف، فوقع الأمر كما تخيله، فالله سبحانه وتعالى يلهمه الصواب ويؤيده بملائكته الكرام. فلله درّ فراسته.

فلما شاهد المشاة ورأى علامات تدل على عدم السداد. طلب القاضي شرف الدين، وذكر له ما شاهده من عدم السداد، وأنه كان لم يزل يذكر له وقوع هذا الحال ويحذره، وهو يصر على أن المشاة حاضرون، فازداد خجله وسأل المقرُ الأشرف أنه يقبض على المشايخ المذكورين، ويلبس لأولاد عمهم ليقيموا بأمر المهم الشريف، فتوقف المقرُ الأشرف عن القبض عليهم لكون أنّ أولاد إسماعيل أحضروا له أطفالهم من إخوتهم، ولم يفقد منهم سوى شخص واحد، وكل ذلك رحمة منه ورقة قلب على الصغار الأيتام، لأنّه يلزم من قبض الأكابر قبض الصغار أيضاً ضرورة، لأنه ربما أنه يحصل على الصغار من أعدائهم شيء، أو يجتمع على أحدهم المناحيس، ويقوم الشر بذلك في الرعية لأن الأهواء مختلفة.

وكلما أشار القاضي شرف الدين بالقبض، توقف المقرُ الأشرف لما سبق ورحمة منه على الصغار، وهو يلح عليه في ذلك إلى أن قال له: أنا ما أمسك أحداً، فإن كنت أنت تعلم أنّ المهم الشريف لا ينشد إلا بالقبض على أولاد إسماعيل وغازي بن مشاق فافعل.

والأمير دولات باي السيفي يونس أحد رؤوس النوب على القاضي شرف الدين بأنّه مهما حدث من القبض على هؤلاء من عدم السداد ويكون لازماً له.

فأجاب بنعم من غير توقف، فقبض على اثني عشر نفراً منهم، من أولاد إسماعيل ثمانية، وثلاثة من أولاد عمه، وغازي وابن أخيه، وألبس حرب مكان خليل وكان حاضراً، وطلب عمر بن شبانه فحضر بعد ذلك اليوم، وألبسه مكان غازي. وعيّن الأمير دولات باي وصحبته ثلاثين مملوكاً من العدة الكريمة، وتوجه وصحبته حرب وعمر بن شبانه ليتسلموا البلاد ويحضروا بالمشاة المقرر عليهم للمهم الشريف. وأقام ذلك اليوم وصلّى

الصبح يوم الاثنين ورحل ونزل بيسان[415] وبات بها وصلى الصبح يوم الثلاثاء ونزل بجانب بحيرة طبريا[416] وبات بها وصلّى الصبح ورحل ونزل بالخربة[417] بعد أن حصل للجمال بالعقبة[418] مشقة كبيرة، سلم الله بحيث أنه لم يعطب فيها دابةٌ، وهذا من غريب الاتفاق، وكل ذلك بعناية الله وفضله.

وورد بها ساعٍ من القاهرة وعلى يده مطالعات فيها بشائر بأن ليلة الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة، وُلِدَ للمَقَرِّ الأشرف أمير دَوَادار وباش العساكر الإسلامية أعز الله أنصاره ولدٌ ذكر من بنت المقام الشريف الشهابي الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف إينال وسموه منصوراً. ومن الاتفاق الغريب أنه لما نزل بمنزلة من قرب نهر العوجا[ء] في التاريخ المذكور، أخبرني بحضرة بعض الأمراء منهم الأمير دولات باي السيفين يونس، بأنه رأى في منامه كأن قائلاً يقول له:

سيولد لك ثلاثة أولاد ذكوراً، فسَمِّ الأول منصوراً، والثاني مؤيداً، والثالث [ص11] مظفراً. وورد الخبر بعد ثمانية أيام بذلك وهذا من غريب الاتفاق. ولو وقع مثله لأحد من ينسب إلى المشيخة لادعى الكرامة فيه، ولكن وأي كرامة أعظم مما هو فيه، فالله سبحانه وتعالى [أسأل] أن يبلغه مقاصده ومآربه بجاه سيدنا محمد ﷺ.

وفيها وصل قاضي القضاة قطب الدين الخضيري ملاقياً، ومعه من الأطعمة والحلاوة شيء كثير، والقاضي ناظر الجيش في عصر ذلك اليوم ومعه فاكهة وحلاوة وغير ذلك.

ولما نزل بالمكان المذكور سأل أرباب الخبرة عن المنزلة، فأخبروا أنها بعيدة ووعر، فأشفق على الجمال من طول المنزلة[419] ورسم بأن تحمل الجمال أول الليل، وتقطع نصف

---

[415] - بيسان: في الأصل نيسان، وبيسان مدينة إلى الجنوب من بحيرة طبريا في فلسطين، وعلى بعد 6 كلم غربي نهر الأردن، تعد من مدن الغور لوقوعها دون مستوى سطح البحر بـ131 متراً.

[416] - طبريا: بحيرة كبيرة في أقصى الشمال الشرقي من فلسطين، يمر بها نهر الأردن، تمتد على طول 20 كلم وعرض 12 كلم ويقع سطحها دون مستوى سطح البحر بـ210 أمتار وعلى ساحلها الغربي تقع مدينة طبريا.

[417] - الخربة: الظاهر أن هذه الخربة تقع بعد عقبة أفيق من جهة دمشق، وأنها ضمن منطقة حوران، وكثيراً ما ترد ذكرها في العصر الأيوبي والمملوكي باسم خربة اللصوص

[418] - العقبة: المراد بها عقبة أفيق قال ياقوت في معجمه: قرية من حوران في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق والعامة تقول فيق، تنزل من هذه العقبة إلى الغور، وهي عقبة تمتد على طول ميلين، قال حسان بن ثابت:

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالصمّان

فقفا جاسم فدار خليد ... فأفيق فجانبي ترفُلان

[419] - قصد بطول المنزلة: بعد المسافة المطلوب سيرها ضمن الأراضي الوعرة ذات الصخور البركانية بين أفيق وشقحب

الطريق وتنزل في آخر الليل، وتقيم إلى أن تصل إليها الخيل له، ويضحوا ثم يتوجهوا إلى منزلة وهي شقحب[420]، فكان الأمير كما أشار إليه، فحصل الرفق للدواب وقلة التعب للرجال، بأن قطع تلك المسافة على أيسر[ص12] حال وأنعم بال، وكان فعله كذلك بمنزلة الصالحية إلى الغرابي ومنزلة قطيا إلى أم الحسن بحسن تدبير وتطلعه إلى الضعفاء وحالهم.

ولقد سافرت مع الأمراء مراراً فلم أر فيهم من سافر على هذه الكيفية بحيث أنه يأخذ المنزلة من غير كد ولا تعب.

وأما بره وإحسانه ونظره لأحوال رفقته من الأمراء والمماليك السلطانية، فما شاهدته عند أحد ممن سبق بل ولا سمعت. فمن ذلك أن السائقين يسبقوا في كل يوم إلى المنزلة وينصبون بها الحيضان ويملؤونها ماءً، فتصل الدواب وقد أجهدها العطش فتشرب من الحيضان ويرووا منها، حتى التجار والرفقة من المسافرين غير العسكر. ومنها أنه بقي ينادي في غالب المنازل من له حاجة ببقسماط[421]، فليحضر إلى السنيح ويأخذ حاجته، وكذلك إلى شعير، ومن وقف له جمل يعوضه جملاً ويحمل حوائجه على جماله، ومن عطب له فرس يعطيه مكانه فرساً، ويتفقد الأمراء في كل إقامة من الشعير والغنم وكذلك أعيان المماليك السلطانية، ويقرأ كلما اجتمع عنده من شجعانهم بما يتعلق بالفروسية والحيل في أخذ القلاع والحرب، وعلى ذوي الآراء بما يتعلق من الرأي والتدبير، ويخترع في كل يوم أشياء لم يسبق إليها، ويحسن للقادمين عليه من أمراء التركمان وقصادهم من النفقات والخيل والخلع، ويستخبرهم بحال إقليمهم فيسمع منهم الغث والسمين ويضع جميع ذلك في عقله التام فيأخذ ما شاء ويدع ما يظهر له فيه خلل، ولقد شاهدته مراراً أن الرجل إذا نظر إليه نظرة واحدة يتفرس فيه الصدق إن كان صادقاً والكذب إن كان كاذباً، وجربت ذلك مراراً فوجدت أثر ذلك ووقفت على صحة تفرسه، فالله سبحانه وتعالى [أسأل] أن يزيده من فضله ويحرسه بملائكته الكرام.

---

[420] - شقحب: قرية صغيرة من أعمال الكسوة جنوب دمشق، فيها خان يعود بناؤه إلى سنة 716هـ كما هو مذكور على بابه

[421] - البقسماط: يسمى خبز الطوارئ وهو كعك ليس فيه رطوبة يتزود به الجند.

ابن الجيعان والأشرف قايتباي في فلسطين

تشكل رحلة ابن الجيعان، المتوفى سنة 902 هـ 1496م، آخر رحلات العهد المملوكي التي تناولت فلسطين. وتزودنا هذه الرحلة التي تمت في نهايات دولة المماليك بمعلومات جديدة عن طريق دمشق- سعسع- القنيطرة – جسر بنات يعقوب- جب يوسف – المنية – اللجون الذي سيتحول في العهد العثماني إلى الطريق الرئيسي الذي يربط دمشق بفلسطين ومصر.

وابن الجيعان هو بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني، ينتمي لأسرة قبطية مسيحية دمياطية الأصل اعتنقت الإسلام في مطلع القرن التاسع الهجري، ولمع من أفرادها كثيرون تولوا المناصب الإدارية الرفيعة في الدواوين المدنية والعسكرية.

وضع ابن الجيعان نصا مهماً دوّن فيه مجريات رحلة السلطان الأشرف قايتباي من مصر إلى بلاد الشام، وعودته إلى القاهرة عام 882 هـ 1477م بعنوان «القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف»، وكان المؤلف مرافقا للسلطان في هذه الرحلة خطوة بخطوة.

ولم تكن رحلة عادية إذ أحاطها السلطان بالكتمان وتغيّب عن عرشه أكثر من أربعة أشهر دون أن يوصي بالحكم لأحد في غيابه. وكانت الغاية من هذه الرحلة الوقوف عن كثب على الأوضاع السياسية والعسكرية إثر تنامي العداء بين المماليك والعثمانيين، وكان السلطان الأشرف قد جرد حملة عسكرية على إمارة الدلغار كما يبين لنا نص ابن أجا حول رحلة الأمير يشبك الدوادار الآنفة الذكر، وهو ما اثار حفيظة العثمانيين وجعلهم يعجلون بالقضاء على السلطنة المملوكية.

أول من نشر نص ابن الجيعان المستشرق الايطالي ريو دل فو نتسونه في تورنتو عام 1878 ميلادية وترجم إلى الفرنسية عام 1922 ميلادية. وصدر عن منشورات جروس- برس في طرابلس عام 1984 ميلادية بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري.

وكسابقتها رحلة يشبك الدوادار تعج الرحلة الحالية بأصحاب المناصب والرتب، وبالتقاليد والمتعلقة بالتعاملات الرسمية.

القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت..

الحمد لله الذي عمَّر ممالك الإسلام بسلطاننا الأشرف، وألهمه السير إليها والنظر في أمرها بعدما كان حالها على الفساد أشرف.

أحمده إذ مَنَّ علينا به في زماننا هذا وجعله بالخير يُعرف، [وأشكره شكراً دائماً مستمراً كلما مضى بالشكر يُردف].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تُدخل قائلها في الجنان قصراً مزخرف.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي هو بالمؤمنين أراف. صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في [سبيل] الإسلام بحدّ المرهف.

وبعد، فإنه لما ألهم الله الكريم، سبحانه وتعالى، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم والهمام المقدَّم، آخر الملوك على الإطلاق والتحقيق، جامع أشتات الفضائل [والفواضل]، حاوي المحاسن والمآثر، من خصه الله منه بحسن اليقين، حامي حوزة الدين، [خادم الحرمين الشريفين] المستغني عن الإطناب في الألقاب، السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي، خلّد الله ملكه، وجعل الأرض بأسرها ملكه، إلى المسير إلى الممالك الشامية، وسرنا في أثره إلى أن لحقنا ركابه الشريف، وتوجهنا في خدمته، نصره الله تعالى، ورأينا من البلاد، والعباد، والأشجار، والأثمار، والأنهار، والأودية، والعقبات والجبال، والعجائب، والغرائب، ما يتعين على الإنسان ضبطه، والمطالعة به لأرباب العقول المستقيمة، والحواس السليمة، من المشايخ الحاوين للخير والفضيلة، ليؤرخوا ذلك عندهم، ويكتبوه في كتبهم، فإنه لم يسبق لمثل ذلك، لا سيما مع ما انضم إلى ذلك من بره إلى من في خدمته من الخاص والعام، وما أسدى إليهم من الفضل والإحسان، وحُسن الخطاب وحلاوة اللسان. هذا، مع الهيبة والحُرمة والشهامة والشجاعة، ولكن التواضع والخير صار له صناعة.

فأردت أن أكتب نبذة مما وقع من هذا الأمر العظيم الذي لم يسبق لمثله، ولا تقدّمه له من الملوك غيره، ولا أبناء جنسه، وأن لتكون هذه تُحفة مني إليهم كتحفة النملة لسليمان. وأسألهم أن يُسبلوا عليّ ذيل فتوتهم، ولا يؤاخذوني بما وقع منّي من الخطأ، فإنني - والله- بضاعتي مُزجاة، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الصالحية :

فنقول:

توجه ركابه الشريف - نصره الله تعالى - من القاهرة المحروسة، قاصداً للصالحية للنظر في أمر جامعه العظيم الذي أنشأه بها. ولم يصحب معه [احداً] من الأمراء، سوى الأمير «تاني بك قرا» الدوادار الثاني، والأمير «جاني بك العلائي حبيب» أمير أخور ثاني، والأمير «يشبك الجمالي» المحتسب، والأمير «يشبك من حيدر» متولي القاهرة المحروسة، والأمير «شاهين [الجمالي]» نايب جدّة المعمورة، كان، والأمير «الماس المجمدي» أستادار الصحبة الشريفة، والأمير «قاني باي السيفي شاد بك سُلاق».

ومن مماليكه الخرج نحو الخمسة والعشرين نفراً، ومن غيرهم من بقيّة الطوائف نحو عشرة الأنفار أرباب الوظائف.

ومن الخدام: «الزيني سنبل الأحمدي» الخازندار، [و«الزيني فيروز الجمالي الخازندار»]، و«الفخري أياس من يشبك الساقي».

ومن الأئمة: سيدنا شيخ الشيوخ «البرهاني الكركي».

ومن المتعممين: قاضي القضاة قطب الدين الخيضري قاضي القضاة الشافعية بدمشق، وكاتب السر الشريف بها، والقاضي علم الدين يحيى بن البقري ناظر الإسطبلات الشريفة.

ومن المؤذنين: الشيخ فاضل السكندري.

وكان توجهه في ليلة الاثنين سلخ شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وثماني مائة، ثم أقام بالصالحية إلى أن صلّى الجمعة بجامعه المذكور، في رابع شهر جمادى الثانية، وخطب به مولانا قاضي القضاة «قطب الدين» المشار إليه.

ثم توجه ركابه الشريف منها، وأمر أن لا يتبعه أحد من الأمراء ولا من المماليك. ورسم بطلب موقع عارف، فاقتضى الحال توجه سيدنا «المقرّ الزيني بن مزهر» ناظر ديوان الإنشاء الشريف، عظم الله شأنه. وصحبه من الموقعين بالأبواب الشريفة

القاضي «شهاب الدين [بن] التاج» والقاضي «عزّ الدين الحلبي»، وكذلك «المقر الكمالي» ناظر الجيوش المنصورة وهو ابن المرحوم «الجمالي» ناظر الخواص الشريفة، تغمده الله برحمته، وأخوه «المقر الشهابي»، والملوك «أبو البقاء [بن يحيى] بن الجيمان».

غزة ، المُنيَة ، سدود ، يبنا

وتوجهنا من القاهرة يوم السبت خامس شهر جمادى الآخرة. واستمررنا في إثره إلى أن دخلنا غزة المحروسة صبيحة السبت الثالث عشر، فوجدناه توجه منها بعد أن دخلها على الهجن، ولم يشعر بقدومه أحد، فسرنا في أثره إلى أن وصلنا إلى ركابه الشريف، يوم الثلاثاء خامس عشره وقت الضحى بالمنية، سُفل صفد، بعد أن زرنا سيدنا «سلمان الفارسي» والشيخ «إبراهيم المتبولي» بسدود، وسيدنا «أبا هريرة» بيبنا، فحصل لنا منه – نصره الله تعالى – من جبر الخاطر والفضل والإحسان، ما يعجز عنه اللسان. فالله تعالى ينصره مدى الأزمان، بحقّ سيدنا ولد عدنان. ووجدنا بخدمته الأمير «بردي بك» نائب صفد المحروسة، وقد أحضر إليه الميرة وما يتعين عليه.

جب يوسف

ثم توجهنا في ركابه الشريف بقية يوم الثلاثاء، إلى أن مررنا من جب سيدنا يوسف، صلوات الله وسلامه عليه.

المليحة

ثم نزلنا إلى المليحة[422] ليلة الأربعاء السادسة عشرة، العشاء، ووجدنا الطريق عقبات وصعوداً وهبوطاً ومحجراً. وبتنا بها.

وادي التيم

ثم ركب ركابه الشريف منها وقت طلوع القمر، إلى صبيحة الأربعاء، وصل وادي التيم مكان الخان الذي رسم بعمارته مولانا المقام الشريف – نصره الله تعالى – لنفع المسافرين والقاطنين، فوجدناه حسناً. وهو واد عظيم، به أشجار وأنهار، ولكن طريقه

---

[422] - هي ملاحة صفد التي تقع جنوب بحيرة الحولة

بها عقبات عظيمة مهولة وأودية، وبعض طريقه لا يمرّ به سوى الفرس الواحد، وغالب أشجاره التوت، ولهذا يسمون الوادي بعين التوت. ومتحصل تلك البلاد من متحصل أشجار التوت، لأنه غذاء لدود الحرير، ولكن ماءه ثقيل، وهواه متغيّر وخمّ.

وفيه حضر إلى المخيم الشريف الخواجا «شمس الدين بن الزِّمن» والصارمي «إبراهيم بن منجك»، والأمير «جاني بك العلائي [الأشرفي]» أحد الأمراء بالشام.

جسر زينون

ثم توجه ركابه الشريف منه في ليلة الخميس السابع من شهر جمادى الآخرة، وتوجه الأمير «بردي بك» نائب صفد إلى محلّ نيابته بصفد، فتوجّه إلى جسر زينون بالبقاع من حوران وهو مكان سهل، لكن طريقه بها مشاق عظيمة وعر عظيم، وهبوط وصعود، وبه أماكن يسمونها السبع قلابات.

وفيه حضرت إقامة مولانا ملك الأمراء نائب الشام، وغيره.

ثم رسم بأن الأمير نائب الشام والأمراء لا يحضرون إلا بطلب.

رحلة العودة

حرفا، القنيطرة

وتوجه ركابه الشريف [نصره الله تعالى] – في يومه من على حرفا، من أحجارٍ وعرٍ ووحلٍ ومخايض، إلى أن وصل إلى القنيطرة آخر النهار، وبات بها.

وحضر فيها إقامة من الأمير «بردي بك» نائب صفد.

وصل إبراهيم بن القريد الصيرفي» بالمفرد كان، بإقامة من المقرّ «التاجي» ناظر الخواص الشريفة.

ووصل «شهاب الدين» ناظر دمياط، و«ابن شهاب».

جسر يعقوب

ثم توجه منها بكرة النهار يوم الخميس [الثاني عشر]، من وعرٍ وأحجارٍ وأوحال وحذارات ومشقات كثيرة إلى أن وصل إلى جسر سيدنا «يعقوب» – صلوات الله [تعالى وسلامه] عليه – ونزل به بحافّة النهر الواصل بين بركة قدس. وعمل المير «بردي بك» سماطاً عظيماً.

وبين هذه المحطّة والشام ستة بُرد، وهي: المريج، وسعسع، والأرينبة، والقنيطرة ونعران، وجسر يعقوب.

صفد

ثم ركب صبيحة [يوم] الجمعة [المبارك] الثالث عشر، وطلع هو ومن في خدمته إلى صفد.

ورسم بتجهيز الثقل إلى المُنيّة.

وصفد بلد بأعلى الجبل، بها قلعة عظيمة بأعلى العلو بها. وهي بلدة صغيرة. ونائبها الآن الجناب السيفي «بردي بك السيفي جرباش» قريب مولانا المقام الشريف – [أعزّ الله تعالى أنصاره] –، ونائب القلعة بها «بهادر الظاهري»، وأمير كبير بها «فرج بن مقبل»، وحاجب الحجاب بها «محمود بن الدواداري». وبها قضاة، [وناظر جيش]، وكاتب سر، وبها رجل مجذوب عظيم الشأن يقال له «نعمة».

قلعة صفد

[وزار مولانا المقام الشريف الشيخ «نعمه»] وطلع إلى القلعة، ثم نزل بدار السعادة. وحضرت [إليه] التقادم، وألبس نائبها، وقصّاده، ونائب القلعة تشاريف شريفة.

ورسم – نصره الله تعالى – بإصلاح القلعة وعمارتها، وإجراء الماء إلى البلد من العين.

وحضر بها «الناصري محمد النشاشيبي» ناظر الحرمين الشريفين بالقدس الشريف، ومقام سيدنا الخليل.

كفركنّا، الناصرة

ثم نزل منها صبيحة يوم السبت الرابع عشر، إلى أن وصل إلى كفركنّا والناصرة. وحضرت الأثال.

ومرّ مولانا المقام الشريف – [نصره الله تعالى] – في طريقه بمقام سيدنا «شعيب» نبي الله، وزاره، وتصدّق على خدامه بنفقة.

وطريق صفد مشهور جداً، وأوعاره وأوحاله وما فيه من صعود وهبوط. ويقال على ألسنة العامة: يا صاح: [مجزوء الكامل]

عـــرِّج ركابـــك عـــن صـــفد فإنهـــا بـــئس البلـــد
إذ طلعـــت إلى الـــسُها وإن نزلـــت إلى الأبـــد

وجرّب ذلك وصحّ بزيادة.

ونائبها الأمير «بردي بك» مشكور السيرة، إنسان جيّد.

اللجون

ولقد حصل اللطف بعدم حصول المطر. وتوجّه منها بكرة النهار يوم الأحد خامس عشره، إلى أن وصل إلى اللجون وبات بها، وألبس الأمير [«بردي بك»] نائب صفد كاملية مخمل أحمر [مفراْه] سمور، وفوقاني عريجة، وأركبه فرساً بسرج وكنفوش، وألبس الأمير الكبير والحاجب بصفد، و«ابن الكابولي» [و«ابن بشارة» مقدمي البلاد] تشاريف [شريفة] ورسم لهم بالتوجّه [منها].

قاقون

[ثم توجه] منها ليلة يوم الاثنين سادس عشره، والباقي إلى الصبح ثمانون درجة، إلى أن نزل بقاقون وقت الضحى. وكان بالطريق أوحال ومخائض، وحضر فيه [بدر العلائي ابن خاص بك» بما على يده من الإقامة المحضرة من مخدومه. وحضر ساع بكتاب الأمير الخازندار «برسباي».

ثم حصل بها مطر، ونام إلى باكر النهار.

ثم في ليلة سابع عشره حضر «قرا علي» قاصد «الخواجا ابن الصوا»، الذي توجه مع السيفي «بردي بك» من سيدي بالبشارة بعافية المقام الشريف – [نصره الله تعالى] – ومعه كتب تاريخها الرابع عشر من شهر رمضان، وفيها أنهم صاموا بالقاهرة يوم السبت، فكانت مدة شفره من القاهرة إلى قاقون ثلاثة أيام وأربع ليالٍ. وأخبر بما وقع للمسلين من الفرح والسرور بعافية مولانا السلطان نصره الله تعالى، وأن يوم قدومه كان يوماً مشهوداً.

جلجولية

ثم رحل ركابه الشريف إلى جلجولية يوم الثلاثاء الثامن عشر، وكان بالطريق أوحال وأمطار، واستمرت الأمطار غالب النهار، وحضر بها الأمير «سيباي» نائب غزة و«ابن أيّوب» نائب القدس الشريف، وتقدمة «ابن الجيوشي».

الرملة

ثم توجّه ركابه الشريف منها إلى الرملة يوم الأربعاء تاسع عشره. وكان بالطريق أوحال وأمطار عظيمة متخلّلة.

وحضر فيه السيفي «بردي بك من سيدي» الذي توجه بالبشارة.

سدود

ثم توجه منها نصره الله يوم الخميس، العشرين منه، ونزل إلى سدود، وكان يوماً شاتياً شديد المطر والهواء.

عسقلان ، غزة

ثم ارتحل منها يوم الجمعة الحادي والعشرين منه من على الساحل على عسقلان، إلى غزة المحروسة. وكان يوماً كثير المطر، والدرب في غاية الوحل.

ثم أقام يوم السبت بغزة [المحروسة]، وألبس «ابن أيوب» نائب القدس الشريف]، و«الناصري محمد الظاهري النشاشيبي» ناظر الحرمين الشريفين، و«مرزا» نائب السلط وعجلون تشاريف شريفة، وأمرهم بالعود إلى بلادهم.

ثم أقام بها نصره الله تعالى يوم الأحد، واستقر «جرقطلوا السيفي أركماس الظاهري» وهو «الشريف يونس» في نيابة القدس الشريف كان، في نيابة الكرك، عوضاً عن «يونس» النائب بها كان، واستقر يونس المذكور أمير ميسرة بحلب.

ثم رسم للسيفي «نوروز» أخي «المقر الأشرف» «يشبك» أمير دوادار كبير أعز الله تعالى أنصاره، بالتوجه إلى القاهرة، مبشراً بالقدوم، وللسيفي «أسن بيه من ولي الدين» بالتوجه إلى نابلس.

وفيه حضر «محمد» [ابن] نائب بهنسا، ثم عاد لإحضارها على المشايخ من المال.

وفيه حضرت تقادم نائب غزة ومن معه.

ثم توجه منها نصره الله تعالى يوم الاثنين الثالث والعشرين منه، ورسم للخواجا محمد بن الصوا بالعود إلى محل إقامته بحلب، وألبس هو وولده عثمان تشريفين، وركبا فرسين مسرجين بسروج، ذهباً، وشملهما الفضل الشريف شرفه الله تعالى وعظّمه، هما وجماعتهما.

وعاد الأمير «جاني بك العلائي الطويل» ومن كان صحبه من أمراء الشام إلى محل إقامتهم، وكذلك نائب القدس وناظر الحرمين، ونائب الكرك.

خان يونس

ووصل ركابه الشريف في «بقية» يومه إلى خان يونس. وكان يوماً ماطراً شاتياً، وقدّم إليه الأمر سيباي نائب غزة السماط على العادة.

ثم أصبح في خير نصره الله تعالى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين منه ألبس الأمير سيباي نائب غزة تشريفاً [شريفاً]، ورسم له بالعود.

الزعقة

ثم وصل بقية يومه إلى الزّعقة. وكان يوماً كثير الهواء والأمطار، وكذلك ليلته.

المراجع والمصادر

- احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشرة دي خويبه، ليدن بهولندا، 1875 ونشرة ثانية كاملة في ليدن بالعربية ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية عام 1906ميلادية.

- أدب الرحلات عند العرب في المشرق نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، علي محسن مال الله، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1987.

- اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، الدكتور عبد الرحمن حميدة، دمشق 1969. والطبعة الثانية، دار الفكر بدمشق 1984.

- اعمال القبارصة، للفارس الداوي جيرارد أوف مونتريل، ترجمة الأستاذ الدكتور سهيل زكار، دار التكوين، دمشق 2008م.

- الإشارات إلى معرفة الزيارات، لأبي الحسن الهروي، تحقيق جانين سورديل – طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1953.

- الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، لعز الدين ابن شداد، الجزء الثاني، تحقيق الدكتور سامي الدهان منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1962.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، مطبعة كوستاتوماس بالقاهرة 1954–1959. والطبعة الثالثة، بيروت 1969.

- التراث الجغرافي الإسلامي، محمد محمود محمدين، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض 1984.

- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري، تحقيق الدكتور سمير الدروبي، جامعة مؤتة الأردنية 1992 ميلادية.

- التنويه والتبيين في سيرة محدث الشام الحافظ ضياء الدين لـ محمد مطيع الحافظ، تجليد فني، دار البشائر الإسلامية، دمشق 1999م.

- الحروب الصليبية في الآثار السريانية، للقس إسحق أرملة السرياني، المطبعة السريانية في بيروت 1929م.

- الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1967–1969م.

- الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، المطبعة العثمانية، حيدر أباد بالهند 1349–1350 هجرية وطبعة ثانية 1977.

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، دار المعارف بمصر 1945.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار الحياة، نسخة مصورة.

- العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، تحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق 1986 ميلادية.

- القلائد الجوهريه في تاريخ الصالحيه، محمد بن طولون الصالحي، تحقيق محمد احمد دهمان، الطبعة الأولى مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق 1949- 1956، والطبعة الثانية مجمع اللغة العربية بدمشق 1980.

- القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف، لابن الجيعان، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، منشورات جروس- برس طرابلس لبنان 1984.

- الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشر، نجم الدين الغزي، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت 1945-1959.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم العام.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الجزء الثاني، الدراسات التاريخية، فلسطين في العهد العثماني للدكتور عبد الكريم رافق.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية.

- الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك (الصلاح الصفدي)، المعهد الألماني، بيروت 1949-1979.

- بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، الدكتور كامل جميل العسلي، عمان 1992.

- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، لخالد بن عيسى البلوي، مقدمة وتحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة . المحمدية، المغرب من دون تاريخ نشر.

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي للمستشرق إغناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1965.

- تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي القاهرية 1973 ميلادية.

- تاريخ الزمان، لأبي الفرج جمال الدين ابن العبري، دار المشرق، بيروت 1986م.

- تقويم البلدان، لأبي الفداء، تحقيق المستشرقين الفرنسيين رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، المطبعة الملكية بباريس1840.

- ثمرات الأوراق، لتقي الدين ابن حجة الحموي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي بمصر 1971م.

- حظيرة الأنس إلى حضرة القدس، تأليف محمد بن محمد بن نباتة جمال الدين، عن كتاب ثمرات الأوراق، لتقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، المطبوع على هامش الجزء الأول من محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني حسين بن محمد، دون مكان أو تاريخ.

- خريدة العجائب، لسراج الدين عمر بن الوردي، صدر بعناية عمر حسين الخشاب في المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة 1898 ميلادية.

- خطط دمشق، أكرم حسن العلبي، دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1989م.

- رحلة العبدري، حققها الدكتور محمد الفاسي، الرباط 1968م.

- دائرة المعارف الإسلامية مجموعة من المستشرقين، دار نشر بريل ليدن هولاندا، الطبعة الأولى 1913، والطبعة الثانية 1977.

- دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، أحمد الايبش ود. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية 1998.

- ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب الحنبلي، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد تأليف: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح. ترجمة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض 1990م.

- رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، لأبي بكر بن العربي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مجلة الأبحاث، المجلد 21 ديسمبر 1968م.

- رحلة ابن جبير، طبعة دار التراث في بيروت، 1388 هجرية، 1968 ميلادية. سلسلة أدب الرحلات.

- رحلة العبدري، رحلة العبدري، أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، تحقيق الدكتور علي إبراهيم كردي، دمشق إصدار خاص 1999م.

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، باريس 1894.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، بعناية حسام الدين القدسي، القاهرة 1350-1351 هجرية.

- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقي، بيروت 1966.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأحمد بن علي القلقشندي، طبعة دار الكتب السلطانية القاهرة 1913 و1920.

- صورة الأرض، لمحمد بن علي النصيبي البغدادي والموصلي الأصل، المعروف بابن حوقل، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.

- فتوح البلدان، لحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 11956-1957.

- كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ الشيزري، تحرير فيليب حتي، الولايات المتحدة الأميركية، جامعة برنستون، 1930م.

- كتاب الاعتبار، للأمير أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض 1987.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة الشهير بكاتب جلبي، دار الفكر، دمشق طبعة مصورة، وبذيلها هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي البابانى.

- مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1967.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعلي بن الحسن المسعودي، طبعة دار المعرفة، بيروت عام 1982.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، السفر الأول، تحقيق احمد زكي باشا، القاهرة 1924. وأيضا طبعة مصورة من مخطوطة طوبقابو سراي باسطنبول في 27 جزءاً صدرت ضمن منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت الألمانية عام 1989، وطبعة المجمع الثقافي في أبو ظبي الجزءان 1و3 أبو ظبي 2003.

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1948. وطبعة أخرى تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1969-1972.

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لشيخ الربوة، تحقيق المستشرق الدانماركي ميهرن مع ترجمة فرنسية، لايبزغ 1923.

-B.Lewis, An Arabic Account of the Province of Safad, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XV.PP.477-487.

فهرس

مجلدات الموسوعة :

- المجلد الأول: وصف فلسطين أيام الفاطميين.
- المجلد الثاني: وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية.
- المجلد الثالث: السياحات الصوفية والزيارات الدينية.
- المجلد الرابع: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس.
- المجلد الخامس: الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية.
- المجلد السادس: وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين 1898- 1916.
- المجلد السابع: فلسطين في عشرينيات القرن العشرين.
- المجلد الثامن: فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.